المختار من كتاب

الكامل في اللغة والأدب

للمبرد

اختيار
الدكتور حسين نصار
أستاذ الأدب العربي
عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة «سابقاً»

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

obeikandl.com

الطبعـة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

رقم الإيداع	١٤٧٧٨/ ٢٠٠١
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 341 -050 -1

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد - الظاهر - القاهرة
ت: ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قال العالم المعروف ابن خلدون : « سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول هذا الفن (فن الأدب) وأركانه أربعة دواوين ، وهى : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادىّ . وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها ، وفروع عنها » .

تلك نظرة القدماء إلى كتاب الكامل للمبرد ... الكتاب الذى دفعنى القول السابق وأمثاله إلى محاولة تقديمه إلى القراء ، فى هذه الصورة التى أشارت بها إدارة التراث العربى من وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، تيسيرا على القارئ العام ، وغير المتخصص فى دراسة الأدب .

وصاحب هذا الكتاب محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالىّ الأزْدىّ البصرىّ ، أبو العباس المبرّد ، من العلماء الأدباء ، الذين نالوا من الشهرة فى حياتهم ما لم تنقصه الأيام .

ولد أبو العباس يوم الاثنين غداة عيد الأضحى سنة عشر ومئتين ، وقيل : سنة سبع ومئتين بمدينة البصرة من العراق .

واختلف المؤرخون فى أصل المبرد . فنقل ابن النديم « من خط الحكيمىّ من كتاب حلية الأدباء ، قال أبو عبد الله محمد بن القاسم : كان المبرد من السورحيِّين بالبصرة ، ممن يُكسّر الأرَضِين ، وكان يقال له : حَيان السورحىّ ، وانتمى إلى اليمن ، ولذلك تزوج المبرد ابنة الحفصىّ ، والحفصى شريف من اليمنية » . واختار المبرد من قبائل اليمن ثمالة من الأزد ، لينتسب إليها . واشتهى أن يشتهر بهذه القبيلة ، فصنع أبياتا من الشعر فى هجاء نفسه كى لا يشك فيها أحد ، فشاعت وحصل له مقصوده . هذه الأبيات هى قوله :

سألنا عن ثمالةَ كلَّ حَىٍّ ... فقال القائلون : ومن ثمالةْ ؟
فقلت : محمد بن يزيد منهم ... فقالوا : زدتنا بهم جَهالةْ
فقال لىَ المبرد : خَلِّ عنى ... فقَومى معشر فيهم نذالةْ

وذهب غير هؤلاء من العلماء إلى أنه عربىّ من هذه القبيلة ، وأن الشعر قاله عبد الصمد بن المعذَّل فى هجائه .

وإذ كانت البصرة فى عصر المبرد موطن الأدب واللغة والنحو ، أخذ يتلقى هذه العلوم فى حلقاتها المختلفة . ثم ارتحل إلى بغداد ليكمل دراساته . فدرس على أبى عمر الجرْمى ، وأبى عثمان المازنى ، وأبى حاتم السِّجِستانى وغيرهم من أهل العربية . ويقال : إنه بدأ بقراءة كتاب سيبويه على الجرمى ، ثم ختمه على المازنىّ ، وصار بعدُ أكثرُ اعتماده على الأخير منهما .

وما زالت همة المبرد تسمو به إلى أن صار إمام المذهب البصرىّ فى النحو العربى ببغداد . وخلع عليه المؤرخون صفات التمجيد ، فقيل عنه : « كان حسن المحاضرة ، فصيحا ، بليغا ، مليح الأخبار ، ثقة فيما يرويه ، كثير النوادر، فيه ظرافة ولباقة » .

وقال أبو بكر بن مجاهد : « ما رأيت أحسن جوابا من المبرد فى معانى القرآن ، فيما ليس فيه قول لمتقدم » . وقال نفطويه : « ما رأيت أحفظ لأخبار بغير أسانيد منه ومن أبي العباس بن الفُرات » . وقال أبو سعيد السيرافى : « وقد نظر فى كتاب سيبويه فى عصره جماعة لم يكن لهم كتناهيه ، مثل أبى ذكْوان القاسم بن إسماعيل ، ومثل أبى على بن ذكوان، ومثل أبى يعلى بن أبى زُرْعة ، من أصحاب الحديث ، ومثل الطبرىّ ، ومثل أبي عثمان الاشناندانى ، وأبى بكر محمد بن إسماعيل المعروف بمبرمان وغيرهم ». وقال إسماعيل القاضى: «ما رأى المبرد مثل نفسه».

وبعد أن بلغ المبرد ما بلغ ، اصطدم برأس المذهب الذى يخاصم مذهب أهل البصرة ، وهو أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، إمام الكوفيين فى عصره . واشتهرت الخصومة بينهما ،حتى ضربت بها الأمثال . قال بعض الشعراء :

كَفَى حَزَنا أنّا جميعا ببلدةٍ ... ويجمعنا فى أرضها شَرُّ مَشْهَدِ
وكلٌّ لكلٍّ مُخلِصُ الودِّ وامق ... ولكنه فى جانب عنه مُفْرِدِ
نروح ونغدو لا تزاوُرَ بيننا ... وليس بمضروبٍ لنا يومُ موعِدِ
فأبداننا فى بلدة والتقاؤنا ... عَسيرٌ كلُقْيا ثعلب والمبرد

وقامت معارك شعرية بين الإمامين وأنصارهما ، يحاول كل شاعر فيها أن يدافع عن إمامه ويهاجم خصمه . قيل « جاء رجل إلى ثعلب فقال له : يا أبا عباس ، قد هجاك المبرد . فقال : بماذا ؟ فأنشده :

أُقْسمُ بالمبْتَسَمِ العَذْبِ ... ومُشْتَكَى الصَّبِّ إلى الصَّبِّ
لو أخذ النحو عن الربِّ ... ما زاده إلا عمى القلب

فقال : أنشدني من أنشده أبو عمرو بن العلاء :

يشتمني عبدُ بني مِسْمَع ... فصُنْت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لاحتقاري لـــه ... من ذا يعض الكلبَ إنْ عضا

وقال أحمد بن عبد السلام يفضل المبرد على ثعلب :

رأيت محمد بن يزيد يسمو ... إلى الخيرات في جاه وقدْرِ
جليس خلائف وغَذِيُّ مُلكٍ ... وأعلم من رأيتُ بكل أمــر
وفِتْيانيّة الظرفاءِ فيـــــه ... وأبهـــة الكـــبير بغير كِبْر
فينثر إن أجال الفكــر دُرّا ... وينثر لؤلؤا من غــير فــكر
وكان الشعر قد أودى فأحيا ... أبو العباس داثر كــل شعر
وقالوا : ثعلبٌ رجل عليــم ... وأين النجم من شمس وبدر ؟
وقالوا : ثعلب يفتى ويملى ... وأين الثُّعْلبان من الهِزَبْر ؟

وتوسط بعض الشعراء فقال :

أيا طالبَ العلم لا تجْهَلَنْ ... وعُذْ بالمبرد أو ثعـــلب
تجد عند هذين علم الورى ... فلا تك كالجمــل الأجرب
عـــلوم الخلائق مقرونة ... بهذين في الشـــرق والمغرب

وكان المبرد يحب الاجتماع بثعلب في المناظرة ، وكان ثعلب يكره ذلك ويمتنع منه . وقد روى خبر عن ذلك يكشف عن شخصية الرجلين . حكى أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الفقيه الموصلي ، وكان صديقهما ، قال : قلت لأبي

obeikandi.com

عبد الله الدينورى ختن ثعلب : « لِمَ يأبى ثعلب الاجتماع بالمبرد ؟ » فقال : « لأن المبرد حسن العبارة ، حُلو الإشارة ، فصيح اللسان ، ظاهر البيان ؛ وثعلب مذهبه مذهب المعلمين . فإذا اجتمعا فى محفل حكم للمبرد على الظاهر ، إلى أن يُعرف الباطن ».

ويبدو أن هذه الخصومة ، إلى جانب ما اتصف به المبرد من سعة الثروة اللغوية ، أثرها فى اتهامه بالكذب والانتحال والخطأ . قال العجوزى : « صرت إلى المبرد مع القاسم والحسن ابنى عبيد الله بن سليمان بن وهب . فقال لى القاسم : « سَلْهُ عن شيء من الشعر » . فقلت : « ما تقول أعزك الله فى قول أوس :

وغَيَّرَها عن وصلها الشيبُ إنه   شفيعٌ إلى بيض الخدور مُدَرَّبُ »

فقال بعد تمكث وتمهل وتمطق : «يريد أن النساء أنسن به فصرن لا يستترن منه» . ثم صرنا إلى أبى العباس ثعلب . فلما غص المجلس سألته عن البيت . فقال : « قال لنا ابن الأعرابى : إن الهاء فى « إنه » للشباب ، وإن لم يجر له ذكر ، لأنه عُلِمَ » . والتفتُ إلى الحسن والقاسم وقلت : « أين صاحبنا من صاحبكم ؟ » .

وقال المفجَّع البصرى : كان المبرد لكثرة حفظه للغة وغريبها ، يُتّهم بالوضع فيها . فتواضعنا على مسألة نسأله عنها لا أصل لها ، لننظر ماذا يجيب . وكنا قبل ذلك تمارَيْنا فى عَروض بيت الشاعر :

أبا مُنْذِرٍ أفنيتَ فاستَبْقِ بعضنا   حَنانَيْك بعضُ الشر أهون من بعض

فقال البعض : هو من البحر الفلانى . وتردد على أفواهنا من تقطيعه :

« قِ بَعْضنا » . ثم ذهبنا إلى المبرد فقلنا له : « أيدك الله تعالى ، ما القبَعْض عند العــرب ؟ » فقال : « هو القطن ، وفى ذلك يقول الشاعر : * كأنّ سنامها حُشِيَ القِبَعْضــا * » . فقلت لأصحابى : « ترون الجواب والشاهد ، فإن كان صحيحا فهو عجب، وإن كان مُختلَقا على البديهة فهو أعجب » .

وتــوفى المبرد يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذى الحجة – وقيل : ذى القعدة – ســنة ســت وثمــانين ، وقيل : خمس وثمانين ومئتين ببغداد . ودفن فى مقابر باب الكوفــة. ورثــاه أبو بكر الحسن بن على المعروف بابن العَلاّف ، وقيل : خصمه ثعلب ، فقال :

ذهب المــبرد وانقضت أيامُــه ... ولَيَذْهَبَنّ مع المـــــبرد ثعلبُ
بيت من الآداب أضحى نصفه ... خَرِبا ، وباقى النصف منه سيخرب
فتزودوا من ثعلبٍ فبكأس مــا ... شرب المبرد عن قريب يشـــرب
أوصيكمُ أن تكتبوا أنفاسَـــه ... إن كانت الأنفاس ممـــا يكتب

وقــد اختــلف العلماء فى صورة لقب أبى العباس وسببها. قيل إن البصريين يلقــبونه المبرِّد بكسر الراء ، وإن الكوفيين حرفوه ، ففتحوا الراء . فقال الحــافظ أبو الفرج بن الجوزى فى كتاب الألقاب: إن المبرد سئل: « لم لقبت بهذا اللقب ؟ » فقال : « كان سبب ذلك أن صاحب الشرطة طلبنى للمنادمة والمذاكرة ، فكرهت الذهاب إليه . فدخلت إلى أبى حاتم السجستانى ، فجاء رسول الوالى يطلبنى . فقال لى أبو حاتم : ادخل فى هذا ، يعنى غلاف مِزْملة فارغا . فدخلت فيه وغطى رأسه . ثم خــرج إلى الرســول وقال : هو ليس عندى : فقال : أُخبرت أنه دخل إليك . فقال : ادخل الدار وفتشها . فدخل فطاف كل موضع فى الدار ، ولم يفطن لغلاف المزمــلة ثم خــرج . فجعل أبو حاتم يصفّق وينادى على المِزْملة : المبرّد ، المبرد .

وتسامع الناس بذلك ، فلهجوا به » . وقال ياقوت : « إنما لقب بالمبرد ، لأنه لما صنف المازنى كتاب الألف واللام ، سأله عن دقيقه وعويصه ، فأجابه بأحسن جواب ، فقال له المازنى : « قم فأنت المبرد » بكسر الراء ، أى المثبت للحقّ ، فحرفه الكوفيون ، وفتحوا الراء » .

وكان المبرد من العلماء المكثرين فى التصنيف فى النواحى المختلفة من الثقافة العربية ؛ ألف فى النحو ، واللغة ، والأدب ، والقرآن ، والأخبار ، والأنساب ، وغيرها . ولدينا قائمة طويلة بأسماء ما ألف من كتب . ولكن بعض الغموض غطى على أشياء من هذه القائمة . ولذلك نستطيع القطع بموضوع بعض الكتب ومادتها وبأسماء بعض الكتب الأخرى التى وردت أسماؤها مختصرة حينا ، ومكتملة حينا آخر على أن بعض كتبه اتخذ عناوين مختلفة عند الكتاب ، ولسنا قادرين على جلاء كل هذه الشكوك والظنون .

وهذه قائمة بما عثرت عليه من عناوين كتبه فى المصادر المختلفة . كتاب المقتضب فى النحو ، وقيل عنه إنه أكبر مصنفاته وأنفسها – المدخل فى النحو – الإعراب – معنى كتاب سيبويه – المدخل إلى سيبويه – الزيادة المنتزعة من سيبويه – الرد على سيبويه – شرح شواهد الكتاب – معنى كتاب الأوسط للأخفش – التصريف – الاشتقاق – معانى القرآن أو الكتاب التام – إعراب القرآن – احتجاج القراء – الحروف – الحروف فى معانى القرآن – الفاضل والمفضول – شرح كلام العرب وتلخيص ألفاظها، ومزاوجة كلامها ، وتقريب معانيها – الأنواء والأزمنة – المذكر والمؤنث – المقصور والممدود – أسماء الدواهى عند العرب – صفات الله جل وعلا – العبارة عن أسماء الله تعالى – القوافى – العروض – ضرورة الشعر – قواعد الشعر – البلاغة – الخط والهجاء – ما اتفق لفظه

واختلف معناه فى القرآن – نسب عدنان وقحطان – طبقات النحاة البصريين وأخبارهم – الروضة – الجامع – الرياض المونقة – الوشى – الرسالة الكاملة – الحث على الأدب والصدق – أدب الجليس – الممادح والمقابح – التعازى – المناطق .

ومهما طالت هذه القائمة أو قصرت ، فإن صورة المبرد لا تنفصل عن صورة الكامل ، فلا يكاد المرء ينطق باسم المبرد حتى يرد على الخاطر اسم الكامل ، فهما مرتبطان أكثر من ارتباط المبرد بأى كتاب آخر من كتبه ، وكتاب الكامل هو الذى وهب مؤلفه المجد والخلود . والحق إن الكامل يمثل المبرد أدق تمثيل إذ يضم مواد تنتمى إلى كل ميدان ألمّ به من ميادين الثقافة العربية ، فيه النحو ، واللغة ، والأدب ، والأخبار ، والقرآن ، والعَروض وغيرها . ولم يبتكر المؤلف منهجا خاصًّا به ، فى سبيل عرض هذه المواد ، بل إن منهجه منهج أصحاب كتب النوادر والأمالى وأمثالها . ولكن على حين أغرق هؤلاء فى النحو واللغة ، ولم يحسنوا عرض ماتعرَّضوا له ، أكثر المبرد من الأخبار واللطائف ، وأجمل إبراز ما أحب إبرازه من أخبار ، فكاد المرء لا يحس بمشاق النحو واللغة حين غطى عليها جمال الأدب . وإن قارئ الكامل ليخرج منه بمواد متصلة بتاريخ العرب فى جاهليتهم وإسلامهم، فى حياتهم السياسية والثقافية والأدبية ، لا يجد مثيلا لها فى كتاب آخر من كتب الثقافة العربية ، ولو تخصصت فى الفروع المذكورة .

ولما كان الكامل بهذه القيمة ، فقد عنى الدارسون المحدثون به عناية شديدة فطبع فى أوروبا ، وفى مصر أكثر من مرة . ولكن أضبط هذه الطبعات وأدقها وأشدها تحريا لمنهج التحقيق العلمى الحديث طبعة أوروبا . وتقع فى مجلد ضخم .

أمـــــا الطبعات المصرية فجعلته فى مجلدين ، يبلغ الواحد منهما قريبا من ٣٥٠ صفحة.

وقد حاولت فى هذا المختصر أن أحافظ كل المحافظة على عبارة المؤلف ، فلم أدخـــل عـــليها غريبا عنها إلا فى مواضع معدودة ، للربط بين الأخبار ، إلى جانب العـــناوين الـــتى جعلتها فى رأس المواد . وكان القسط الأكبر مما حذفت يتألف من الإضـــافات التى أدخلها (أبو الحسن الأخفش الأصغر) على الكتاب ، فحذفتها جميعـــا ؛ ومن الشروح النحوية والصرفية واللغوية التى كان يأتى بها بعد كل خبر . أما الأخبار أنفسها فقد حاولت جاهدا أن يكون ما أحذفه منها قليلا ، حتى أحتفظ بجوهر الكتاب ، وإن اضطررت إلى حذفها أحيانا ، وبخاصة حين يكون لها نظائر، ولا ســـيما أن المؤلـــف كان يأتى أحيانا بكثير من المتشابهات والشواهد على المثل الواحـــــــد .

وبعد ، فرجائى أن أكون قد وفّقت فى بعث الرغبة فى القارئ الحديث إلى أن يـــرجع إلى « كامل المبرد » الأصلى ، فذلك ما أعده نجاحا لى ، وتحقيقا لهدفى ، والله الموفق إلى خير السبل ،،،،،

الدكتور حسين نصار

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

مقدمة المؤلف

الحمـــد لله حمـــدا كثيرا يبلغ رضاه ، ويوجب مزيده ، ويُجير من سخطه . وصـــلى الله عـــلى محمد خاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ، صلاة تامة زاكية ، تؤدى حقه ، وتُزلفه عند ربـــه .

هـــذا كـــتاب ألّفناه ، يجمع ضروبا من الآداب : ما بين كلام منثور ، وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة .

والـــنية فيـــه أن نفّســـر كل ما وقع فى هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مســـتغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا شافيا ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيا ، وعن أن يرجع إلى أحد فى تفسيره مستغنيا .

وبالله التوفيق والحول والقوة ، وإليه مَفْزعنا فى دَرْك كل طَلِبة ، والتوفيـــــق لمـــا فيه صلاح أمورنا من عمل بطاعته ، وعقد برضاه ، وقول صادق يرفعه عمل صالح ؛ إنه على كل شىء قدير .

من خطب
الرسول والصحابة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار فى كلام جَرَى : « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع » .

الفزع فى كلام العرب على وجهين : أحدهما ما تستعمله العامة تريد به الذعر، والآخر الاستنجاد والاستصراغ ، ويشتق من هذا المعنى أن يقع فزع فى معنى أغاث .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بأحبكم إلىّ ، وأقربكم منى مجالس يوم القيامة : أحاسنُكم أخلاقا ، الموطَّئون أكنافا ، الذين يألفون ويُؤلفون . ألا أخبركم بأبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة : الثرثارون المُتَفَيْهقون » .

قوله صلى الله عليه وسلم : الموطئون أكنافا ، مَثَل وحقيقته : أن التوطئة هى التذليل والتمهيد ، يقال فراش وَطيء ، إذا كان وثيرا لا يؤذى جنب النائم عليه ، فأراد القائل موطأ الأكناف ، أن ناحيته يتمكن فيها صاحبها غير مؤذًى ولا ناب به موضعه . وتأويل الأكناف الجوانب ، يقال فى المثل فلان فى كنف فلان ، كما يقال فلان فى ظل فلان ، وفى ذَرى فلان ، وفى ناحية فلان ، وفى حَيِّز فلان . والثرثارون : يعنى الذين يكثرون الكلام تكلفا وتجاوزا خروجا عن الحق .

والمتفيهقون : إنما هو بمنزلة قوله الثرثارون ، توكيد له، من قولهم فَهِق الغدير يَفْهَق، إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد .

وتصديق ما فسرناه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه يريد الصدق فى المنطق والقصد وترك ما يحتاج إليه، قوله لجرير بن عبد الله البَجَلىّ : « يا جرير ، إذا قلت فأوْجِز ، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف » .

ومما يؤثَر من حكيم الأخبار وبارع الآداب ما حُدِّثنا به عن عبد الرحمن بن عوف ، وهو أنه قال : « دخلت يوما على أبي بكر الصديق رضى الله تعالىعنه فى عِلَّته التى مات فيها ، فقلت له : أراك بارئا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أمَا إنى على ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد علىَّ من وجعى ، إنى ولّيت أموركم خيركم فى نفسى ، فكلُّكم وَرِم أنفُه أن يكون له الأمر من دونه . والله لَتَتَّخِذُنَّ نضائد الديباج وستور الحرير ، ولَتَألَمُنَّ النوم على الصوف الأذْرَبِىّ ، كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان. والذى نفسى بيده ، لأنْ يُقدَّم أحدكم فتضرَب عنقه فى غير حَدّ خَيْرٌ له من أن يخوض غَمَرات الدنيا ، يا هادىَ الطريق ، جُرْتَ ، إنما هو والله الفجر أو البَجْر . فقلت : خَفِّض عليك يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا يَهِيضك إلى ما بك . فو الله ما زلتَ صالحا مُصلحا لا تَأْسَ على شىء فاتك من أمر الدنيا ، ولقد تخليت بالأمر وحدك فما رأيت إلا خيرا » .

قوله : نضائد الديباج ، واحدها نَضِيدة ، وهى الوسادة ، وما يُنضَد من المتاع . وقد تسمى العرب جماعة ذلك النَّضَد ، والمعنى واحد . والصوف الأذربي:

فهذا منسوب إلى أذْربيجان . والسَّعْدانُ : نبت كثير الحسَك [1] تأكله الإبل فتسمن عليه ، ويغذوها غذاء لا يوجد فى غيره . فمن أمثال العرب « مرعًى ولا كالسعدان » ، تفضيلا لـه . وقوله : إنما هو والله الفجْر أو البجر [2] ، يقول : إن انتظرت حتى يضىء لك الفجر الطريق أبصرتَ قصدك : وإن خبطت الظلماء ، وركبت العَشواء ، هَجَما بك على المكروه . وضرب ذلك مثلا لغمرات الدنيا وتحييرها أهلها . وقوله : يهيضك : مأخوذ من قولهم : هِيضَ العظم ، إذا جُبِر ثم أصابه شىء يُعْنِته فآذاه فكسره ثانية أو لم يكسره ، وأكثر ما يستعمل فى كسره ثانية . وقوله : فكلكم ورم أنفه ، يقول : امتلأ من ذلك غضبا . وذكر أنفه دون السائر [3] ، كما يقال : فلان شامخ بأنفه ، يريد رافع رأسه ، وهذا يكون من الغضب . وقوله : أراك بارئا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكون من بَرِئت من المرض وبَرَأت ، كلاهما يقال ، فمن قال بَرِئت قال أبرَأ لا غير ، ومن قال بَرَأت قال فى المضارع أبرَأ وأبرُؤ مثل فَرَغ يَفرَغ ويَفْرُغ ، والمصدر فيهما البُرْء.

ومما يؤثَر من هذه الآداب ويقدّم قول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فى أول خطبة خطبها . حَمَد الله وأثنى عليه ، وهو أهله ، وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . ثم قال :

« أيها الناس ، إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه » . ثم نزل .

---

(1) الحسك : الشوك .

(2) البجر : الشر أو الأمر العظيم .

(3) يريد : سائر بدنه .

ومـــن ذلـــك رسالته فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى ، وهى التى جمع فيها جُمَل الأحكام واختصرها بأجود الكلام ، وجعل الناسُ بعده يتخذونها إماما ، ولا يجد مُحِقّ عنها مَعْدلا ، ولا ظالم عن حدودها مَحِيصا . وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك : أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة ، وسُنّة متبعة . فافهم إذا أُدْلِى إليك ، فإنه لا يـــنفع تَكلمٌ بحق لا نَفاذَ له . آسِ فى الناس بين وجهك وَعَدْلك ومجلسك ، حتى لا يطمـــع شـــريف فى حَيْفك ، ولا ييأس ضعيف من عَدْلك . البيّنة على من ادّعَى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحَل حراما أو حرّم حلالا . لا يَمْنعنَّك قضاءٌ قضيتَه اليومَ ، فراجعت فيه عقلك، وهُديت فيه لرشدك ، أن تـــرجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خيرٌ من التمادى فى الباطل . الفهـــمَ الفهـــمَ فـــيما تَلْجَلجَ فى صدرك ، مما ليس فى كتاب ولا سنة . ثم اعرف الأشـــياء والأمـــثال ، فقِس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بـــالحق ، واجعـــل لمـــن ادعى حقا غائبا أو بَيّنة أمَدا ينتهى إليه ، فإن أحضر بَيّنته أخـــذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية ، فإنه أ نفَى للشك ، وأجْلى للعَمى . المســـلمون عُـــدُول بعضهم على بعض ، إلا مجلودا فى حَدّ ، أو مجرَّبا عليه شهادة زور، أو ظَنِيـــنا فى وَلاء أو نســـب. فإن الله تَوَلَّى منكم السَّرائر ، ودَرَأ بالبينات والأيمان ، وإياك والغَلَق، والضجَر ، والتأذىَ بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات. فـــإن الحق يعُظِم الله به الأجر ، ويحسن به الذخر . فمن صحّت نيته ، وأقبل على نفســـه ، كفـــاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله . فما ظَنُّك بثواب غير الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته ؟ والسلام .

obeikandl.com

قوله : آس بين الناس فى وجهك وعدلك : يقول سَوِّ بينهم ، وتقديره : اجعل بعضهم أسوة بعض . وقوله : حتى لا يطمع شريف فى حَيْفك ، يقول : فى ميلك معه لشرفه . وقوله : فيما تلجلج فى صدرك : يقول : تردد ، وأصل ذلك المُضْغة والأكلة يرددها الرجل فى فيه ، فلا تزال تتردد إلى أن يسيغها أو يقذفها ، والكلمة يرددها الرجل إلى أن يصلها بأخرى ، يقال للعَيِى لَجْلاج . ومن أمثال العرب : « الحق أبْلَج والباطل لجْلَج » أى يتردد فيه صاحبه فلا يصيب مخرجا، وقوله : أو ظنينا فى ولاء أو نسب ، فهو المتهم ، وأصله مظنون ، وهى ظننت التى تتعدى إلى مفعول واحد ، تقول ظننت بزيد وظننت زيدا أى اتهمت . وفى بعض المصاحف : « وما هو على الغيب بظنين » . وإنما قال عمر رضى الله عنه ذلك لما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ملعون ملعون من انتمى إلى غير أبيه، أو ادّعى إلى غير مواليه » . فلما كانت معه الإقامة على هذا لم يره للشهادة موضعا . وقوله : ودرأ بالبينات والأيمان ، إنما هو دَفَع ، من ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادرءوا الحدود بالشُبُهات » . وأما قوله : وإياك والغلق والضجر ، فإنه ضيق الصدر وقلة الصبر ، يقال فى سوء الخلق رجل غَلِق، وأصل ذلك من قولهم أُغْلِق عليه أمره ، إذا لم يتّضح ولم ينفتح . وقوله : ومن تخلّق للناس: يقول أظهر للناس فى خلقه خلاف نيته . وقوله تخلّق يريد أظهر خلقا مثل تجمّل يريد أظهر جمالا وتصنّع .

وكتب عُثمان بن عَفّان إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما حين أُحيط به : « أما بعد ، فإنه قد جاوز الماء الزُّبى ، وبلغ الحزام الطُّبْيَين ، وتجاوز الأمر بى قدرّه ، وطمع فىّ من لا يدفع عن نفسه :

فإن كنتُ ماكولا فكن خيرآ كلٍ وإلا فاذْرِكْنى ولما أُمزّقِ » .

قولـــــه : قد جاوز الماء الزبى ، فالزبية : مصيدة الأسد ، ولا تُتَّخذ إلا فى قُلَّة أو رابية أو هضبة . وتقول العرب : قد علا الماء الزّبى ، وقد بلغ السِّكين العظم ، وبـــلغ الحزام الطبْيين ، وقد انقطع السَّلَى فى البطن . فالسَّلَى من المرأة والشاة : ما يلـــتف فيه الولد فى البطن . وبلغ الحزام الطُّبْيين ، فإن السباع والخيل يقال لمواضع الأخْـــلاف [1] منها أطْباء ، واحدها طُبْى . فإذا بلغ الحزام الطبيين فقد انتهى فى المكروه . ومثل هذا من أمثالهم : التقت حَلْقتا البِطان والحَقَب .

وتحدّث ابن عائشة فى إسناد ذكره أن عليّـــا رضى الله عنه انتهى إليه أن خيلا لمعاوية وردت الأنْبار فقتلوا عاملا له يقال له حَسان ، فخرج مغْضَبا يجرّ ثوبه حتى أتـــى النُّخَيـــلة ، واتبعه الناس . فرقِى رَباوة من الأرض ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم قال :

« أمـــا بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله الـــذل وسيما الخَسْف ، وديِّث بالصَّغار . وقد دعَوْتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلا ونهـــارا ، وســـرًّا وإعلانا ، وقلت لكم : اغزوهم من قبل أن يغزوكم . فو الذى نفسى بيده ما غُزِى قوم قَطُّ فى عُقْر دارهم إلا ذلوا . فتخاذلتم ، وتواكلتم ، وثَقُل عـــليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظِهْريّا ، حتى شُنَّت عليكم الغارات . هذا أخو غامِد ، قد وردت خيله الأنبار وقتلوا حسّان بن حسّان ورجالا منهم كثيرا ونساء. والذى نفسى بيده ، لقد بلغنى أنه كان يُدخَل على المرأة المسلمة والمعاهدة فتُنتَزَع أحجالُهمـــا ورُعُثهما ، ثم انصرفوا موفورين : لم يُـــكلَم منهم أحد كَلْما . فلو أن امـــرءا مسلما مات من دون هذا أسفا ما كان عندى فيه ملوما ، بل كان به عندى جديـــرا . يـــا عَجَـــبا كلَّ العَجَب ، عَجَبٌ يميت القلب ، ويَشْغَل الفهم ، ويكثر

---

[1] الأخلاف : جمع خلف ، وهو حلمة ضرع الناقة .

الأحـــزان ، مـــن تَضـــافُر هؤلاء القوم على باطلهم ، وفَشلكم عن حقكم ، حتى أصـــبحتم غَرَضا ، تُرْمَوْن ولا تَرمُون ، ويُغار عليكم ولا تُغِيرون، ويعُصَى الله عز وجـــل فيكـــم وتَرْضَوْن . إذا قلت لكم اغزُوهم فى الشتاء ، قلتم : هذا أوان قُرٍّ وصِـــرّ ، وإن قـــلت لكم : اغزوهم فى الصيف ، قلتم : هذه حمارَّة القيظ ، أنْظِرْنا ينَصرم الحرُّ عنا . فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون ، فأنتم والله من الســـيف أفَرُّ. يا أشباهَ الرجال ولا رجال ، ويا طَغام الأحلام ، ويا عقول ربّات الحِجال ! والله لقد أفســـدتم عليَّ رأيي بالعصيان ، ولقد ملأتم جوفى غيظا ، حتى قالت قريش : ابنُ أبى طـــالب رجـــــل شجاع ، ولكن لا رأيَ له فى الحرب ، لله دَرّهم ! ومن ذا يكون أعلم بها منى ، أو أشدّ لها مِراسا ، فوالله لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، ولقد نَيَّفتُ اليوم على الستين ، ولكن لا رأى لمن لا يطاع » . يقولها ثلاثا .

فقام إليه رجل ومعه أخوه ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، أنا وأخى هذا كما قال الله تعالى : ﴿ رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى﴾ ، فمُرنا بأمرك ، فوالله لَنَنْتَهِيَنَّ إليه ولو حال بيننا وبينه جمر الغَضَى ، وشَوْك القَتادِ » . فدعا لهما بخير، ثم قـــال لهما : « وأين تقعان مما أريد ؟ » . ثم نزل .

قوله : سيما الخسف، هكذا حدثونا، وأظنه سِيم الخسف يا هذا ، من قول الله عـــز وجـــل لهما : ﴿ يَسُومونكم سوء العذاب﴾ . ومعنى قوله : سيما الخسف ، تأويله علامة ، قال الله عز وجل : ﴿سيماهم فى وجوهم من أثر السجود﴾ . وقوله: وديث بالصغار ، تأويلة ذُلّل ، يقال للبعير إذا ذللته الرياضة بعير مُديَّث أى مذلّل . والعقـــر : الأصل ، ومن ثَمَّ قيل : لفلان عَقار ، أى أصل مال . وقوله : واتخذتموه وراءكـــم ظهريا ، أى رميتم به وراء ظهوركم ، أى لم تلتفتوا إليه . وقوله: فتنتزع أحجالهمـــا يعـــنى الخلاخيل ، واحدها حِجْل . وقوله : ورُعُثهما : الواحدة رَعْثة ،

وجمعها رِعاث ، وجمع الجمع رُعُث ، وهى الشُّنوف . وقوله : ثم انصرفوا موفورين: من الوَفْر أى لم يُنَل أحد منهم بأن يُرْزأ فى بدن ولا مال . وقوله : لم يكلم أحد منهم كلما : يُخدَش أحد منهم خدشا ، وكل جرح صغر أو كبر فهو كَلْم .

وقوله : وفشلكم عن حقكم ، يقال : فشل فلان عن كذا ، إذا هابه فنكَل عنه ، وامتنع من المضى فيه . وقوله قلتم : هذا أوان قرّ وصرّ . فالصر : شدة البرد ، قال الله عز وجل : ﴿كمثل ريح فيها صرّ﴾ . وقوله : ويا طغام الأحلام ، فمجاز الطغام عند العرب من لا عقل له ولا معرفة عنده . وقوله : ويا عقول ربات الحجال ، ينسبهم إلى ضعف النساء ، وهو السائر فى كلام العرب .

أشعار مستحسنة

من كلام العرب الاختصار المفهم ، والإطناب المفخم . وقد يقع الإيماء إلى الشىء فيُغنى عند ذوى الألباب عن كشفه ، كما قيل : لمحة دالة . وقد يضطر الشاعر المُفلِق ، والخطيب المِصْقَع ، والكاتب البليغ ، فيقع فى كلام أحدهم المعنى المُستغلِق ، واللفظ المُستكرَه ، فإن انعطفتْ عليه جَنبتَا الكلام ، غَطّتا على عَوارِه وسترتا من شَيْنه . وإن شاء قائل أن يقول : بل الكلام القبيح فى الكلام الحسن أظهر ، ومجاورته له أشهر ، كان ذلك له . ولكن يُغْتَفَر السيىء للحسن ، والبعيد للقريب. فمن ألفاظ العرب البينة القريبة المفهمة ، الحسنة الوصف ، الجميلة الرَّصْف قول الحُطَيئة :

وذاك فتى إنْ تَأْتِه فى صنيعة إلى ماله لا تأته بشفيع

وكذلك قول عنترة :

يُخْبِرْكِ مَــنْ شَهِدَ الوَقيعةَ أنّني ... أغْشَى الوَغَى وأعِفُّ عند المغنَم

وكما قال زُهَير :

على مُكْثِريهم حَقٌّ من يَعْتَرِيهمُ ... وعند المُقلّين السّماحة والبَــذْلُ

ومما وقع كالإيماء قول الفرزدق :

ضَربتْ عليك العنكبوتُ بنَسْجِها ... وقَضَى عليك به الكتــاب المُنْزَلُ

فتأويل هذا أن بيت جرير فى العرب كالبيت الواهى الضعيف . فقال : وقضى عليك به الكتاب المنزل ، يريد به قول الله تبارك وتعالى : ﴿وإنَّ أَوْهَنَ البيوت لبيتُ العنكبوتِ لو كانوا يعلمون﴾ .

ومن أقبح الضرورة ، وأهْجَن الألفاظ ، وأبعد المعانى قوله :

وما مِثْلهُ فى الناسِ إلا مُمَلَّــكا ... أبو أمّه حَيٌّ أبوه يقُــارِبُــهْ

مدح بهذا الشعر إبراهيم بن هشام ، خال هشام بن عبد الملك ، فقال : وما مثله فى الناس إلا مملكا – يعنى بالمُمَلّك هشاما – أبو أم ذلك المُمَلك أبو هذا الممدوح . ولو كان هذا الكلام على وجهه لكان قبيحا ، وكان يكون إذا وضع الكلام فى موضعه أن يقول : وما مثله فى الناس حيّ يقاربه إلا مُملّك ، أبو أمّ هذا المملّك أبو هذا الممدوح ، فدل على أنه خاله بهذا اللفظ البعيد . وهَجّنه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير ، حتى كأن هذا الشعر لم يجتمع فى صدر رجل واحد مع قوله حيث يقول :

تَصرَّمَ منى وُدُّ بَكْرِ بن وائــل ... وما كاد منّى وُدُّهم يَتصرَّمُ

قَوارصُ تأتينى ويحتقرونهــا ... وقد يَملأُ القَطْرُ الإناءَ فيَفْعَمُ

فهـــذا أوضـــح معنى ، وأعْرَب لفظ ، وأقرب مأخذ . وليس لِقدَم العهـــــد يُفضَّـــل القائـــل ، ولا لحدْثان عهد يُهتضَم المُصيب ، ولكن يُعطَى كلٌّ ما يستحق.
ألا ترى كيف يُفضَّل قول عمارة على قرب عهده :

تَبَحَّثْتُمُ سُخْطِى فغَيَّرَ بَحْثُكم | نُخَيلةَ نَفْسٍ كان نُصْحًا ضَميرُها
ولن يُلْبِثَ التَّخْشِينُ نَفْسا كَرِيمةً | عَريكتُها أن يَسْتَمِرَّ مريرُهـــا
وما النفسُ إلا نُطْفَةٌ بقَـــرارةٍ | إذا لم تكَدَّرْ كان صَفْوًا غديرُها

فهذا كلام واضح وقول عذب ، وكذلك قوله أيضـــا :

بنى دارمٍ إنْ يَفْنَ عمرى فقد مضى | حيـــاتى لكم منى ثَناءٌ مُخَلَّدُ
بدأتم فأحسنتم فأثنيتُ جاهـــــدا | وإن عُدْتمُ أثنيتُ والعَوْدُ أحْمَد

ومما يفضّل لتخلصه من التكلّف ، وسلامته من التزيّد ، وبُعده من الاستعانة ، قول أبي حَيّةَ النمَيرىّ :

رمتْنى وسِتْرُ الله بينى وبينهـــــا | عشيـــَةَ أرآم الكنِـــاسِ رَمِيمُ
ألا رُبَّ يومٍ لو رمتْنى رميتُهـــا | ولكنَّ عَهْدِى بالنّضالِ قـــديم

يقول : رمتنى بطَرْفها وأصابتنى بمحاسنها ، ولو كنت شابا لرَمَيت كما رُمِيت وفَتَنت كما فُتِنت ، ولكن قد تطاوَل عهدى بالشباب . فهذا كلام واضح .

وأما ما ذكرناه من الاستعانة فهو أن يُدخل فى الكلام مالا حاجة بالمستمع إليه لِيُصــحِّح بــه نظما أو وزنا إن كان فى شعر ، أو ليتذكر به ما بعده ، إن كان فى كـــلام العامة ، مثل قولهم : ألستَ تسمع ؟ أفهمت ؟ أين أنت ؟ وما أشبه هذا .

وربما تشاغل العَيِيُّ بفتل إصبعه ، ومسِّ لحيته ، وغير ذلك من بدنه ؛ وربما تنحنح . وقد قال الشاعر يعيب بعض الخطباء فى شعره :

مَلِيءٌ بِبُهْرٍ والتفاتٍ وسُعْلَةٍ ... ومَسْحةِ عُثْنون وفَتْلِ الأصابع [1]

وقال رجل من الخوارج يصف خطيبا منهم بالجُبْن ، وأنه مجيد لولا أن الرعب أذهله :

نَحْنَحَ زيدٌ وسَعَلْ ... لمـا رأى وقْع الأَسَلْ [2]
وَيْلُمِّهِ إذا ارتحـل ... ثم أطال واحتفـلْ

ومـمـا يُستحسن لفظه ، ويُستغرَب معناه ، ويُحمد اختصاره ، قول أعرابيّ من كلاب :

فمَنْ يَكُ لم يَغْرَضْ فإنى وناقتى ... بحَجْرٍ إلى أهل الحِمَى غَرِضان [3]
تَحِنُّ فتُبدِى ما بها من صَبابة ... وأخفى الذى لولا الأَسَى لقضانى [4]

يـريد لقضى علىّ . فأخرجه لفصاحته وعلمه بجوهر الكلام ، أحسن مُخْرج ، قـال الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ ، والمعنى إذا كالوا لهم أو وزنـوا لهم ، ألا ترى أن أول الآية : ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ فهؤلاء أخذوا منهم ، ثم أعطوهم . وقال الشاعر :

---

(1) البهر : انقطاع النفس من الإعياء . والعثنون : اللحيـة .

(2) الأسـل : الرمـاح .

(3) يغرض : يشـتاق .

(4) الأسى : جمع أسوة ، وهى القدوة ، يريد لولا اقتدائى بالناس لقضى على .

أمرتُك الخيرَ فافعلْ ما أُمرتَ به		فقــد تركتك ذا مال وذا نَشَبِ

ومــن سهل الشعر وحسنه قول طُخَيم بن أبى الطَّخْماءِ الأسَدى ، يمدح قوما من أهل الحيرة من بنى امرئ القيس بن زيد مناة ، قال :

كأنْ لَمْ يكن يومٌ بزَوْرَةَ صـــالحٌ		وبالقَصْرِ ظِلٌّ دائمٌ وصـــديقُ
ولم أرِدِ البطحاءَ يَمزُجُ ماءَهـــا		شرابٌ من البرُوقَتَيْنِ عتيـــق
معى كلُّ فَضْفاض القميص كأنّــه		إذا ما سَرتْ فيه المدامُ فَنِيـــق
بنو السِّمطِ والحَدَّاء كلُّ سَمَيْدَعٍ		له فى العُروق الصالحات عروق[1]
وإنّى وإن كانوا نصــارى أُحِبُّهم		ويرتاح قلبى نحوهـــم ويَتُوق

قولـــه : معى كل فضفاض القميص : يريد أن قميصه ذو فضول ، وإنما يقصد إلى ما فيه من الخُيَلاء ، كما قال زهير :

يَجُرّون الذيول وقد تمشّت		حُمَيّا الكأس فيهم والغنـــاء

ويقـــال : إن تأويل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فَضْل الإزار فى الـــنار » إنما أراد معنى الخيلا ء. وأما الفَنيق فإنه الفحل ، وإنما أراد خَطَرانه بذنبه مـــن الخيـــلاء ، فشبّه الرجل من هؤلاء إذا انتشى بالفحل ، وهو إذا خطر ضرب بذنبه يمنة وشأمة .

وممـــا يستحسن إنشاده من الشعر لصحة معناه ، وجزالة لفظه ، وكثرة تردد ضَـــرْبه مـــن المعانى بين الناس ، قول ابن مَيَّادة ، لرياح بن عثمان بن حيّان المُرِّى

---

(1) السميدع : السيد الكريم الشريف الشجاع . وزورة والبروقتان : موضعان .

وكلاهما من مُرّة غَطفَان ، يقوله فى فتنة محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن ، وكان أشار عليه بأن يعتزل القوم فلم يفعل ، فقُتِل ؛ فقال ابن ميّادة :

أمرتُك يارياحُ بأمــــرِ حَزْمٍ فقلتَ : هَشيمةٌ من أهل نَجْــدِ
نُهيتُك عن رجالٍ من قريــش على محبوكة الأصــلاب جُرْدِ
ووجْدا ما وَجَدْتُ على ريــاح وما أغنيتُ شيئا غير وجــدى

فقوله : فقلت هشيمة من أهل نجد : تأويله ضَعفَة ، وأصل الهشيم النبت إذا وَلّـى وجـفّ وتكسر ، فذَرَته الرياح يمينا وشمالا ، قال الله تعالى :﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَــذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ . والنجد : أعالى الأرض . وقوله : على محبوكة الأصلاب جرد ، فالمحبوك : الذى فيه طرائق ، واحدها حِباك ، والجماعة حُبُك ، يقال لطرائق الماء : حُبُك ، وكذلك الطرائق التى على جناح الطائر .

من أقوال الحكماء فى المروءة

يـروى عن ابن عُمر أنه كان يقول : « إنا معشر قريش كنا نَعُدّ الجود والحِلْم التودّد، ونعُدُّ العفاف وإصلاح المال المروءة » .

وقال الأحنف بن قيس : « كثرة الضحك تُذهِب الهيبة . وكثرة المَزْح تُذهب المروءة . ومن لزم شيئا عُرِف به » .

وقيـل لعـبد المـلك بن مروان : « مالمروءة ؟ » فقال : « مُوالاة الأكفاء ومداجاة الأعداء » .

وتـأويل المُداجاة المُداراة ، أى لا تُظهر لهم ما عندك من العداوة ، وأصله من الدُّجَى ، وهو ما ألبسك الليل من ظلمته .

وقيل لمعاوية : « ما المروءة ؟ » فقال : « احتمال الجريرة ، وإصلاح أمر العشيرة » . فقيل له : « وما النُّبْل ؟ » . فقال : « الحلم عند الغضب ، والعفو عند المقدرة » .

نفاق

ويُروى أن معاوية بن أبي سفيان لما نصّب يزيدَ لولاية العهد ، أقعده فى قبة حمراء فجعل الناس يسلّمون على معاوية ، ثم يميلون إلى يزيد ، حتى جاء رجل ففعل ذلك ، ثم رجع على معاوية ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، اعْلم أنك لو لم تُولّ هذا أمور المسلمين لأضعتَها » ؛ والأحنف جالس . فقال له معاوية : « ما بالك لا تقول يا أبا بَحْر ». فقال : « أخاف الله إن كذبت ، وأخافكم إن صدقت » . فقال : « جزاك الله عن الطاعة خيرا » . وأمر له بألوف . فلما خرج الأحنف لقيه الرجل بالباب ، فقال : « يا أبا بحر إنى لأعلم أن شرَّ مَنْ خلق الله هذا وابنهُ ، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال ، فلسنا نطمع فى استخراجها إلا بما سمعت » . فقال له الأحنف : « يا هذا أمسِك ، فإن ذا الوجهين خليقٌ ألا يكون عند الله وجيها » .

هجاء وفخر

وقال رجل يهجو بلال بن البعير المُحارِبىّ :

يقولون أبناءُ البعير وماله ... سَنام ولا فى ذِروة المجد غارِبُ
أرادت ، وذاكم من سفاهةِ رأيها ، ... لأَهْجُوَها لمّا هَجَتْنى مُحارب
مَعاذَ إلهى إننى بعشيرتى ... ونفسى عن ذاك المقَام لَراغب

وقال أبو الطَّمَحان القَينى :

وإنى من القوم الذيـــــن همُ همُ | إذا مات منهم سيدٌ قــام صاحبُهْ
نجوم سماءٍ كلّما غـــار كوكبٌ | بدا كوكب تأوى إليه كواكبـه
أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم | دُجَى الليلِ حتى نظّم الجزْعَ ثاقبُه
وما زال منهم حيث كانوا مُسوَّدٌ | تسير المنايا حيث سارت كتائبُـه

وقال القتّال الكلابى ، واسمه عُبَيد بن المَضْرَحِىّ :

أنا ابنُ أسماءَ أعمامى لهـــا وأبى | إذا ترامَى بنو الإمْوانِ بالعـــار
لا أرضعُ الدهرَ إلا ثَدْىَ واضحة | لواضحِ الخدِّ يحمى حَوْزَةَ الجار
من آلِ سُفيانَ أو وَرْقاء يمنعهـــا | تحت العَجاجةِ ضربٌ غيرُ عُوّار
ياليتنى والمُنىَ ليست بنافعـــة | لمـالكٍ أو لحصنٍ أو لسَيّـار
طوال أنضيةِ الأعنـــاق لم يجدوا | ريحَ الإماءِ إذا راحتْ بأزفـار

قوله : إذا ترامى بنو الإموان بالعار ، فالإموان جمع أَمَة . وقوله : لا أرضع الدهرَ، فهذا على لغته ، لأن قيسا تقول رَضِع يَرضَع ، وأهل الحجاز يقولون رَضَع يرضِــيع ، وقولــه : لا أرضَع الدهر إلا ثدى واضحة : يقول : إنما ترضعنى أمى، وليست غير كريمة ، كما قال الأعْشَى :

يا خَيْرَ من يركـــب المَطِىّ ولا | يشربُ كأسًا بِكفٍّ مَنْ بَخِــلا

يقول : إنما تشرب بكفك ولست ببخيل . وقوله : واضحة ، أى خالصة فى نسبها وليست بأمة ، وهذا توكيد لبيته الأول . وقد أنشد بعضهم : لواضح الجَدّ ، والمعـــنى قـــريب . وقوله : يحمى حوزة الجار ، أى ما يَحُوزه ، يقال : فلان مانع لحوزتــه ، أى لما صار فى حَيِّزه . وقوله : لمالك أو لحصن أو لسيار ، فهؤلاء بيت

فزارة . وقوله : طوال أنضية الأعناق ، فالنَّضِيّ مُركب النصل فى السنْخ ، وضربه مــثلا ، وإنما أراد طوال الأعناق . وقوله بأزفار : فالزِّفر : الحِمْل ، ويضرب مثلا للرجل فيقال : إنه لَزُفَر ، أى حمّال للأثقال ، ويقال : أتى حِمْله فازْدَفَره [1] .

وقال رجل من بنى عَبْس :

لا تَشْتُمَنىّ يا ابْنَ وَرْدٍ فإنــــنى ... تَعُود على مالى الحقوقُ العَوائــدُ
ومن يؤثر الحقّ النَّؤوبَ تكــن به ... خَصاصة جسمٍ وهو طَيَّانُ ماجد[2]
وإنى امرؤ عافِى إنائىَ شِرِكــــةٌ ... وأنت امرؤ عافى إنائك واحــد [3]
أقَسِّــم جسمى فى جســوم كثيرة ... وأحْسُــو قَراحَ الماء والماءُ بــارد

قوله : النؤوب : يريد الذى ينوبه . وقال رجل من بنى تميم :

ألبان إبْلِ تَعلّة بنِ مســـــافر ... ما دام يملكها علىَّ حَــــــرامُ
وطعامُ عمرانَ بنِ أوْفى مثلهـــا ... مادام يسلك فى البطون طعـــامُ
إن الذين يَسُوغ فى أعناقهـــــم ... زادٌ يُمَنُّ عليهمُ لَلِئـــــــــامُ
لَعَن الإلهُ تعَلّة بن مســـافــر ... لعنًا يُشن عليه من قــــدَّامُ

وهذا كلام فصيح جـــدا . قوله : يسوغ من أعناقهم ، يريد حلوقهم ، لأن العنق يحيط بالحق .

---

(1) يقال ازدفر الحمل أى احتمله .

(2) خصاصة جسم : نحول . وطيـــان : لم يأكل شيئا .

(3) عافى : كل طالب فضل أو رزق ، يريد أن إنائى يأكل منه كثيرون ، أما إناؤك فلا يأكل منه إلا أنت .

openkandil.com

وقال القطَامىّ :

فمنْ تكن الحضارةُ أعجبتْــــــه ... فأىَّ رجالِ باديـــــة ترانـــا
ومنْ رَبَط الجحاشَ فإنّ فينــــا ... قنــا سُلُــبًا وأفراسًــا حسانــا
وكنَّ إذا أغَرْن على قبيــــلٍ ... فأعْوزَهنّ كونٌ حيث كانـــا
أغَرْنَ من الضِّباب على حِــلال ... وضَبّة إنه من حان حــــانـا
وأحيانا على بكر أخينــــا ... إذا مالم نجِدْ إلا أخــانـــا

قوله : الحضارة ، يريد الأمصار ، وتقول العرب : فلان بادٍ ، وفلان حاضر ، وفى الحديـث « ولا يبيعن حاضر لباد » ، وتأويل ذلك أن البادىَ يَقدَم وقد عرف أسـعار ما معه ، وما مقدار ربحه ، فإذا جاء الحاضر عَرَّفه سنة البلد ، فأغلى على الناس . ويقال : حى حِلال ، إذا كانوا متجاورين مقيمين .

أقوال سائرة

يـروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ » قـالوا : « بـلى » قـال : « من أكل وحده ، ومنع رِفْده ، وضرب عبدَه . ألا أخبركم بشر من ذلكم : من لأيقيل عَثْرة ، ولا يقبل معذرة ، ولا يغفر ذنبـا . ألا أخبركم بشر من ذلكم : من يبغض الناس ويبغضونه » .

ويـروى عـنه صـلى الله عليه وسلم أنه قال : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، والمرء كثير بأخيه » .

قوله صلى الله عليه وسلم : تتكافأ دماؤهم ، من قولك : فلان كُفْءٌ لفلان ، أى عديلــه ، وموضـــوع بحذائه . وقال الله عز وجل : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ . ويقال : فلان كِفاء فلان ، وكَفِيء فلان ، وكُفْء فلان .

وقـــال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « من لانت كلمته وجبت محبته » . وقال : « قيمة كل امرئ ما يحسن » .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ثلاث يثبتن لك الودّ فى صدر أخيك: أن تبدأه بالسلام ، وتوسّع له فى المجلس ، وتدعوه بأحب الأسماء إليه » .

وقـــال : « كفـــى بالمرء غَيّا أن تكون فيه خَلة من ثلاث : أن يعيب شيئـــا ثم يأتى مثله ، أو يبدو له من أخيه ما يخفى عليه من نفسه ، أو يؤذى جليسه فيما لا يعنيه » .

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يومـــا: « مَنْ أجود العرب ؟ » فقيـــل له : « حـــاتم » : قال : « فمن شاعرها ؟ » قيل « امرؤ القيس بن حجر » قال : « فمن فارسها ؟ » قيل : « عمرو بن مَعْدِى كَرِب » قال : « فأىّ سيوفها أمْضَى ؟ » قيل : « الصَّمْصامة » .

وكـــان معاويـــة يقول : « إنى لا أحمل السيف على من لا سيف معه ، وإن لم تكن إلا كلمة يشتفى بها مشتفٍ جعلتُها تحت قدمى ، ودُبُرَ أذنى » .

رثاء

قال رجل أحسبه من بنى سعد يرثى رجلا :

ومُختضَرِ المَنافع أريَحيّ نبيلِ فى معَاوزةٍ طِوالِ
عزيزٍ عزّة فى غيرِ فحشٍ ذليل للذليل من الموالى
جعلتُ وساده إحدى يديه وتحتَ جَمائه خَشَباتُ ضالِ
ورثتُ سلاحَه وورثتُ ذَودا وحزنا دائما أخرى الليالى

قوله : أريحى ، هو الذى يرتاح للمعروف أى يخف له ، ويقال : أخذت فلانا أريحية ، أى خفَّة وحركة لفعل المعروف . والمعاوز : الثياب التى يتبذّل [1] فيها الرجل ، وهى دون الثياب التى يتجمل بها ، واحدها مِعْوَز . وقوله : فى معاوزة ، فزاد الهاء ، فإنما يُفعَل ذلك لتحقيق التأنيث ، لأن كل جمع مؤنث ، كما تقول فى جمع صَيقْل : صَياقِل وصَياقلَة ، وكذلك جوارب وجَواربة ، إلا أن أكثر الأعجمى يختص بالهاء ، وهو فى العربى جيّد ، وفى العجمى أكثر استعمالا . فإن كان منسوبا كان الباب فيه إثبات الهاء ، وتركها جائز نحو المهالِبَة ، والمَسامعة ، والمَناذِرَة ، والأحامِرَة . وقالوا : السَّيابجة [2] لأنه قد اجتمع فيه النسب والعجمة . وقوله : تحت جمائه . يعنى شخصه . والضال : السِّدْر البَرّى ، وما كان من السدر على الأنهار فليس بضال، ولكن يقال له عُبْرىّ . وقوله : ورثت سلاحه وورثت ذودا ، يصف قرب نسبه منه . والذود : القطعة من الإبل ، وأكثر ما يستعمل ذلك فى

---

(١) يتبذل : يترك الاحتشام والتصون .

(٢) السيابجة : قوم أقوياء من السند والهند ، يكونون مع رئيس السفينة البحرية يخدمونها .

الإنـــاث ، ويجوز فى السائر . ومنه قولهم : الذود إلى الذود إبل . ثم قال : حزنـــا دائمـــا أخرى الليالى ، كما قال الأوَّل ، وغُبِط بميراث ورثه من أحد أهله :

يقول جَزْءٌ و لم يقـــل جَـــلَلا ... إِنّى تروَّحتُ ناعمـــا جَـــذِلا
إنْ كنتَ أزْنَنْتَنى بهـــا كذبـــا ... جزءٌ فَلا قَيْتَ مثلهـــا عَجِلا
أُغبَط أن أُرْزَأَ الكــــرامَ وأنْ ... أورث ذَوْدا شصائِصا نَبَـــلا

قوله : ولم يقل جَلَلا : أى صغيرا ، والجلل يكون للصغير ويكون للكبير ، من ذلك قوله : « كلّ شيء ما خلا الله جلل » أى صغير . وقال لبيد فى الكبير :

وأرى أَرْبَـــدَ قـــد فارقنى ... ومن الأَرْزاءِ رُزْءٌ ذو جَـــلَلْ

وقوله : شصائصا : يعنى حقيرة دميمة . وزعم التَّوَّزى أن النَّبَل من الأضداد ، يكـــون للجـــليل والحقـــير ، واحتجّ بهذا البيت الذى ذكرناه ؛ قال : يريد ههنا الحقـــيرة. وقولـــه : أزننتنى ، أى قَرَفْتَنى ونسبتنى إليه . ويقال : فلان يُزَن بكذا وكذا أى يسمى به ، وينسب إليه .

وقال جميل بن مَعْمَر :

ما صائبٌ من نابل قَذفتْ بـــه ... يَدٌ ومُمَرُّ العُقْدتَين وَثيـــقُ
له من خَوا فى النَّسْرِ حُمٌّ نَظائِـــرٌ ... وَنَصْلٌ كنصلِ الزَّاعبِىِّ فتيـــقُ
على نَبْعة زَوْراءَ أيْما خِطامُهـــا ... فمتْنٌ وأيـــا عَوْدُهَا فعتيـــقُ
بأَوْشَكَ قَتْلا منك يـــوم رميتنى ... نوافذَ لم تُعَلَمْ لهنَّ خُـــروقُ
كأنْ لم نحارب يا بُثَينَ لو أنهـــا ... تَكشَّفُ غُماها وأنت صديـــقُ

قولـه : ما صائب ، يريد قاصدا ، يقال : صاب يَصُوب ، إذا قصد ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنْ السَّمَاءِ ﴾، وقد قالوا النازل ، والقَصْد أحكم . وقولــه : ومُمر العقدتين ، يعنى وَتَرا . والممرُّ : الشديد الفَتْل . وقوله : من خوافى النســر حمّ نظائر ، يريد ريش السهم ، والحُمُّ : السُّود ، وذلك أخلصه وأجوده ، وجعــلها نظائــر فى مقاديــرها ، لأنه أقْصَدُ للسهم ، وإذا كانت الريشات بطن الواحدة منها إلى ظهر الأخرى ، فهو الذى يُختار ، وهو الذى يقال لــه اللُّؤام ، وإنمـا أُخذ من قولهم مُلْتَئم ؛ وإن كان ظهر الواحدة إلى ظهر الأخرى ، وبطنها إلى بطــن الأخرى ، فذلك مكروه يقال له : اللغاب . وقوله : كنصل الزاعبى ، شبَّهَ نصــل الســهم بنصل الرمح الزاعبيّ ، وهو منسوب إلى رجل من الخَزْرَج ، يقال لــــه: زاعب ، كان يعمل الأسنّة ، هذا قول قوم ؛ وأما الأصْمَعِىُّ فكان يقول : الزاعبى هو الذى إذا هُزَّ فكأن كعوبه يجرى بعضها فى بعض للينه وتثنّيه ، يقال مرَّ يَــزْعَب بحمْله ، إذا مرّ به مرا سهلا . وقوله : فتيق ، يعنى حادّا رقيقا ، يقال فتيق الشّــفْرَتَيْنِ ، وتأويلــه أنــه يفَــتُق ما عُمد به له . وفعيل يقع اسما للفاعل ويقع لــلمفعول، فأما الفاعل فمثل رحيم وحكيم وشهيد ، وأما ما كان للمفعول فنحو جــريح وقتيل وصريع . وقوله : زَوراء ، يريد معوجَّة ، وكلما كانت القوس أشدّ انعطافـــا كان سهمها أمضى . وقوله : على نبعة ، يعنى قوســا ، وأكرم القِسِيّ مــا كــان من النبع . وقوله : أيما ، يريد أمّا ، واستثقل التضعيف فأبدل الياء من إحــدى الميمين . وهذا يقع ، وإنما بابه أن تكون قبل المضاعف كسرة ، فيما يكون على فِعّال فيكرهون التضعيف والكسر، فيبدلون من المضعّف الأول الياء للكسرة، وذلــك قولهــم : ديــنار وقيراط وديوان ، وما أشبه ذلك . فإن زالت الكسرة ، وانفصل أحد الحرفين من الآخر رجع التضعيف فقلت : دنانير وقراريط ودواوين . وكذلــك إن صغرت قلت : قُرَيرِيط ودُنَيْنِير. وقوله : وأيما عودها فعتيق ، يصف

كـــرم هذا القوس وعتقها ، ويحمدُ منها أن تُتْرَك ولحاؤها عليها بعد القطع . فهذا مأخوذ من ذلك . وقوله : بأوشك قتلا منك ، يقول : بأسرع .

حسن الأدب

قال بعض الحكماء : « من أدب ولده صغيرا سُرَّ به كبيرا » .

وكان يقال : « من أدّب ولده أرْغَم حاسـده » .

وقال رجل لعبد الملك بن مروان : « إنى أريد أن أسرّ إليك شيئـا » . فقـال عـبد الملك لأصحابه : « إذا شئتم » فنهضوا . فأراد الرجل الكلام ، فقال لـه عبد الملك: « قِفْ ، لا تمدحنى فأنا أعلم بنفسي، ولا تَكْذِبنى فإنه لا رأى لمكذوب، ولا تَغْـتَب عـندى أحـدا » فقـال الرجل : « يا أمير المؤمنين ، أفتـأذن لى فى الانصراف ؟ » . قال له : « إذا شئت » .

وقال بعض الحكماء : « ثلاث لا غُرْبَة معهن : مجانبة الرِّيب ، وحسن الأدب، وكف الأذى » .

وقال عمرو بن العاص لدِهْقان مُرتِيرَى : « بم يَنْبُل الرجل عندكم ؟ » فقال : « بترك الكذب ، فإنه لا يَشْرُف إلا من يوثق بقوله ؛ وبقيامه بأمر أهله ، فإنـه لا ينـبل مـن يحـتاج أهله إلى غيره ؛ وبمجانبة الرِّيَب ، فإنه من رُجِىَ الفرج لديه كثرت غاشيته » [1] .

---

[1] غاشيته : من يأتونه ويغشون بيته .

وقــال بُــزرْ جِمَهْر : « من كَثْر أدبه كَثُر شرفه وإن كان قبلُ وضيعا ، وبَعُد صــيتُه وإن كـــــان خاملا ، وساد وإن كان غريبـــا ، وكثرت الحاجة إليه ، وإن كان مُقْتِرا » .

وكان يقال : « عليكم بالأدب فإنه صاحب فى السفر ، ومؤنس فى الوحدة ، وجمال المحْفِل ، وسبب على طلب الحاجة » .

وقال بعض الملوك لبعض وزرائه ، وأراد مِحْنَته : « ما خير ما يُرزَقهُ العبد ؟ » فقــال : « عقل يعيش به » . قال : « فإن عَدِمَه ؟ » قال : « فأدب يتحلى به » . قــال : « فإن عدمه ؟ » قال : « فمال يستره » . قــال : « فإن عدمه ؟ » قال : « فصاعقة تحرقه ، فتريح منه العباد والبلاد » .

وقيل لرجل من ملوك العجم : « متى يكون العلم شرا من عدمه ؟ » قــال : « إذا كثر الأدب ، ونقصت القريحة ».

وقــالى أرْدَشِــير : « من لم يكن عقله أغلب خلال الخير عليه كان حتفه فى أغلب خلال الخير عليه » .

وقــال محمد بن عبد الله بن العباس ، وذكر رجلا من أهله : « إنى لأكره أن يكون لعلمه فَضْل على عقله ، كما أكره أن يكون للسانه فضل على علمه » .

حماية الجار

قال رجل من بنى عبد الله بن غطفان ، وجاوَرَ فى طَيِّئ وهو خائف :

جَزَى الله خيرا طيئــا مِنْ عشيرةٍ ... ومن صاحب تَلقَاهُمُ كلَّ مَجْمَع
همُ خَلَطُونِى بالنفوسِ ودافَعــوا ... ورائى برُكْنٍ ذى مَناكبَ مِدْفع
وقالو تعــلّم أنّ مالك إنْ يُصَبْ ... نُفِــدْكَ وإنْ تُحبَس نُزُرْكَ ونَشْفِع

وقال رجل من بنى سَلامان بن سعد هُذَيْم ، من قُضاعة ، وجاور فى طيئْ :

كأنّ الجارَ فى شَمَجَى بـــن جَرْمٍ ... لــه نَعْمـــاءُ نَسَب قَرِيبُ
يُحاط ذمارُهُ ويُذبُّ عنـــــــه ... وَيَحْمِى سَرْحَــهُ أنفٌ غضوب
ألفتُ مساكن الجَبَلَين إنـّــــى ... رأيتُ الغَــوثَ يألفُها الغريب

وكـــان قوم نزلوا ببنى العنبر بن عمرو بن تميم ، والقوم من بنى ضَبَّة ، فأُغير عــليهم . فاستغاثوا جيرانَهم ، فلم يُغيثوهم ، وجعلوا يدافعونهم حتى خافوا فوْتَهَا . فاســتغاثوا ببنى مازن بن مالك ، فركبوا فردوها عليهم . فقال المُكَعْبَر الضَّبّى فى ذلك:

أبلغ طَرِيفــا حيث شطّت بها النَّوَى ... فليس لدهرِ الطَّالبِين فَنـــــاءُ
كسالى إذا لاقيتَهم غيـــرَ مَنْطِقٍ ... يُلَهَّى به المَحْـروبُ وهو عَنــاءُ
وإنى لأرجوكم على بُـطْءِ سَعْيِكم ... كما فى بطون الحاملات رجـــاءُ
أُخبِّر من لاقيتُ أنْ قـــد وفيتمُ ... ولو شئتُ قال المخبرون أسـائوا
كأن دنانــيرا على قَســـماتهم ... وإن كان قد شَفَّ الوجــوهَ لقاء
لهم أذرعٌ بادٍ نَواشرُ لَحْمهـــــا ... وبعضُ الرجال فى الحروب غُثاء

obeikandi.com

قولـــه : حيث شطت بها النوى ، معنى شطت تباعدت ، والنـــوى : البعد ، ويقال: شَطت بهم نِيَّةٌ قَذَف ، أى رحلة بعيدة . وقوله : فليس لدهر الطالبين فناء ، يقول: الطالب فى أثر طَلِبته أبدا . وقوله :

وإنى لأرجوكم على بطء سعيكم كما فى بطون الحاملات رجـــاء

يقول : هذا رجاء غير صادق ولا موقوف عليه ، كما أن هذه الحوامل لا يُعلَم مـــا فى بطونها وليس بميئوس منه ، وإنما يتهكم بهم وهو يعلم أن سعيهم غير كائن، ألا تراه يقول :

أخبر من لاقيت أن قـــــد وفيتم ولو شئت قال المخبرون أسائوا

وقولـــه : كأن دنانيرا على قسماتهم ، زعم أبو عبيدة أن القسمات مجارى الدمـــوع ، واحدهـــا قَسِمة . وقال الأصمعى : القسمات أعالى الوجه . ولم يبينه بأكـــثر من هذا ، وقول أبى عبيدة مشروح . وقوله : لهم أذرع باد نواشر لحمها ، فكل شىء كان على فِعَال من المؤنث فجمعه أَفْعُل ، وكذلك فُعَال ، تقول : ذِراع وأَذْرُع ، وكْــرُاع وأكْرُع ، لأنهما مؤنثتان . ومن أنث اللسان قال : أَلْسُن ، . وشمـــال وأشْمُل . فأما المذكر فعلى أَفْعِلة فى أدنى العدد ، وفُعُل فى الكثير ، يقال : حِمـــار وأَحْمِرة وحُمُر ، وفِراش وأَفرِشة وفُرُش . والنواشر : مايظهر من العروق فى ظهـــر الـــذراع ممـــا يُدانى المعصم . وقوله : وبعض الرجال فى الحروب غثاء ، فالغـــثاء: ما يبس من البقل حتى يصير حطامـــا وينتهى فى اليبس فيسودّ فيقال له : غُثاء ، وهَشِيم ، ودِنْدن ، وثِن ، على قدر اختلاف أجناسه ، قال الله عز وجـــل :

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾، وقال : ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ وقال الشاعر يصف سحابا :

إذا ما هَبطنَ الأرض قد مات عُودُها — بَكَيْنَ بها حتى يعيش هَشِيم

وقد يقال للشيء الذى لا خير فيه : هذا غثاء ، أى قد صار كذلك الذى وصفناه . ويُضرب هذا مثلا للكلام الذى لا وجه له .

وقال رجل أحسبه تميميا [1] :

لو لم يفارقنى عَطيةُ لم أهِنْ — ولم أُعطِ أعدائى الذى كنت أمنعُ
شجاع إذا لاقَى ، ورامٍ إذا رمى — وهادٍ إذا ما أظلم الليلُ مِصْدَع
سأبكيك حتى تُنْفِدَ العينُ ماءَها — وَيشْفِىَ منى الدمعُ ما أتوجع

أحسن الإنشادين عندى : لم أهِن ، يأخذه من وَهَن يَهِن ، لأنه إذا قال : أُهَن، فهو من الهوان ، ومن قال : لم أهِن ، فإنما هو من الضعف ، وهو أشبه بقوله : ولم أعط أعدائى الذى كنت أمنع . والآخر غير بعيد ، يقول : لم أهن على أعدائى . وقوله : وهاد إذا ما أظلم الليل مصدع، فتأويل مصدع أى ماض فى الأمر، قال الله عز وجل : ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ . ويقال : أحزم الناس من إذا وضح له الأمر صدع به . ومن أمثال العرب السائرة الجيدة . « رَوِّ تَحْزَمْ ، فإذا استوضحت فاعْزِمْ » . ومن أمثالهم : « قد أحزم لو أعزم » . وإنما يكون هذا بعد التوقف والتبين . فقد قال الشعبىّ : « أصاب متأمل أو كاد ، وأخطأ مستعجل أوكاد » ومثل قوله : « ويشفى منى الدمع ما أتوجع » قول الفَرَزْدَق :

أَلَمْ تَرَأنِّى يومَ جَوِّ سُوَيْقَة — بكيتُ فنادتْنى هُنَيدةُ ماليـا
فقلتُ لها إن البكاء لراحةٌ — به يشتفى مَنْ ظَنَّ أنْ لا تلاقيا

---

[1] هو الفرذدق .

الرجل القبيح الشجاع

قـــال نَضْلَة السـُّلَمِيّ فى يوم غَوْل ، وكان حقيرا دميما ، وكان ذا نَجْدة وبأس :

أَلَمْ تَسَلِ الفَوارسُ يـــومَ غَوْلٍ ... بنَضْلَةَ وهو موتورٌ مُشِيـــحُ
رأوه فازْدَرَوْه وهــــــو حُرٌّ ... وينفع أهلَه الرَّجلُ القبيـــح
فشدّ عليهمُ بالسيف صَلْتـــا ... كما عَضَّ الشَّبا الفرسُ الجَموح
فأطلقَ غُلَّ صاحبِـــه وأرْدَى ... قتيلا منهمُ ونجـــا جريح
ولم يَخْشَوا مَصالَتَهُ عليهـــم ... وتحتَ الرَّغْوَةِ اللبنُ الصريـــح

قوله : وهو موتور مُشِيح ، فالمُشيح : الحامل الجادّ . وقوله : بالسيف صلتا ، يقول : مُنتضًى ، ورجل صَلْت الجبين : إذا كان نقيّـــه . وقوله : كما عض الشَّبا، يريد حدّ اللجام ، وشبا كل شيء : حدّه . وقوله : ولم يخشَوا مَصالته عليهم ، فهى مَفْعَلة من صال يصول ، ويقال : صال البعـــير ، إذا عضّ . وقوله : وتحت الرّغوة اللبن الصريح ، يقول : إذا رأيت الرغوة : وهو مايرغو كالجلدة فى أعلى اللبن ، لم تَـــدْر ما تحتها ، فربما صادفت اللبن الصريح إذا كشفتها ؛ أى أنهم رأونى فازدرونى لدمامتى ، فلما كشفوا عنى ، وجدوا غير مارأوا . والصّريح : المحض الخالص.

obeikandl.com

القول والفعل

حُدِّثت أن صَبِرة بن شَيْمان الحُدّانىّ دخل على معاوية ، والوفود عنده فتكلموا فأكثروا . فقام صبرة فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنـّا حَىٌّ فِعال ، ولسنا بحىّ مقال. ونحن بأدنى فعالنا عند أحسن مقالهم » . فقال : « صدقت » .

وحدّثـت أن أبا بكر رضى الله عنه ولّى يزيد بن أبي سفيان رُبْعـا من أرباع الشـام ، فَـرقِى المنبر فتكلم ، فأُرْتِج عليه . فاستأنف فارتج عليه . فقطع الخطبة فقال: « سيجعل الله بعد عسر يسرا ، وبعد عِىٍّ بيانـا . وأنتم إلى أمير فَعّال أحوج مـنكم إلى أمير قوّال » . فبلغ كلامه عمرو بن العاص ، فقال « هن مُخرِجاتى من الشام » ، استحسانـا لكلامه .

كلمات واعظة

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه لعامر بن عبد قيس العَنْبرى ، ورآه ظاهرَ الأعرابيّة : « يا أعرابى ، أين ربك ؟ » فقال : « بالمرصـاد » .

ونظـر الحسـن إلى الناس فى مصلّى البصرة يضحكون ويلعبون فى يوم عيد ، فقـال : « إن الله جعل الصّوم مِضْمارا لعباده ، ليستبقوا إلى طاعته ، فسبق أقوام ففـازوا ، وتخـلف آخـرون فخابوا . ولَعَمْرى لو كُشف الغطاء ، لشُغِل محسن بإحسانه ، ومسىء بإساءته ، عن تجديد ثوب ، أو تَرْطيل شعر » .

obeikandi.com

قولـــه :ترطيل شعر : إنما هو تليين الشعر بالدهن وما أشبهه ، ويقال للرجل إذا كـــان فيه لين وتوضيع : رجل رَطْل ، والذى يوزن به ويكال يقال له : رِطْل ؛ بكسر الراء .

وكان الحسن يقول : « اجعل الدنيا كالقنطرة تجوز عليها ولاتعمرها » .

توبة وخلق

قال يزيد بن الصَّقِل العُقَيلىّ ، وكان يسرق الإبل ، ثم تاب وقُتل فى سبيل الله.

ألا قُلْ لأربابِ المَخائِض أهْمِلُوا   فقد تاب مما تعلمون يزيدُ
وإنّ امرا ينجو من النار بعد ما   تزَوّد من أعمالهـــا لَسَعيـــد

وفى هذا الشعر :

إذا ما المنايا أخطأتك وصادفت   حَميمَك فاعلم أنهـــا ستعود

قولـــــه : ألا قل لأرباب المخائض ، فإن الناقة إذا لَقِحت قيل لها : خَلِفة ، ولـــلجميع : المخَاض ، وهذا جمع على غير واحده ، إنما هو بمنزلة امرأة ونساء ، ثم جَمَـــع الجمـــع فقال : مخائض ، كقولك فى رسالة : رسائل ، وكما تقول فى قوم : أقـــوام ، فـــتجمع الاســـم الذى هو للجمع ، وكَذلك أعراب وأعاريب ، وأنعام وأناعيم . وقوله : أهملوا ، أى اسْرَحُوا إبلَـــكم ، والهَمَـــل : ماكان غير محظور ، وهو السُّدى .

وقال ابن حَبْناء التَّميمى :

obeikandl.com

أعوذ بالله من حـــال تُزَيِّنُ لى لومَ العشيرةِ أو تُدْنِى من النـــار
لا أقرَبُ البيت أَحْبو من مؤخَّرِه ولا أكسِّر فى ابن العمّ أظفـــارى
إنْ يحجُبِ الله أبصارا أراقبُهـــا فقد يرى الله حالَ المُدْلِجِ السّارى

قولـــه : لا أقرب البيت أحبو من مؤخره ، يقول : لا آتيه لريبة . وقوله : ولا أكسر فى ابن العم أظفارى ، يقول : لا أغتابه ، وهذا مَثَل كما قال الحطيئة :

مَلُّوا قِـــراه وهَرَّتْه كلابُهمُ وجَرّحـــوه بأنياب وأضـــراسِ

وقولـــــه : فقد يرى الله حال المدلج السارى ، فالمدلج : الذى يسير من أول الليل، يقال : أدلجت ، أى سرت من أول الليل ، وادّلجت ، أى سرت فى السَّحَر. والسُّـــرَى : لا يكـــون إلا ســـيرَ الليل ، قال الله عز وجل : « فأَسْر بأهلك » من قولـــك: أسريتُ ، وهى اللغة القرشية ، وغيرهم من العرب يقول : سَرَيْت ، وقد جـــاءت هـــذه اللغة فى القرآن ، قال الله عز وجل : « والليل إذا يَسْر » فهذا من سَرَى ، ولو كان من أسْرى لكان يُسْرِى .

وقال رجل يكنى أبا مَخْزوم من نَهْشَل بن دارِم [١] :

إنّا بنى نَهْشـــــل لا نَدَّعِى لأبٍ عنه ولا هو بالأبنـــاء يَشْرِينـــا
إنْ تُبْتَدَرْ غايةٌ يومـــا لمـــكرمة تَلْقَ السوابقَ منّـــا والمُصَـــلّينـــا
وليس يهلك منّا سيدٌ أبـــــدًا إلا افْتَلَيْنا غلامـــا سيدا فينــــا
إِنِ لَمِنْ معشـــــر أفنى أوائلَهم قِيلُ الكُماة : أَلا أين المحامونـــا
لو كان فى الألفِ منا واحد فدَعْوا مَنْ فارسٌ ، خالَهُم إياه يَعْنُونـــا

---

[١] هو بشامة بن حزن النهشلى .

ولا تراهـــم وإن جَلَّتْ رَزِيَّتهُم مع البُـكاةِ على من مات يبكونا
إنا لَنُرْخِصُ يومَ الرَّوْعِ أنفسَنَـــا ولو نُسامُ بها فى الأمن أُغْلينـــا
إذا الكماةُ تَنَحَّوْا أنْ ينــالهـــم حَدُّ الظُّباتِ وَصَلْناها بأيدينـــا
فَرْضٌ على مُكْثِرِينا نَيْلُ بَذْلِهـــم والجود والبذل فى طَبْع المقِلّينـــا
إنّى وَمَنْ كـأبى يحيى وعِتْرَتِـــه لا فَخْر إلا لنا أمَّنْ يُوازِينـــا

مَنْ قال : إنا بنو نهشل ، فقد خَبَّرك وجعل « بنو خبر إن » . ومن قال بنى ، فإنما جعل الخبر

إن تبتدر غاية يومــا لمـــكرمــة يلق السوابق منــا والمصلينـــا

ونصــب « بــنى » عــلى فعل مضمر للاختصاص ؛ وهذا أمدح . وقوله : يشــرينا، يريد يبيعنا ، يقال : شَراه يَشْريه ، إذا باعه ، فهذه المعروفة ، قال الله عز وجل : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَة﴾ ، ويكون شريت فى معنى اشتريت ، وهــو مــن الأضداد . وقوله : تلق السوابق منا والمصلينا ، فالمصلى : الذى فى أثر السابق ، وإنما سمى مصليا لأنه مع صَلَوَىِ السابق ، وهما عِرْقان فى الرِّدْف . وقوله إلا افتليــنا غلاما سيدا فينا ، مأخوذ من قولهم فَلَوْتُ الفَلُوَّ ، إذا أخذته عن أمه ، وأخذ هذا المعنى من قول أبى الطَّمَحان القَيْنى: * إذا مات منهم سيد قام صاحبه *.
وقولـــه :

لو كان فى الألف منا واحد فدعوا: من فارس خالهم إياه يعنونـــا

مأخوذ من قول طَرَفة بن العَبْد :

إذا القومُ قالوا . مَنْ فَتًى لِعَظِيمة ؟ فما كُلُّهم يُدْعَى ولكنـــه الفتى

وقوله : حدّ الظُّبات ، فالظبة : الحدّ بعينه ، يقال : أصابته ظبـــة السيف ، وأخذ هذا المعنى من قول كعب بن مالك بن أبى كعب الأنصارى :

نصِلُ السيوفَ إذا قَصُرْنَ بخَطوِنــا قُدْمــــا ونُلحِقُهـــا إذا لم تَلْحَقِ

وقولـــه : إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا ، أخذه من قول الهَمدانىّ ، وهو الأجْدَع أبو مسروق بن الأجدع الفقيه :

لقد علمتْ نسوانُ هَمْدانَ أننى لَهُنَّ غَـــداةَ الرَّوْعِ غيرُ خَذولِ
وأبذلُ فى الهيجاءِ وجهى وإننى له فى سوى الهيجاءِ غيرُ بــذول

ومن القَتّال الكِلابى حيث يقول :

أنا ابنُ الأكرَمِيْـــنِ بنى قُشَيرٍ وأخوالى الــكرامُ بنــو كــلاب
نعرِّض للطِّعان إذا التقينـــــا وُجــوها لا تُعرَّض للسِّبـــاب

أقوال سيارة

قال عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه : « ثلاثٌ من كُنّ فيه فقد كَمُل : من لم يخرجه غضبه عن طاعة الله ، ولم يستزله رضاه إلى معصية الله ، وإذا قدر عفا وكفّ » .

وقـــال الحسن : « نِعَم الله أكبر من أن تُشْكَر إلاّ ما أعان عليه ، وذنوب ابن آدم أكثر من أن يَسْلم منها إلا ما عفا الله عنه » .

وقـــال عمر بن ذَر ، ودخل على ابنه وهو يجود بنفسه ، فقال : « يا بنى ، إنه ما علينا من موتك غَضاضة ولا بنا إلى أحد سوى الله حاجة » . فلما قَضى وصلّى عـــليه وواراه ، وقـــف على قبره ، فقال : « يا ذَرّ ، إنه قد شغلنا الحزن لك عن الحـــزن عليك ، لأنا لا ندرى ما قلت ولا ما قيل لك . اللهم إنى قد وهبت له ما قَصَّـــر فيـــه مما افترضْتَ عليه من حقى ، فَهبْ له ما قصّر فيه من حَقّك ، واجعل ثوابى عليه له ، وزدنى من فضلك ، إنى إليك من الراغبين » .

وسُـــئل : ما بلغ من بِرّه بك ؟ فقال : « ما مشى معى بنهار قط إلا قدّمنى ؟ ولا بليل إلا تقدّمنى ، ولا رقى سطحـــا وأنا تحته » .

ودخــــــل لَبَطة بن الفَرَزْدَق على أبيه ، وهو محبوس فى سجن مالك بن المنذر ابن الجارُود، ومالك عامل على البصرة لخالد بن عبد الله القَسْـــرىّ ، فقـــال : « يـــا أبـــت هذا عُمر بن يزيد الأسَيْدىّ ، ضُرب آنفـــا ألف سوط فمات ، فشُدَّ عـــلى حمار » ، فقال الفرزدق : « كأنك والله يا بنى بمثل هذا الحديث قد تُحُدِّث به عن أبيك » ، والحسن إذ ذاك عند محبوس له ، فقال : « يا أبا فراس ، ما عندك إن كان ذلك ؟ » ، فقال : « والله يا أبا سعيد » لله أحبُّ إلىّ مِن سمعى وبصرى ، ومن مالى وولدى، ومن أهلى وعشيرتى، أفَترُاه يخذلنى ؟ فقال الحسن : « لا » .

وكان عمر بن يزيد الأَسَيْدىّ شريفـــا . حدثنى التوّزىّ عن أبى عُبَيدة قال : « كـــان رجلَ أهل البصرة عمر بن يزيد الأَسيدىّ ، ورجل الشام عمر بن هُبَيرة الفَـــزارىّ ، ورجل أهل الكوفة بِلال بن أبى بُرْدة بن أبى موسى الأشعرى » . فقيل ذلك لعمر بـــن عبد العزيز ، فقـــــال : « أجل ، لـــولا خِبٌ [1] فى بِـــلال » .

---

[1] الخب : الخــــداع .

فقال بلال لما بلغه ذلك : « رمتْنى بدائها وانسلّت » . وقتله مالك بن المنذر تعصّبا فيما تذكره المُضَريّة . فلما دُخِل بمالك على هشام ، أقبل على أصحابه فقال : « أمَا رأيتم عمر بن يزيد ، أما إنى ما تمنيت أن تكون أمى ولدَتْ رجلا من العرب غيره » . ثم قال لمالك : « قتلتَ والله خيرا منك حسبا ونسبا ودينا وعَقِبا ! » . فقال : « وكيف يا أمير المؤمنين ؟ ألست ابن المنذر بن الجارود ، وابن مالك بن مسمع ؟ » . وكان جده أبا أمّه . وجعل عمر والسياط تأخذه ينادى : « يا هشاماه ! » ففى ذلك يقول الفرزدق :

ألم يَكُ مقتلُ العَبْدِىّ ظلما   أبا حَفْص من الكُبَرِ العِظام
قتيلُ جماعةٍ فى غير حَقٍّ   يُقَطَّعُ وهو يدعو : يا هشامُ

والتقى الحسن والفرزدق فى جنازة ، فقال الفرزدق للحسن : « أتدرى ما يقول الناس يا أبا سعيد ؟ » قال : « وما يقولون ؟ » قال : « يقولون : اجتمع فى الجنازة خير الناس وشر الناس » . فقال الحسن : « كلا ، لستُ بخيرهم ولستَ بشرهم . ولكن ما أعددتَ لهذا اليوم ؟ » فقال : « شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة ، وخمس نَجائب لا يُدْرَكْن » ، يعنى الصلوات الخمس . فيزعم بعض التميمية أنه رُئِى فى النوم ، فقيل له: « ما صنع بك ربك ؟ » فقال : « غفر لى ؟ » فقيل له : « بأى شىء ؟ » فقال : « بالكلمة التى نازعنى فيها الحسن » .

وحدثنى العباس بن الفرج الرياشى فى إسناد له ذكره ، قال : كان الفرزدق يخرج من منزله ، فيرى بنى تميم والمصاحف فى حجورهم ، فيُسَر بذلك ، ويَجْذَل به ، ويقول : « إيه فدى لكم أبى وأمى ، كذا والله كان آباؤكم » .

ونظر إليه أبو هُرَيرة الدَّوْسِيّ فقال له : « مهما فعلتَ فقَنَّطك الناس فلا تقنط من رحمة الله » . ثم نظر إلى قدميه فقال : « إنى أرى لك قدمين لطيفتين ، فابتغ لهما موقفـــا صالحـــا يوم القيامة » .

يقال : قَنِط يَقْنَط وقَنَط يَقْنِط ، وكلاهما فصيح ، فاقرأ بأيهما شئت ، وكذلك نَقِم يَنْقَم ، ونَقَم يَنْقِم .

والفـــرزدق يقـــول فى آخر عمره ، حين تعلق بأستار الكعبة وعاهد الله أن لا يكذب ولا يشتم مسلمـــا :

ألم تَرَنِى عاهـــدتُ ربى وإننى ... لَبَيْنَ رِتاجٍ قائما ومَقـــــــام

على حَلْفةٍ لا أشتم الدهرَ مسلمــا ... ولا خارجــا من فِيَّ زُورُ كـــلامِ

وفى هذا الشعر :

أطعتُكَ يا إبليسُ تسعينَ حجَّـــةً ... فلمـــا انقضى عمرى وتمّ تمامى

رجعتُ على ربى وأيقـــنتُ أننى ... مُـــلاقٍ لأيامِ الـــمَنونِ حِمــامى

قوله : لَبَين رتاج ، فالرتاج : غَلَق الباب ، ويقال : باب مُرْتَج ، أى مغلق ويقال : أُرْتِج على فلان ، أى أُغْلِق عليه الكلام .

وقال الفرزدق فى أيام نُسكه :

أخافُ وراءَ القبر إنْ لم يُعـــافِنى ... أشَدَّ من القـــبر التهابا وأضْيَقــا

إذا قادنى يومَ القيامة قائـــــدٌ ... عنيفٌ وسَوّاق يسوقُ الفرزدقــا

لقد خاب من أولاد آدمَ مَنْ مَشى ... إلى النار مغلولَ القِلادةِ مُوثَقـــا

إذا شربوا فيها الحميمَ رأيتَهُـــم ... يذوبون من حَرّ الحميم تَمَزُّقــا

وعن أبي شَفْقَل راوية الفرزدق ، قال : قال لى الفرززدق يومــا : « امض بنا إلى حلقة الحسن ، فإنى أريد أن أطلّق النّوار » فقلت : « إنى أخاف عليك أن تَتْبَعَها نفسُــك ، ويشــهد عليك الحسن وأصحابه » . فقال : « امض بنا » فجئنا حتى وقفنا على الحسن ، فقال : « كيف أصبحت يا أبا سعيد ؟ » فقال : « بخير ، كيف أصــبحت يــا أبا فراس ؟ » قال : « تَعَلَّمَنَّ أن النوار منى طالق ثلاثــا » . فقال الحســن وأصــحابه : « قد سمعنا. » . فقال لى الفرزدق « يا هذا إن فى قلبى من النوار شيئــا » . فقلت : « قد حذّرتك ! » فقال :

ندمتُ ندامــةَ الكُسَعِيِّ لمـّـــــا غدتْ منّى مُطَلّقةً نَـــــوارُ
وكانتْ جَنَّتى فخرجتُ منهــــــا كآدمَ حين أخرجــه الضِّــــرار
ولو أنى ملكتُ يدى ونفســـــــى لكــانَ علىَّ للقَدَرِ الخِيــــار

خمريات

قال لَقيط بن زُرارة :

شربتُ الخمــــر حتى خِلْتُ أنّى أبو قابوسٍ أو عبد المَـــــدانِ
أُمَشّى فى بنى عُدَسَ بن زيـــــدٍ رَخِيَّ البــــــال منطلق اللسان

وحدثنى أبو عثمان المازنى قال : أُسر رجل يوم الحسين بن على رضى الله عنه فأُتِى به يزيد بن معاوية . فقال له : أليس أبوك القائل :

أُرَجِّلُ جُمَّتِي وأجــــــرُّ ذَيْلِى وتَحمِلُ شِكَّتِى أُفــــقٌ كُمَيت[1]
أُمَشِّى فى سَـــــــراةِ بنى غُطَيف إذا ما ســـــــامنى ضَيْمٌ أَبيت

قال : « بلى ؟ » . فأمر به فقتل .

---

(1) الجمة : مجتمع شعر الرأس . والشكة : السلاح . وأفق : حصان رائع .

وقال آخـــــر :

شربنا من الدّاذِىّ حتى كأننـــــــا ... ملوك لهم بَرُّ العِراقَيْنِ والبحــرُ[(1)]

فلما انجلت شمس النهار رأيتُنـــــا ... تَوَلَّى الغِنَى عنا وعاوَدَنا الفقـــــر

وقال آخر ، وهو عبد الرحمن بن الحَـــــكَم :

وكأسٍ ترى بين الإناء وبينهـــــــا ... قذَى العَيْنِ ، قد نازعتُ أُمَّ أبان[(2)]

ترى شار بَيْها حين يَعْتَورِانهـــــا ... يميـــــلان أحيانـــا ويعتدلان [(3)]

فما ظَنُّ ذا الواشى بأروَعَ ماجــدٍ ... وَبدَّاءَ خَوْدٍ حين يلتقيـــــان [(4)]

وقال رجل من قريش :

مَنْ تَقْرَعِ الكاسُ اللئيمةُ سِـــــنَّه ... فلا بُدَّ يوما أن يُسِيءَ ويجهـــلا

ولم أرَ مطلوبا أخسَّ غنـــــيمة ... وأوْضَعَ للأشرافِ منها وأخمــلا

وأَجدَرَ أن تَلقَى كريما يَذُمُّهـــــا ... ويشربُها حتى يَخِرَّ مُجـــــدَّلا

فوالله ما أدرى أخَبْلٌ أصابَهـــــم ... أم العيشُ فيها لم يلاقوه أشْـــكلا

وقال آخر :

إذا صدمتْنى الكأسُ أبدتْ مَحاسِنى ... ولم يَخْشَ نَدْمانى أذاتِى ولابُخْلِى

ولستُ بفَحّاش عليه وإن أسَـــا ... وما شَكْلُ مَنْ آذَى نداماه من شكلى

---

(1) الداذى : نبت يوضع حبه على الشـــــراب .

(2) يريد أنها : صافية ، حتى إنك لترى فى نواحيها ما يشبه فى رقته قذى العين .

(3) يعتورانها : يتعاطيانها ويتبادلانهـــــــــــــا .

(4) البداء : البادية المحاسن . والخود : المرأة الشابة .

obeikandl.com

وقال آخر :

كُلْ هَنيئًا وما شربتَ مَرِيئًا   ثم قُمْ صاغرًا فغيرُ كريمِ
لا أحبُّ النديمَ يُومِضُ بالعين   إذا ما انتشى لعِرسِ النديم

الإيماض : تفتح البرق ولمحه ، يقال : أومضت المرأة ، إذا ابتسمت ، وإنما ذلك تشبيه للمع ثناياها بتبسم البرق ، فأراد أنه فتح عينه ثم أغمضها بغمزة .

وقال حسان بن ثابت :

كأن سَبيئةً من بيتِ راسٍ   يكون مزاجها عسلٌ وماءُ
إذا ما الأشْرِباتُ ذُكِرْنَ يومًا   فهنّ لطَيِّبِ الرّاح الفِداء
نُوَلِّيها المَلامة إن ألَمْنا   إذا ما كان مَغْثٌ أو لِحاء
ونشرِبُها فتتركُنا ملوكًا   وأُسْدًا ما يُنَهْنِهُنا اللقاء

المغث : المماغثة باليد . واللحاء : الملاحاة باللسان : يقول : يعتذر المسيء بأن يقول كنت سكران فيُعْذَر .

وقوله : كأن سبيئة ، يقال : سبأتها ، إذا اشتريتها سِباء ، يعني الخمر ، والسابئ : الخمّار ، وقوله : من بيت رأس ، يعني موضعا ، كما يقال حارثُ الجَوْلانِ .

أقوال

قال الأحْنَف بن قيس « ألا أدلكم على المَحْمَدة بلا مَرْزِئةَ : الخُلُق السَّجيح والكفّ عن القبيح ، ألا أخبركم بأدْوأ الداء : الخلق الدنِيء ، واللسان البذِيء » .

وقال الأحنف : « ثلاث فيَّ ما أقولهن إلا ليعتبر معتبر : ما دخلت بين اثنين حتى يُدخلاني بينهما ، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء مالم أُدعَ إليه – يعني السلطان – ولا حللتُ حَبْوَتي إلى ما يقوم إليه الناس » . تكسر الحاء وتضمها إذا أردت الاسم ، وتفتحها إذا أردت المصدر . أنشدني عمارة بن عقيل لجرير :

قُتل الزبير وأنت عاقدُ حُبْوَةٍ ... قُبْحاً لحُبْوَتِكَ التي لم تُحْلَلِ

ويقال في جمع حُبوة حِبا وحُبا ، مقصوران .

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة : « ما أحسن الحسنات في آثار السيئات وأقبح السيئات في آثار الحسنات ، وأقبح من ذا وأحسن من ذاك : السيئات في آثار السيئات ، والحسنات في آثار الحسنات » .

والعرب تَلفُّ الخبرين المختلفين ، ترمي بتفسيرهما جملة ، ثقة بأن السامع يردّ إلى كلٍّ خبره . وقال الله عز وجل : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِه جَعَل لَكُمْ الليلَ وَ النهارَ لتَسْكُنُوا فيه ولِتَبْتَغُوا من فضْلِه ﴾ .

السيد

قال رجل لسَلْم بن نوفل : « ماأرخصُ السؤدُد فيكم ؟ » فقال سليم : « أما نحن فلا نُسوِّد إلا من بذل لنا ماله ، وأوطأنا عِرْضِه ، وامتهن فى حاجتنا نفسه » . ولسلم يقول القائل :

يُسوِّدُ أقوامٌ وليسوا بسادةٍ   بل السَّيدُ المعروفُ سَلْمُ بن نوْفَلِ

قال معاوية لعَرابة بن قَيْظِىّ الأنصارى : « بم سُدْت قومك ؟ » فقال « لست بسيدهم ، ولكنى رجل منهم » . فعزم عليه ، فقال : « أعْطيتُ فى نائبتهم، وحَمَلْت عن سفيههم ، وشددت على يدى حليمهم ، فمن فعل منهم مثل فعلى فهو مثلى ، ومن قصر عنه فأنا أفضل منه ، ومن تجاوزه فهو أفضل منى » .

وكان سبب ارتفاع عرابة أنه قدم من سفر . فجمعه الطريق والشماخ بن ضِرار المُضَرىّ ، فتحادثا ، فقال له عرابة : « مالذى أقْدَمك المدينة ؟ » قال : « قدمت لأمتار منها » . فملأ له عرابة رواحله بُرا وتمرا ، وأتحفه بغير ذلك . فقال الشماخ :

رأيتُ عَرابةَ الأوْسِىَّ يسمو   إلى الخيرات منقطِعَ القرينِ
إذا ما رايةٌ رُفِعتْ لمجْدٍ   تَلقّاها عَرابةُ باليمين
إذا بَلَّغتِنى وحملتِ رَحْلى   عرابةَ فاشْرَقِى بدم الوتين
ومثلُ سَراةِ قومك لم يُجارَوْا   إلى رُبُعِ الرِّهانِ ولا الثَّمين

قوله : تلقاها عرابة باليمين ، قال أصحاب المعانى : معناه بالقوة ، وقالوا مثل ذلك فى قول الله عز وجل : ﴿وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ .وقد أحسن كل الإحسان فى قوله :

إذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

يقول : لست أحتاج إلى أن أرحل إلى غيره . وقد عاب بعض الرواة قوله : فاشرقى بدم الوتين . وقال : كان ينبغى أن ينظر لها مع استغنائه عنها ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصارية المأسورة بمكة ، وقد نجت على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : « يا رسول الله ، إنى نذرت إن نجوت أن أنحرها . » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لبئس ما جَزَيتها » . وقال : « لا نذر فى معصية ، ولا نذر للإنسان فى غير ملكه » .

ومما لم يُعَب فى هذا المعنى قول عبد الله بن رَواحة الأنصارى لما أمَّره رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد زيد وجعفر على جيش مُؤْتة :

إذا بلغتِنى وحملت رحْلى مسيرةَ أربعٍ بعد الحِساء
فشأنك فانعمى وَخلاكِ ذَمٌّ وَلا أَرْجِعْ إِلى أهلى ورائى

الحِساء : جمع حِسْى ، وهو موضع رمل تحته صلابة ، فإذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء ، فمنعته الصلابة أن يغيض ، ومنع الرمل السمائم أن تنشفه . فإذا بُحث ذلك الرمل أصيب الماء . يقال : حِسى وأحْساء وحِساء ، ممدودة . وقد اتبع ذو الرُمَّة الشماخ فى قوله :

إذا ابنَ موسى بلالا بَلَغْتِهِ فقام بفأس بين وِصْلَيْك جازرُ

الوصْل : المفصل بما عليه من اللحم ، يقال : قطع الله أوصاله ، ويقال : وِصْل وكِسْر وجِدْل ، فى معنى واحد.

قلة النوم من الذكاء

أنشدنى التَّوَّزِى لرجل من رُجَّاز بنى تميم فى وقعة الجُفْرة :

نحن ضربنـــا الأزْدَ بالعراقِ　　والحىَّ من ربيعـــة المرّاقِ
وابنَ سُهيل قائدَ النّفـــاق　　بلا معونـــات ولا أرزاق
إلا بقايـــا كـرمِ الأعـراق　　لشدّة الخَشْية والإشفـــاق
من المخَازى والحديث البـــاقى

الأعراق : جمع عِرْق ، يقال : فلان كريم العرق ، ولئيم العرق ، أى الأصل.

وقال آخـــر يصف ابنـــه :

أعرف منـــه قلةَ النُّعاس
وخفةً فى رأســه من راسى
كيف تَرَيْنَ عنـده مِرَ اسى

يخـاطب أمّ ابـنه . فقوله : أعرف منه قلة النُّعاس ، أى الذكاء والحركة ، وكـان عبد الملك بن مروان يقول لمؤدب ولده : « عَلِّمْهم العوم ، وهَذِّبهم بقلة النوم » .

وكـذا قال أبو كبير الهُذَلى :

فأتتْ به حُوشَ الجَنان مُبطَّنـــا　　سُهُدا إذا ما نام ليلُ الهَوْجَلِ [١]

وقال آخـــر :

فجاءت به حُوشَ الفــؤادِ مُسهّدا　　وأفضلُ أولادِ الرجالِ المسهَّدُ

---

[١] حوش الجنان : حديد القلب ذكى . والمبطن : الضامر البطن .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي » .

وقال عروة بن الورد العَبْسى ، وهو عروة الصَّعاليك :

لَحَا الله صعلوكا إذا جَنَّ ليلهُ مُصافِي المُشاش آلِفًا كلَّ مَجْزَرِ[1]
ينامُ ثقيلا ثم يصبح قاعدا يَحُتُّ الحصى عن جنبه المُتعفر
يُعين نساءَ الحيِّ ما يَسْتَعِنَّه فيُضْحى طَليحا كالبَعير المُحَسَّر
ولكنَّ صُعلوكا صفيحةُ وجهه كضوءِ سراجِ القابسِ المُتَنوِّر
مُطِلا على أعدائه يَزْجرونه بساحتهم زجرَ المَنِيح المشهَّر
وإنْ بَعُدوا لا يأمنون اقترابه تَشوُّفَ أهلِ الغائبِ المُتنظَّر
فذلك إنْ يَلْقَ المنيّةَ يَلْقَها حَميدا وإن يَسْتَغنِ يوما فأجْدِرِ

قوله : يحت الحصى عن جنبه المتعفر ، يريد المترب ، والعَفَر والعَفْر : اسمان للتراب ، وقوله : كالبعير المحسر ، هو المُعْيِي ، يقال : جمل حسير وناقة حسير ، قال الله عز وجل : ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ . وقوله : وإن بعدوا لا يأمنون اقترابه ، على التقديم والتأخير ، أراد لا يأمنون اقترابه وإن بعدوا. وكيف ترين عنده مراسى ، يقول : للمرأة عَزَزْتُك على شبهه .

وهذا الرجز ضد ما قال الآخر فى ولده ، فإنه أقر بأن امرأته غلبته على شبهه، وذلك قوله :

والله ما أَشْبهنى عصامُ
لا خُلقٌ منه ولا قَوام
نِمْتُ وعِرْق الخال لا ينام

يقول عزَّتنى أمه على الشبه ، فذهبت به إلى أخواله .

(١) لحا : لعن وقبح . والمشاش : النفس أو الطبيعة .

المعروف

قال ابن عباس رضى الله عنهما : « لا يزهدنك فى المعروف كفر من كفر ، فإنه يشكرك عليه من لم تصطنعه إليه » .

وأنشِد عبد الله بن جعفر قولَ الشاعر :

إن الصَّنيعةَ لا تكون صنيعةً حتى تُصيبَ بها طريق المَصْنَعِ

فقال : « هذا رجل يريد أن يبخِّل الناس ، أمْطِرِ المعروف مَطَرا ، فإن صادف موضعا فهو الذى قصدتَ له ، وإلا كنتَ أحق به » .

ومر يزيد بن المُهلَّب بأعرابية فى خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز يريد البصرة . فقَرَتْه عَنزا فقبلها . وقال لابنه معاوية : « ما معك من النفقة ؟ » فقال : « ثمانى مئة دينار » . قال : « فادفعها إليها » . قال له ابنه : « إنك تريد الرجال ولا يكون الرجال إلا بالمال، وهذه يُرضيها اليسير ، وهى بَعْدُ لا تعرفك » فقال له : « إن كانت ترضَى باليسير فأنا لا أرضى إِلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى ، ادفعها إليها » .

وزعم الأصمعى أن حربا كانت بالبادية ، ثم اتصلت بالبصرة ، فتفاقم الأمر فيها . ثم مُشِي بين الناس بالصلح ، فاجتمعوا فى المسجد الجامع . قال : فبُعثتُ وأنا غلام إلى ضِرار بن القَعْقاع من بنى دارم . فأستأذنتُ عليه ، فأذِن لى . فدخلتُ فإذا به فى شَمْلة يَخْلِط بَزْرا لعَنز له حلوب . فخبرته بمجتمع القوم . فأمهل حتى أكلت

obeikandl.com

العنز ، ثم غسل الصفحة . وصاح : « يا جارية غَدِّينا » فأتته بزيت وتمر . فدعاني فقَدِرْتُه أن آكل معه . حتى إذا قضى من أكله حاجة . وثب إلى طين مُلْقًى في الدار ، فغسل به يده . ثم صاح : « يا جارية ، اسقيني ماء ». فأتته فشربه ، ومسح فَضْله على وجهه . ثم قال : « الحمد لله ؟ ماء الفرات بتمر البصرة بزيت الشام ! متى نؤدى شكر هذه النعم ؟ » . ثم قال : « يا جارية ، عليّ بردائي » . فأتته برداء عَدَني ، فارتدى به على تلك الشملة . قال الأصمعي : فتجافيت عنه استقباحا لزيه . فلما دخل المسجد صلى ركعتين ثم مشى إلى القوم . فلم تبق حبوة إلا حلت إعظاما له . ثم جلس فتحمل جميع ما كان بين الأحياء في ماله وانصرف .

من أقوال العرب في الطيرة

أنشدني رجل من أصحابنا من بني سعد ، قال أنشدني أعرابي في قصيدة ذي الرُّمَّة :

أَلا يا اسْلَمي يا دارَ مَيٍّ على البِلَى ... ولا زال مُنْهَلا بجَرْعائك القطْرُ

بيتين لم تأت بهما الرواة ، وهما :

رأيتُ غرابًا ساقطًا فوق قضْبة ... من القَضب لم يَنبُتْ لها وَرَقٌ نَضْرُ
فقلتُ : غراب لاغتراب ، وقَضْبة ... لقَضْب النَّوَى، هذى العِيافةُ والزَّجْر

وقال آخر :

وَقدْ هاجني فازددتُ شوقا ... بكاءُ حمامتين تَجاوبَان
تَجاوَبَتا للَحْنِ أعْجَميّ ... على عُودَينِ من غَرَبٍ وبان
فكانَ البانُ أنْ بانت سليمى ... وفي الغَرَب اغترابٌ غيرُ دان

الفقر والغنى

قال شاعــــر :

ولقد بَغيت المــالَ من مَبْغاتـــــه　　والمـــالُ وجــه للفتى مَعروضُ
طلبَ الغِنى عـــن صاحبى لِيُحبَّنى　　إن الفقير إلى الغنىِّ بَغيـــــض

غزل

قال ابن الرقاع العامِلِىّ :

لولا الحياءُ وأنَّ رأسى قد عَســـا　　فيه المشِيبُ لَزُرْتُ أمَّ القاسمِ [1]
وكأنها بين النســـاء أعـــارَهــا　　عينيــه أحْوَرُ من جآذِرِ عاسم
وَسْنانُ أَقْــصَدَه النعاسُ فرَنَّقتْ　　فى عينيه سِنَــــةٌ وليس بنائم

معنى رَنَّقت هيأت ، يقال : رنَّق النسر ، إذا مد جناحيه ليطير .

مواعظ

قيــل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : « أى الجهاد أفضل ؟ » فقـــال : « جهادك هواك » .

وقال رجل من الحكماء : « أعِص النساء وهواك واصنع ما شئت » .

(١) عســـــا : كثر وعظم .

وقال محمد بن على : « مالك من عيشك إلا لذة تَزْدَلِف بك إلى حِمامك وتقربك من يومك ، فأيَّةُ أكلة ليس معها غَصَص أو شربة ليس معها شَرَق ؟ فتأمل أمرك فكأنَّك قد صِرْتَ الحبيب المفقود والخيال المُختَرم ! أهل الدنيا أهل سفر لا يحُلُّون عَقْد رِحالهم إلا فى غيرها » . تزدلف بك إلى حمامك : يقول : تقرِّبك .

وقال رجل لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو فى خطبة : « يا أمير المؤمنين ، صف لنا الدنيا ! » فقال : « ما أصف من دار أوَّلها عناء ، وآخرها فناء ، فى حلالها حساب ، وفى حرامها عقاب ، مَنْ صَح فيها أمِنَ ، ومن مَرض فيها ندم ، ومن استغنى فيها فُتِن ، ومن افتقر فيها حَزِن » .

فرسان العرب

قال أبو عبيدة : اجتمع العُكاظِيُّون على أن فُرسان العرب ثلاثة : ففارس تميم عُتَيبة بن الحارث بن شهاب ، أحد بنى ثَعْلبه بن يَرْبُوع بن حنظلة ، صَيَّاد الفوارس، وسَمُّ الفرسان ؛ وفارس قيس عامر بن الطُّفيل ، وفارس ربيعة بِسْطام ابن قيس ، أحد بنى شَيبان بن ثعلبة ، ثم اختلفوا فيهم حتى نَعَوْا عليهم سَقَطاتهم .

دينيات

وحدثنى العباس بن الفرج الرِّياشىُّ عن الأصمعىِّ قال : قال عَدِىّ بن الفُضَيل : خرجت إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أستحفره بئرا بالعَذْبة فقال لى : « وأين العذبة ؟ » فقلت : « على ليلتين من البصرة » . فتأسف ألا يكون بمثل هذا الموضع ماء . فأحْفرَنى ، واشترط علىَّ أن أول شارب ابن السبيل . فحضرتُه

فى جمعة ، وهو يخطب ، فسمعته وهو يقول : « يا أيها الناس ، إنكم ميتون ثم إنكم مبعوثون ثم إنكم محاسَبون ، فَلعَمْرى لئن كنتم صادقين لقد قَصَّرتم ، ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم . أيها الناس ، إنه من يُقدَّر له رزق برأس جبل أو بحَضيض أرض يَأته ، فاتقوا الله وأَجْمِلوا فى الطلب » . فأقمت عنده شهرا ما بى إلا استماع كلامه.

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ كان آمنًا فى سَرْبِه مُعافىً فى بدنه ، عنده قوت يومه ، كان كمن حِيزَت له الدنيا بحذافيرها » .

فى سربه ، يقول : فى مسلكه ، يقال : فلان واسع السرب ، خلىّ السرب يريد المسالك والمذاهب .

وكان الحسن يقول : « ليس العَجَب ممن عَطِب كيف عطب ، إنما العجب ممن نجا كيف نجا » .

وكان الحجَّاج بن يوسف يقول على المنبر : « أيها الناس ، اقْدَعُوا هذه الأنْفُس ، فإنها أسأل شىء إذا أُعْطِيت ، وأَمَنعُ شىء إذا سُئِلت ، فرحم الله امرأ جعل لنفسه خِطاما وزماما ، فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وعطفها بزمامها عن معصية الله . فإنى رأيت الصبر عن مَحارم الله أيسر من الصبر على عذابه » .

اقدعوا : يقول امنعوا . ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خطب خديجة بنت خوَيلد ، ذُكِر ذلك لوَرَقة بن نوفل ، فقال : « محمد بن عبد الله يخطِب خديجة بنت خويلد ، الفحلُ لا يُقْدَع أنفه » .

وكان الحجاج يقول : « إن امرأ أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ، أو يستغفر من ذنبه ، أو يفكر فى معاده ، لجَديرٌ أن تطول حَسْرته يوم القيامة » .

الأبناء ومآثر الآباء

أنشدني عُمارة بن عَقيل لنفسه يحضُّ بني كعب وبني كلاب ابني ربيعة على بني نُمَــير بن عامر بن صعصعة ، وبينهم مُطالَبــات وتِرات . وكانت بنو نمير أعــداء عُمــارة ، فكان يحض عليهم السلطان ، ويُغرى بهم إخوتهم ، ويحاربهم في عشيرته . فقال :

رأينا كُما يا ابْنَىْ ربيعةَ خُرْتُمــا ... لعَضٌ الحروبِ والعــديدُ كثيرُ
وصدَّقْتُما قولَ الفرزدقِ فيــكما ... وكذَّبتمُا ما كان قال جــرير
أصابتْ نُمَيرٌ منكمُ فوقَ قَدْرِهــا ... فكــلُّ نُمَيرىٍّ بـــذاك أمير
فإنْ تفخَروا بما مضى من قديمكم ... فقــد هُدمت مدائنٌ وقصــور
رَمَتْها مَجانيقُ العــدو فقُوّضتْ ... مدائنُ منهــا كالجبــال وسُور
وشيَّدها الأملاكُ كسرى وهُرْمُزٌ ... وآلُ هِرَقْل حِقْبــةً ونَضِــير
فإنْ تَعْمُروا المجدَ القديمَ فلم يَزَلْ ... لكم في مُضرّات الحروب ضرير
خَبَطْتمْ ليوثَ الشامِ حتى تَناذَرَتْ ... حِماكــم وحتى لا يَهرُّ عَقُور
فكيف بأكنافِ الشُّرَيف تصيبكم ... ثعالبُ يبحثن الحَصَى وأَبُــور

فقد هدمت مدائن وقصور : مَثَل ، يريد أن مجدكم الذى بناه آباؤكم متى لم تعمروه بأفعالكم خرب وذهب . وهذا كما قال عبد الله بن معاوية :

لَسْنــا وإنْ كَرُمَتْ أوائلُنــا ... يوما على الأحسابِ نَتَّكــلُ
نبــنى كما كانت أوائلنــا ... تبنى ونفعل مثل ما فعلــوا

كما قال الآخـــــر :

أَلْهَى بنى جُشَمٍ عن كلِّ مكرمـــــةٍ ... قصيدةٌ قالها عمرو بـــــن كُلثُومِ
يفاخرون بها مُذْ كـــــان أولهم ... يا لَلرِّجالِ لفَخْرٍ غيرِ مسئـــــوم
إنَّ القديم إذا ما ضــــــاع آخرُه ... كساعدٍ فَلَّهُ الأيـــــام محطوم

وكما قال عامر بن الطُّفَيل العامرى :

إنى وإنْ كنتُ ابنَ فارسِ عامــــرٍ ... وفى السرِّ منها والصريح المهَّذبِ
فما سَوَّدتْنى عامرٌ عن وراثــــــة ... أبى اللهُ أنْ أسمو بأمّ ولا أب
ولكنَّنى أحمى حِماهـــــــا وأتَّقى ... أذاها وأرمى من رماها بِمِقْنَب [(١)]

وقوله : لكم فى مضرات الحروب ضرير ، يقال : رجل ذو ضرير ، إذا كان ذا مشـــقة على العدوّ. ويروى أن معاوية بن أبى سفيان رحمه الله تعالى قال لدَغْفَل ابـــن حَنْظَــلة النّسّابة : « ما تقول فى بنى عامر بن صعصعة ؟ » فقال : « أعناق ظباء وأعجاز نساء » . قال : « فما تقول فى بنى تميم ؟ » قال : « حجر أخشن ، إنْ صـــادمتَه آذاك ، وإن تركتــه تركك » . قال : « فمـــا تقول فى اليمن ؟ » قال : « سّيد وأَنْوَك [(٢)] » .

(١) المقنب : الجماعة من الخيل تجتمع للغارة .
(٢) الأنوك : الأحمق ، والعاجز الجاهل ، والغبى .

هجاء ومدح

قال أعرابي يهجو قوما من طَيِّء :

ولمّا أنْ رأيتُ بنى جُوَيْنٍ　　جلوسا ليس بينهُم جليسُ
يئستُ من التى أقبلتُ أبغِى　　لديهم إننى رجل يئوس
إذا ما قلتُ أيَّهُم لأِىٍّ　　تَشابَهَتِ المناكبُ والرءوس

وقوله : جلوسا ليس بينهم جليس ، يقول : هؤلاء قوم لا ينتجع الناس معروفهم ، فليس فيهم غيرهم . وهذا من أقبح الهجاء .

ومن أمثال العرب : « سمنهم فى أديمهم » ومعناه فى مأدومهم .

وتقول الحكماء : « من كثر خيره ، كثر زائره » .

وقال المُهلّب بن أبي صُفْرة لبنيه : «يا بَنِىّ إذا غدا عليكم الرجل وراح مسلّما فكفى بذلك تقاضيا» .

ومن أحسن المدح قول زهير :

وقد جعل الطالبون الخيرَ فى هَرِمٍ　　والسائلون إلى أبوابه طُرُقا

وقال آخر :

ويزدحم الناس على بابه　　والمَشْرب العذبُ كثير الزحام

وقوله : تشابهت المناكب والرءوس ، إنما ضربه مثلا للأخلاق والأفعال ، أى ليس فيهم مُفضّل . ويقال : إن الأَضْبَط بن قُرَيع آذته عشيرته من بنى سعد ، فخرج عنهم . فجعل لا يجاوز قوما إلا آذوه ، فقال : « أينما أذهبْ ألقَ سعداً » ، أى أفر من الأذى إلى مثله .

خير المجالس

قال أبو إدريس الخَوْلانى : « المساجد مجالس الكرام » .

وقيـل للأحنف بن قيس : « أى المجالس أطيب ؟ » فقال : « ما سافر فيه البصر ، واتَّدَع فيه البدن . » اتدع : افتعل من التوديع .

وقيـل للمهلب بن أبي صُفْرة : « ما خير المجالس ؟ » فقال : « ما بَعُد فيه مدى الطَّرْف ، وكثرت فيه فائدة الجليس » .

ويـروى عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه : « إذا أتيت مجلس قوم ، فارمهم بسـهم الإسلام ثم اجلس . فإنْ أفاضوا فى ذكر الله ، فأَجِلْ سهمك ، وإن أفاضوا فى غـيره فخَـلِّهم وانهض » . قوله : فارمهم بسهم الإسلام ، يعنى السلام . وقوله: فأجِل سهمك مع سهامهم ، يعنى ادخل معهم فى أمرهم ؟ فضربه مثلا من دخول الرجل فى قداح الميسر .

وقال وهب بن عبد مَناف بن زُهْرة جد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمه :

وإذا أتيتَ جماعةً فى مجلسٍ ... فاختر مجالسهم ولَمّا تَقْعُدِ
ودَعِ الغُواة الجاهلين وجَهْلَهم ... وإلى الذين يُذكّرونك فاعمِدِ

وقـال ابن عباس رحمه الله : « لجليسى علىَّ ثلاث : أن أرميه بطَرفى إذا أقبل وأوسِّع له إذا جلس ، وأصغى إليه إذا حدث » .

وكان القَعْقاع بن شَوْر إذا جالسه جليس ، فعَرّفه بالقصد إليه ، جعل له نصيبا فى ماله ، وأعانه على عدوه ، وشفع له فى حاجته ، وغدا إليه بعد المجالسة شاكرا له حتى شُهر بذلك . وفيه يقول القائل :

كنتُ جليسَ قَعقاعِ بن شَوْرٍ ولا يَشْقَى بقعقاعٍ جليس
ضحوك السِّنَّ إن أمروا بخير وعند السوء مِطْراقٌ عَبوس

وقال رجل من بنى مَخْزوم للأَحْوَص بن محمد الأنصارى ليؤذيه : أتعرف الذى يقول :

ذهبت قريش بالمكـارم كلّها واللؤمُ تحت عمائـم الأنصار

فقال الأحوص : لا أدرى، ولكنى أعرف الذى يقول :

الناسُ كَنَّوْه أباحَكَـمٍ والله كَنَّاه أبا جَهْـل
أبقتْ رياسـته لأسـرته لؤمَ الفُـروع ودقَّةَ الأصـل

وهـذا الشـعر لحسان بن ثابت . والبيت الذى أنشده المخزومى للأخطل ، وكـان يزيد بن معاوية عتب على قوم من الأنصار ، فأمر كعب بن جُعَيل التغلبى بهجائهم. فقال له كعب: « أأهجو الأنصار ؟ أرادِّى أنت إلى الكفر بعد الإسلام ؟ ولكـنى أدلـك عـلى غـلام من الحى نصرانى ، كأن لسانه لسان ثور » . يعنى الأخطـل. فـلما قال هذا البيت دخل النعمان بن بشير بن سعد الأنصارى على معاوية ، فحَسَر عمامته عن رأسه ، ثم قال : « يا معاوية أترى لؤما ؟ » . فقـال: « ما أرى إلا كرما » . فقال النعمان :

مُعاوىَ إنْ لا تُعْطنا الحـقَّ تعترف لحى الأزْدِ مَسْدولا عليها العمائمُ
أَيَشْتُمنُا عبدُ الأراقمِ ضَـلّةً فماذا الذى تجدى عليك الأراقم
فمالىَ ثأرٌ دونَ قطعِ لسـانه فدونَك مَن ترضيه عنه الدراهـم

وكـان الأحـنف بن قيس يقول : « لاتزال العرب عربا ما لبست العمائم ، وتقلدت السيوف ، ولم تَعْدُد الحلم ذلا ، ولا التواهب فيما بينها ضعة » .

obeikandl.com

وقالوا فى تأويل قوله : مالبست العمائم ، يقول : ما حافظت على زيها. وقوله وتقلدت السيوف ، يريد الامتناع من الضيم. وقوله : لم تعدد الحلم ذلا ، يقول ما عرفت موضع الحلم . وتأويل ذلك أن الرجل إذا أغضى للسلطان ، أو أغضى عن الجواب وهو مأمور ، لم يُقَلْ حَلُم ، وإنما يقال حلم إذا ترك أن يقول الشيء لصاحبه منتصرا ولا يخاف عاقبة يكرهها ؛ فهذا الحلم المحض . فإذا لم يفعل ذلك ، ورأى أن تركه الحلم ذل ، فهو خطأ وسفه . وقوله : ولم تر التواهب بينها ضعة ، نحو من هذا ، وهو أن يهب الرجل من حقه مالا يستكره عليه .

الاحسان والمنة

كان يقال : « أحْيوا المعروف بإماتته » . وتأويل ذلك أن الرجل إذا امتن بمعروفة كدَّره .

وقيل : « المنَّة هدم الصنيعة » .

وكان يقال : « كتمان المعروف من المنعَم عليه كفر ، وذِكْره من المنعِم تكدير له » .

وقال قيس بن عاصم : « يا بنى تميم ، اصحبوا من يذكر إحسانكم إليه وينسى أياديه إليكم » .

نقد الأشعار

قـال عـبد المـلك بن مروان لأسيْلِم بن الأحنف الأسدى : « ما أحسن ما مُدِحـت بـه ؟ » فاستعفاه فأبى أن يعفيه ، وهو معه على سريره ، فلما أبى إلا أن يخبره ، قال : قول القائل :

ألا أيُّها الرَّكْبُ المُخِبُّونَ هل لكـم بسيِّدِ أهلِ الشامِ تُحْبَوْا وتَرْجِعوا [١]
من النَّفَرِ البيض الذين إذا اعْتَـزَوْا وهابَ الرجالُ حَلْقةَ البابِ قَعقَعُوا[٢]
إذا النفرُ السُّودُ اليَمانونَ نَمْنَـمُـوا له حَوكَ بُرْدَيْه أجادوا وأوسـعوا [٣]
جَلا المِسْكُ والحَمَّام والبِيضُ كالدُّمى وفَرْقُ المدارى رأسَه فهو أنـزع [٤]

فقال له عبد الملك : ما قال أخو الأوس أحسن مما قيل لك :

قد حَصَّت البَيْضةُ رأسى فمـا أطـعَمُ نومـًا غير تَهْجـاعِ [٥]

وحُدثـت أن كُـثيِّرا كان يقول : لَوَدِدْت أنى كنت سبقت الأسود إلى هذين البيتين ، يعنى نصيبا فى قوله :

من النفر البيض الذيـن إذا انْتَجَوْا أقرَّتْ لنَجْواهم لُؤَىُّ بن غـالبِ
يُحَيَّونْ بسَّامين طَـوْرا وتـارة يُحَيَّون عَبَّاسين شُـوس الحواجب

والمختار من الشعر الأول قوله :

---

[١] المخبون : الذين تخب بهم دوابهم ، أى تسرع . وتحبوا : تعطوا .

[٢] اعتزوا : انتسبوا . وقعقعوا : صوتوا .

[٣] نمنموا : زخرفوا ، والحوك : الخياطـة .

[٤] المدارى : الأمشـاط .

[٥] البيضـة : الخـوذة .

من النفر البيض الذيـــن إذا اعتزوا وهاب الرجال حلْقَة البـــاب قعقوا

يخبر بجلالتهم ومعرفتهم بأقدارهم وثقتهم بأن مثلهم لا يُرَد .

وحُدِّثْـــت أن جريـــرا كان يقول : وددت أن هذا البيت من شعر هذا العبد كان لى بكذا وكذا بيتـــا من شعرى ، يعنى قول نصيب :

بزينب ألْمِمْ قبلَ أن يرحلَ الركبُ وقُلْ إنْ تَمَلّينا فمـــــا مَلّكِ القلبُ

وأما قول نصيب :

أهيمُ بدَعْدٍ مـــا حييتُ وإنْ أمُتْ أُوَكلْ بدعدٍ من يهيم بها بعــــدى

فلم تجد الرواة ولا من يفهم جواهر الكلام له مذهبـــا حسنا . وقد ذكر عبد المـــلك ذلك لجلسائه فكلٌّ عابه ، فقال عبد الملك : « فلو كان إليكم كيف كنتم قائلين ؟ » فقال رجل منهم : كنت أقول :

أهيم بدعد مـــا حييت وإن أمت فوا حَزَنا من ذا يهيم بها بعدى ؟

فقال عبد الملك : « ما قلت والله أسوأ مما قاله ! » فقيل له : « فكيف كنت قائلا فى ذلك يا أمير المؤمنين ؟ » فقال : كنت أقول :

أهيم بدعد مـــا حييت فـــإن أمت فلا صَلَحت دعد لِذِى خُلّة بعـــدى

فقالوا : « أنت والله أشعر الثلاثة يا أمير المؤمنين » .

وقد فُضِّل نُصَيب على الفرزدق فى موقفه عند سليمان بن عبد الملك ، وذلك أنهما حضرا ، فقال سليمان للفرزدق : « أنشدنى » . وإنما أراد أن ينشده مدحا له . فأنشده :

وركبٍ كأن الريحَ تطلبُ عندَهم ... لها ترَةً من جَذْبِها بالعصائب [(١)]
سَرَوْا يخبطون الريحَ وهى تَلُفُّهم ... إلى شُعَب الأكوارِ ذات الحَقائب [(٢)]
إذا آنَسُوا نارا يقولون لَيْتها ... وقد خَصِرت أيديهم نارُ غالب [(٣)]

فأعرض سليمان كالمغْضَب . فقال نصيب : « يا أمير المؤمنين أَلا أنشِدك فى رَوِيِّها ما لعله لا يتضع عنها ؟ » فقال : « هات » . فأنشده :

أقول لركبٍ صادِرين لَقيتُهم ... قَفَا ذاتِ أوشال ومولاكَ قارب [(٤)]
قِفُوا خَبِّرونى عن سليمانَ إننى ... لمعروفه من أهل وَدانَ طالب
فعاجُوْا فأثْنَوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائب [(٥)]

---

(١) الترة : الثأر . والعصائب : العمائم .

(٢) الأكوار : جمع كور ، وهو الرحل .

(٣) خصرت : بردت .

(٤) قفا : خلف . ذات أوشال : موضع . ومولاك : يريد نفسه . وقارب : طالب للماء .

(٥) عاجوا : عطفوا إبلهم .

وهـذا فى بـاب المـدح حسن ومتجاوز ومبتدع لم يُسبَق إليه ، على أن الشاعر ، وهو أخو هَمْدان ، قد قال فى عصره فى غير المدح :

يَمُرّون بالدَّهْنا خِفافا عِيـابُهم ... ويخرُجْن من دارِينَ بُجْرَ الحَقـائبِ
على حينِ أَلْهَى الناسَ جُلُّ أمورهـم ... فَنَدْلا زُرَيْقُ المالَ نَدْلَ الثعـالب

وليس شعر نصيب هذا الذى ذكرناه فى المدح بأجود من قول الفرزدق فى الفخر ، وإنما يُفاضَل بين الشيئين إذا تناسبا . وقد قال سليمان للفرزدق حين أنشده نصيب : « كيف تراه ؟ » قال : « هو أشعر أهل جِلْدَتِه » . فقام الفرزدق وهو يقول :

وخَيْرُ الشعرِ أشرفه رجالا ... وشَرُّ الشعر ما قال العبيد

ثم نرجع إلى تفسير الشعر . يمرون بالدهنا خفافا عياهم ، يعنى قوما تجارا . وقد قالوا : إنما ذكر لصوصا . والأول أثبت ، ذلك أن « دَارِين » سوق من أسواق العرب . وبُجْر الحقائب ، يقول : عظام . وأما قوله : فندلا زريق المال ندل الثعالب ، فزريق : قبيلة ، وندلا : مصدر ، يقول الدُلِي ندلا يازريق المال ، والنّدل : أن تجذبه جذبا فنصب ندلا بفعل مضمر ، وهو الدُلِي . وهذا فى الأمر تقول : ضربا زيدا ، وشتما عبد الله . وندل الثعالب : يريد سرعة الثعالب ، يقال فى المثل : « أكسب من ثعلب » .

إصابة الهدف في المديح

وحُدِّثت أن أبا وَجْزَة السُّلمِي المعروف بالسَّعْدى لنزوله فيهم ، ومحالفته إياهم ، كان شَخَص إلى المدينة يريد آل الزبير ، وشخص أبو زيد الأسلمى يريد إبراهيم بن هشام ، وهو والى المدينة فاصطحبا . فقال أبو وجزة : « هَلُمَّ فَلْنَشترك فيما نصيبه » فقال أبو زيد الأسلمى : « كلا ، أنا أمدح الملوك ، وأنت تمدح السُّوقَة ! » فلما دخلا المدينة صار أبو زيد إلى إبراهيم بن هشام فانشده :

يا بن هشام يا أخا الكرام

فقال إبراهيم : « وإنما أنا أخوهم وكأنى لست منهم ! » . ثم أمر به فضُرِب بالسياط . وامتدح أبو وجزة آل الزبير ، فكتبوا إليه بستين وَسْقا من تمر ، وقالوا : « هلا لك عندنا فى كل سنة » . فانصرفا . فقال أبو زيد :

مدحتُ عُروقا للنَّدى مَصَّت الثَّرَى — حَدِيثا فلم تَهْمُمْ بأن تَتَزعزعا
نقائذَ بؤسٍ ذاقت الفقرَ والغنى — وَحَلَّبت الأيامَ والدهرَ أضْرُعا
سقاها ذووالأرحامِ سَجْلاعلَى الظَّما — وقد كَرَبتْ أعناقُها أن تَقَطَّعا
بفَضْلِ سِجالٍ لو سَقَوا من مشى بها — على الأرضِ أرْواهم جميعًا وأشبعا
فضمّت بأيديها على فضل مائها — من الرِّى لما أوشكت أن تَضَلَّعا
وَزهَّدها أن تفعل الخير فى الغنى — مُقاساتُها من قبله الفقرَ جُوَّعا

وقال أبو وجزة :

راحت رواحا قَلوصى وهى حامدةٌ — آلَ الزبير ولم تَعْدِلْ بهم أحدا
راحت بستين وَسْقا فى حقيبتها — ماحملتْ حَملَها الأدنى ولا السَّددا
ما إن رأيتُ قلوصًا قبلها حَمَلت — ستين وَسْقا ولا جابت به بلدا
ذاك القِرَى لا قِرى قومٍ رأيتهمُ — يَقْرون ضيفهمُ الْملوِيَّة الجُدُدا

أمـــا قول أبى زيد لإبراهيم : مدحت عروقا للندى مصت الثرى حديثا ، فإنما عــنى أن إبراهيم وأخاه محمدا إنما تَطعَّما بالعيش ، ودخلا فى النعمة ، وخرجا من حــدّ السُّوقِ إلى حد الملوك حديثا ، وذلك بهشام بن عبد الملك ، لأنهما كانا خاليه فإنمــا وَلاّهمــا عن خمول . وقوله : فلم همم بأن تتزعزعا ، فإنما هذا مثل ، يقال : فلان يهتز للندى ، ويرتاح لفعل الخير ، كما قال مُتَمِّم بن نُوَيرة :

تراه كنصلِ السيف يهتز للنــدى إذا لم تجدعند امرىء السُّوءِ مَطْمَعا

وتأويل ذلك أنه يتحرّك تحرك سرور لفعل الخير . وأنشدنى التوّزِى لأبى رباط يقول لابنـــه :

رأيت رباطــاً حين تمّ شــبابـــه ووَلى شبابى ليس فى بِــــرّه عَتْبُ
إذا كان أولادُ الرجـــال مرارةً فأنت الحَلال الحلو والبــارد العذب
لنا جانب منـــه أنيقٌ وجـــانب شديد على الأعداء مركبـــه صعب
وتأخذه عِند المـــــكارم هِزّةٌ كما اهتزّ تحت البارح الغُصُن الرطْبُ

وقولـــه : نقائذ بؤس ، واحدها نَقيذة ، وتأويله أنهم أُنقذوا من بؤس ، يقال للرجل والمرأة ذلك على لفظ واحد ، تقول : هذا نقيذة بؤس ، تقع الهاء للمبالغة . وقوله : وحلبت الأيام والدهر أضرعــا ، فإنه مَثَل ، يقال للرجل المجرَّب للأمور : فــلان قد حلب الدهر أشطره ، أى قد قاسى الشدة والرخاء ، وتصرف فى الفقر والغــنى . وقولـــــه : سقاها ذوو الأرحام سجلا على الظما ، فالسجل فى الأصل الدلــو، وإنمــا ضربه مثلا لما فاض عليها من ندى أقاربها ، يقال للدلو وهى مؤنثة سَجْل وذَنوب . وقوله : وقد كربت أعناقها أن تقطعا ، يقول سقِيت هذا السجل وقــد دنت أعناقها من أن تقَطع عطشـــا . وكرب فى معنى المقاربة ، يقال : كاد

يفعل ذلك ، وكرب يفعل ذلك ، أى دنا من ذلك . وقوله : أن تضلّعا ، معناه أن تمتلىء ، وأصله أن الطعام والشراب يبلغان الأضلاع فيكظانها ، كذلك قال الأصمعى فى قولهم : أكل حتى تضلّع . وأما قوله : يقرون ضيفهم الملوية الجددا، فإنما أراد السياط ، وجمع جديد جُدد .

الدنيا

أمر مصعب بن الزبير رجلا من بنى أسد خُزَيمة بقتل مُرّة بن مَحْكان السعدىّ ، فقال مرة فى ذلك :

بنى أسد إنْ تَقْتُلونى تُحَارِبُوا　　تَميمًا إذا الحربُ العوانُ اشْمَعَلّتِ
ولستُ وإن كانت إلىّ حبيبةً　　بباكٍ على الدنيا إذا ما تولّت

قوله : إذا الحرب العوان ، فهى التى تكون بعد حرب قد كانت قبلها ، وكذلك أصل العوان فى المرأة إنما هى التى قد تزوجت ثم عاودت فخرجت عن حد البكر . وقول الله عز وجل فى كتابه العزيز : ﴿ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ هو تمام الكلام ، ثم استأنف فقال : ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ، والفارض ههنا المُسِنّة ، والبكر : الصغيرة . وقوله : اشْمَعَلّت، إنما هو ثارت فأسرعت ، وقوله : ولست بباك على الدنيا وإن كانت إلىّ حبيبة . ولولا هذا التقدير لم يجز أن يضمر قبل الذكر ، ومثله :

إنْ تَلْقَ يوما على عِلاّته هَرِما　　تلْقَ السماحة منه والندى خُلُقا

علل

يروى عن الأصمعى أنه قال : هجم علىّ شهر رمضان ، وأنا بمكة ، فخرجت إلى الطـــائف لأصوم بها ، هربـــاً من حرّ مكة ، فلقينى أعرابىٌّ ، فقلت له : « أين تـــريد ؟ » . فقـــال : « أريد هذا البلد المبارك ، لأصوم هذا الشهر المبارك فيه » . فقلت له : « أمَا تخاف الحرَّ ؟ » . فقال : « من الحرِّ أفرُّ » .

هذا الكـــلام نظير كلام الربيع بن خُثَيم . فإن رجلا قال له ، وقد صلّى ليلة حـــتى أصـــبح : « أتعـــبت نفسك ! » ، فقال : « راحتَها أطلبُ . إنَّ أفْرهَ العبيد أكيسُهم » .

ونظـــير هذا الكلام قول رَوح بن حاتم بن قَبِيصة بن المُهلّب ، ونظر إليه رجل واقفا بباب المنصور فى الشمس ، فقال : « قد طال وقوفك فى الشمس ؟ » . فقال روح : « ليطول وقوفى فى الظل » .

ومثله من الشعر قوله [1] :

تقول سليمى لو أقمتَ بأرضنـــــا ... ولم تَدْرِ أنى للمُقـــــام أُطـــوِّفُ

وقال آخـــــر :

سأطلب بُعْدَ الدار منكم لتَقربـــوا ... وتسكُب عيناى الدموع لتَجمُدَا

وهذا معنى كثير حسن جميل .

---

(١) قائله عروة بن الورد العبسى .

أمثال

من أمثال العرب : « لم يذهب من مالك ما وعظك » . يقول : إذا ذهب من مالك شيء فحَذرك أن يحلّ بك مثله ، فتأديبه إياك عِوَض من ذهابه .

ومـــن أمثالهم : « رُبَّ عجلةٍ تَهب رَيثا » . وتأويله أن الرجل يعمل العمل فلا يُحكمـــه للاســـتعجال بـــه ، فيحتاج إلى أن يعود فينقضه ثم يستأنف . والريث : الإبطاء، وراث عليه أمره : إذا تأخر .

ومـــن أمـــثال العرب : « عَشِّ ولاتَغترّ » . وأصل ذلك أن يمرّ صاحب الإبل بالأرض المُكلئة فيقول : أدع أن أعشّى إبلى منها حتى أرِد على أخرى ، ولا يدرى ما الذى يرد عليه .

وقريب منـــه قولهم : « أنْ تَرِد الماءَ بماءٍ أكْيَس » . وتأويله أن يمر الرجل بالماء فلا يحمل منه اتكالا على ماء آخر يصير إليه ، فيقال له : أنْ تحمل معك ماء أحْزم لك ، فإن أصبت ماء آخر لم يضرك ، فإن لم تحمل ، فخففت من الماء عَطبت .

ومـــن أمثالهم : « قد أحْزِم لو أعْزِم » ، يقول : أعرف وجه الحزم فإن عزمت فامضيت الرأى فأنا حازم ، وإن تركت الصواب وأنا أراه وضيّعت العزم لم ينفعنى حزمى . فالذى يُحْمد إمضاء ما تبين رشده ، فأما الإقـــدام على الغَرَر ، وركوب

الأمـــر على الخطر ، فليس بمحمود عند ذوى الألباب ؛ وقد يتحسن بمثله الفُتّاك ، كما قال [1] :

عليـــكم بِدَارى فاهْدِموها فإنهــا ... تُراثُ كريمٍ لا يخاف العَواقبَـــا
إذا هَمَّ أَلْقَى بين عينيـــه عزمـــه ... وأعرضَ عن ذكرِ العواقب جانبا
ولم يَسْتَشر فى رأيه غيرَ نفســـــه ... ولم يَرْضَ إلا قائمَ السيفِ صاحبا

فهذا شأن الفُتاك . وقال آخر :

غلامٌ إذا ما هَمْ بالفتكِ لم يُبَـــلْ ... ألامَتْ قليلا أم كثيرا عـــواذِلُهْ

وقال آخـــــــر :

وما العجزُ إلا أن تشاورَ عاجــزا ... ومــــا الحزم إلا أن تَهُمَّ فَتَفْعلا

وأمـــا قولُ على بن أبى طالب رضى الله عنه : « من أكْثَرَ الفكرة فى العواقب لم يَشْجُع » . فتأويله أنه من فكّر فى ظَفَر قِرْنه به ، وعُلُوّه عليه ، لم يُقدِم. وإنما كان الحـــزم عند على رضى الله عنه أن يَحَظُر أمر الدين ثم لا يفكر فى الموت. وقد قيل لـــه : « أتقتل أهل الشام بالغداة ، وتظهر بالعشى فى إزار ورداء ؟ » . فقـــال : « أبـــا لمـــوت أُخوَّف ؟ والله ما أبالى أسقطتُ على الموت أم سقط الموت علىَّ ! » وقـــال للحســـن ابنه : « لا تبدأ بدعاء إلى مبارزة ، فإنْ دُعِيت إليها فأجِبْ، فإنَّ طالبها باغٍ ، والباغى مصروع » .

وكـــان عمـــر بـــن الخطاب رضى الله عنه يلتفّ فى كسائه ، وينام فى ناحية المســـجد . فـــلما وَرِد بالَمـــرْزُبان عليه ، جعلوا يسألون عنه ، فيقال : « مر ههنا آنفـــا » . فيَصْغر فى قلب المرزبان ، إذ رآه كبعض السُّوَق حتى انتهى إليه ، وهو

---
(١)

نائم فى ناحية المسجد . فقال المرزبان : « هذا والله المُلْك الَهنِىء » . يقول : لايحتاج إلى أحـــراس ولاعُدَد . فلما جلس عمر امتلأ قلب العِلْج [1] منه هيبة لما رأى عنده من الجد والاجتهاد ، وأُلْبِس من هيبة التقوى .

التقوى

قـــال الكَلْبى : قال لى خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كـُـرْز القَسْرِى : « مــا تَعُـــدُّون السُّؤدد ؟ » فقلت : « أما فى الجاهلية فالرياسة ، وأما فى الإسلام فالولاية . وخيرٌ من ذا وذاك التقوى » . فقال لى : « صدقت . كان أبى يقول : لم يُدرك الأولُ الشرفَ إلا بالفعل ، ولا يدركه الآخرِ إلا بما أدرك بـــــه الأول » . فقــلت : « صـــدق أبـــوك . ساد الأحنف بِحلْمه ، وساد مالك بن مِسْمَع بمحبة العشـــيرة له ، وساد قُتَيبة بدهائه ، وساد المهلب بجميع هذه الخلال » . فقال لى : « صـــدقت . كان أبى يقول : خير الناس للناس خيرهم لنفسه ، وذلك أنه إذا كان كذلـــك اتّقى على نفسه من السَّرَق لئلا يقُطَع ، ومن القتل لئلا يُقاد ، ومن الزنا لئلا يُحَدّ ، فسَلِم الناس منه باتقائه على نفسه » .

وكان عبد الله بن يزيد أبو خالد من عقلاء الرجال . قال له عبد الملك يوما : « مــا مــالُك ؟ » فقال : « شيئان لا عَيْلَة علىّ معهما : الرضا عن الله والغنى عن الـــناس » . فلما نهض من بين يديه ، قيل له : « هلاّ خبّرته بمقدار مالك ! » فقال : « لم يَعْدُ أن يكون قليلا فيَحْقِرنى ، أو كثيرا فيحسدنى » .

[1] العلج : الرجل من كفار العجم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَرّه أن يكون أعز الناس فليَتَّقِ الله ، ومـــن سرّه أن يكون أغنى الناس فليــكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده ، ومن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « من سرّه الغنى بلا ملل ، والعزَّ بلا ســلطان ، والكـــثرة بلا عشيرة ، فليخرج من ذلّ معصية الله إلى عز طاعته ؛ فإنه واجدٌ ذلك كله » .

وخطـــب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم . فحمد الله بما هو أهله ثم أقبل على الناس فقال : « أيها الناس ، إن لكم معـــالم فانتهوا إلى معالمــكم ، وإن لـــكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ،فإن العبد بين مخافتين : أجلٍ قد مَضَى لا يدرى ما الله فاعلٌ فيه ، وأجلٍ باقٍ لا يدرى ما الله قاضٍ فيه . فلَيأخُذ العبد من نفسه لنفسه، ومـــن دنيـــاه لآخرته ، ومن الشَّبِيبة قبل الكِبَر ، ومن الحياة قبل الممات . فوالذى نفسُ محمدٍ بيـــده ، ما بعدَ الموتِ من مستعتَب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النـــــار » .

وقـــال رســـول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرنى ربى بتسع : الإخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الغضب ، والرضا والقَصْد فى الفقر والغنى ، وأن أعفو عمـــن ظلمنى ، وأصِل من قطعنى ، وأعطِي من حَرَمنى ، وأن يكون نطقى ذكرا ، وصمتى فـــكرا ، ونظرى عِبْرة » .

وكان مالك بن دينار يقول : « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم » .

وكان يقول : « ما أشدَّ فِطام الـــكبير » .

وقيل لعمر بن عبد العزيز: « أى الجهاد أفضـــل ؟ » فقال: « [illegible] » .

الصديق عند الحاجة

قال رجل :

لَحَى اللّه أكبـــانا زِنـــادا وشرَّنا ... وأَيْسَرنا عن عِرْضِ والده ذَبّــا
رأيتُك لـمَّـا نلْت مالا وُمَسَّنـــــا ... زمانٌ تَرى فى حَدِّ أنيابه شَغْبا
جعلتَ لنا ذَنبـا لتمنعَ نائـــلا ... فأَمسِكْ ولا تجعل غِناك لنا ذنبا

قولــه : أكبانا زنادا ، الزناد التى تُقدَح بها النار ، ويقال أورى القادح ، إذا خرجت لــه النار ، وأكبى ، إذا أخفق منها ، هذا أصله ، يُضرَب للرجل الذى ينبعث الخير على يديه ، ويضرب الإكباءُ للذى يمتنع الخير على يديه .

وقال عبد الله بن معاوية :

رأيتُ فُضَيلا كان شيئـا مُلَفَّفـا ... فكَشَّفَهُ التمحيصُ حتى بَدا لِيَـا
أأنتَ أخى مالم تـكن لىَ حاجة ؟ ... فإنْ عرضتْ أيقنتُ أنْ لا أخاليا
فلا زاد ما بينى وبينك ، بعد مـا ... بَلَوْتُك فى الحاجات ، إلاَّ تَماديا
فلستُ براءٍ عيبَ ذى الود كلــّه ... ولا بعضَ مافيه إذا كنتُ راضيا
فعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كَليـلةٌ ... ولكنَّ عينَ السُّخْطِ تُبدى المَساويا
كلانا غنىٌّ عن أخيــه حياتَــه ... ونحن إذا مِتْنا أشدُّ تغانيــــا

قوله : كان شيئـا ملففـا ، يقول : كان أمرا مُغطًّى .

وقــال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « ثلاثة لا يُعْرَفون إلا فى ثلاث : لا يعــرف الشجاع إلا فى الحرب ، ولا الحليم إلا عند الغضب ، ولا الصديق إلا عند الحاجة » .

علي وطلحة

حدثنى التَّوَّزِىُّ قال : حدثنى محمد بن عَبّاد بن حبيب بن المهَلَّب ، أحسبه عن أبيــه قال : لما انقضى يومُ الجمل ، خرج على بن أبي طالب رضى الله عنه فى ليلة ذلــك اليوم ، ومعه قَنْبَر ، وفى يده مشعلة من نار يتصفّحُ القتلى ، حتى وقف على رجــل . قال التَّوَّزِىُّ ، فقلت : « أهو طلحة ؟ » قال : « نعم » . فلما وقف عليه قال : « أعْزِزْ علىّ أبا محمد أن أراك مُعفّرا تحت نجوم السماء ، وفى بطون الأودية . شفيتُ نفسى ، وقتلت مَعْشرى ، إلى الله أشكو عُجَرى وبُجَرى » .

قوله : معفّرا ، أى مُلصَق الوجه بالتراب، ويقال للتراب : العَفَر ، والعَفْر . وقوله : إلى الله أشكو عُجَرى وبُجَرى ، يقول : ما أُسِرُّ من أمرى . قال الأصمعى: وهو قول سائر فى أمثال العرب : لقى فلان فلانــا فبثّه عُجَره وبُجَره .

كفى بالسلامة داء

قال النَّمِر بن تَوْلَب :

تدارَكَ ما قبــلَ الشبابِ وبعدَه ... حوادثُ أيــامٍ تَمُرُّ وأَغْفُلُ
يَسُرُّ الفتى طولُ السلامة والبَقــا ... فكيف يَرى طولَ السلامة يفعل ؟
يردُّ الفتى بعــد اعتدالٍ وصحةٍ ... يَنوءُ إذا رام القيــام ويُحْمَل

قصر البقاء ضرورة ، وللشاعر إذا اضطر أنْ يقصر الممدود . وليس له أن يمدَّ المقصــور ، وذلك أن الممدود قبل آخره ألف زائدة ، فإذا احتاج حذفها لأنها ألف زائدة ، فإذا حذفها رد الشىء إلى أصله . فلو مدّ المقصور لــكان زائدا فى الشىء

ما ليس منه . ومثل هذا كثير فى الشعر جدا . وقوله : ينوء إذا رام القيام ، يقول : ينهض فى تثاقل ، قال الله عز وجل : ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ ، والمعنى أن العصبة تنوء بالمفاتيح .

ويُرْوَى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كَفَى بالسلامة داء » .

وقال حُمَيد بن ثَوْر الهلالى:

أرَى بصرى قد رابنى بعد صحة ... وَحَسْبُك داءً أن تَصِحَّ وتَسْلما
ولا يلبثُ العَصْرانِ : يومٌ وَليلةٌ ... إذا طَلبا أَنْ يُدْرِكا ما تَيَمَّما

وقال أبو حَيَّةَ النُّمَيْرى :

ألا حَيِّ من أجلِ الحبيب المغانيا ... لَبِسْنَ البلى مما لبسن اللياليا
إذا ماتَقاضَى المرءَ يومٌ وليلةٌ ... تقاضاه شيءٌ لا يَمَلُّ التقاضيا

وقال بعض شعراء الجاهلية :

كانت قناتِي لا تلينُ لغامزٍ ... فألانَها الإصباحُ والإمساءُ
ودعوتُ ربى فى السلامةِ جاهدا ... ليُصِحَّنِي فإذا السلامةُ داء

وقال عَنترة بن شداد :

فما أوْهَى مِراسُ الحرب رُكْنِي ... ولكن ما تقادم من زماني

ومن أمثال العرب إذا طال عمر الرجل أن يقولوا : « لقد أكل عليه الدهر وشرب » ، إنما يريدون أنه أكل هو وشرب دهرا طويلا

بكاء الأبناء

قال جَرِير :

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهـــم ... كيف العزاءُ وقد فارقتُ أشْبالى ؟
هذا سوادة يَجْلُو مُقْلَتَىْ لَحِـــمٍ ... بازٍ يُصَرْصِرُ فوقَ المرْقَبِ العالـــى
فارقته حين غَضَّ الدهرُ من بَصرِى ... وحين صرتُ كَعَظْمِ الرِّمَّةِ البـــالى

قوله : يجلو مقلتى لحم ، شبه مقلته بمقلتى البازى . ويقال : طائر لحم ، من هذا ، وقوله : يصرصر ، يعنى يصوت .

ومثل بيت جرير الأخير قول أبى الشّغْب يرثى ابنه شَغْبا :

قد كان شغْبٌ لـــو ان الله عَمَّرَهُ ... عِزًّا تُزاد بـــــه فى عِزهَا مُضَرُ
ليتَ الجبال تداعتْ قبلَ مَصْرَعِـــه ... دَ كًا فلم يبق من أحجارِها حَجَر
فارقت شغبــا وقد قَوَّستُ من كِبرٍ ... بِئْسَ الخليفانِ طولُ الحزنِ والكِبَرُ

obeikandl.com

اللذة الباقية

كان يقال : « إذا رغبت فى المكارم فاجتنب المحارم » .

وكان يقال : « أنعم الناس عيشا من عاش غيره فى عيشه » .

وانتبه معاوية من رَقْدة له ، فأنبه عمرو بن العاص . فقال له عمرو : « ما بقى من لذتك يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « عَيْنٌ خرارة فى أرض خوّارة ، وعين ساهرة لعين نائمة ، فما بقى من لذتك يا أبا عبد الله ؟ » قال : « أنْ أبيت مُعَرِّسا بعقيلة من عقائل العرب » . ثم نبها وردان ، فقال له معاوية : « ما بقى من لذتك ؟ » ، فقال : « الإفضال على الإخوان » . فقال له معاوية « اسكت فأنا أحق بها منك » . فقال له : « قد أمْكَنَك فافعل » .

ويروى أن عَمْرا لما سئل قال : « أن أستتم بناء مدينتى بمصر » ، وأن وَرْدان لما سئل قال : « أن ألقى كريما قادرا فى عَقِب إحسان كان منى إليه » ، وأن معاوية سئل عن الباقى من لذته فقال : « محادثة الرجال » .

ويروى عن عبد الملك أنه قال ، وقد سئل عن الباقى من لذته فقال : « محادثة الإخوان فى الليالى القُمْر على الكُثْبان العُفْر » .

وقال سليمان بن عبد الملك : « قد أكلنا الطيب ، ولبسنا اللَّيِّن ، وركبنا الفاره ، وامتطينا العَذْراء ، فلم يبق من لذتى إلا صديق أطرح بينى وبينه مؤنة التحفظ » .

وقال رجل لرجل من قريش : « إنى والله ما أمل الحديث » قال : « إنما يُمَل العتيق ! » .

وقال المهلب بن أبي صفرة : « العيش كله فى الجليس الممتع » .

وقال يزيد بن المهلب : « ما يسرنى أنى كُفيت أمر الدنيا كلّه » . قيل له : « ولِمَ أيها الأمير ؟ » قال : « أكره عادة العجز » .

تواضع وبر وشجاعة

وهمّ السّراج فى مجلس عمر بن عبد العزيز ليلة بأن يخمد ، فوثب إليه رجاء ابن حَيْوَة ليصلحه . فأقسم عليه عمر فجلس فأصلحه . فقال له رجاء : « أتقوم يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، ورجَعْت وأنا عمر ابن عبد العزيز » .

وقيل لعلى بن الحسين رضى الله تعالى عنهما : « إنك من أبر الناس بأمك ولسنا نراك تأكل مع أمك فى صَحْفة ؟ » فقال : « أخاف أن تسبق يدى إلى ما قد سبقت عينها إليه ، فأكون قد عَقَقْتها » .

وسئل المهلب : « من أشجع الناس ؟ » فقال : « عَبّاد بن حُصَين ، وعمر بن عبيد الله بن مَعْمر ، والمغيرة بن المهُلّب » . فقيل له : « فأين ابن الزُّبير ، وابن خازم ، وعُمَير بن الحباب ؟ » فقال : « إنما سئلت عن الإنس ولم أسأل عن الجِنّ ! » .

عظات

قالت عائشة رضى الله عنها : « من أرضى الله بإسخاط الناس ، كفاه الله ما بينه وبين الناس ؛ ومن أرضى الناس بإسخاط الله وَكَله الله إلى الناس ؛ ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته » .

ويُروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن هذا الدين متين فَأَوْغِلْ فيه برفق ، ولا تُبغِّض إلى نفسك عبادة ربك . فإنّ المُنْبَتَّ لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى » . المتين : الشديد ، قال الله عز وجل : ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيدِى متين ﴾ . فأوغل فيه برفق : يقول ادخل فيه . والمُنْبَتّ : اشتقاقه من الانقطاع ، يقال : انبتّ فلان من فلان ، أى انقطع منه .

وحُدِّثت أنّ ابن السَّمّاك كان يقول : « إذا فعلتَ الحسنة فافرح بها واستَقْلِلْها، فإنك إذا استقللتها زِدْت عليها ، وإذا فرحت بها عُدْتَ إليها » .

ويروى أن يزيد بن عمر دخل على المنصور يوما، فقال المنصور : « حدِّثنا » فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن سلطانكم حديث ، وإمارتكم جديدة . فأذيقوا الناس حَلاوة عَدْلها ، وجَنِّبوهم مرارة جَوْرها . فوالله يا أمير المؤمنين لقد مَحَضْتُ لك النصيحة » . ثم نهض فنهض معه سبعمئة من قيس . فأتأرَه المنصور بصَره ، ثم قال : « لا يَعزُّ مُلْكٌ يكون فيه مثل هذا ! » . قوله : مَحَضتُ لك النصيحة ، يقول أخلصت لك ، وأصل هذا من اللبن ، والمحض منه الخالص الذى لا يشوبه شىء . وأتأره بصره : أتبعه بصره وحَدّ إليه النظر .

ويروى عن الأحنف بن قيس أنه قال : « ما شاتمت رجلا منذ كنت رجلا ، ولاَ زَحَمَتْ ركبتاى ركبتيه . وإذا لم أصل مُجْتدِىٌّ حتى يَنتحَ جبينهُ عَرَقا كما يَنْتِح الحَميت ، فو الله ما وصلتُه » . قوله : مجتدىٌّ ، يريد الذى يأتيه يطلب فضله ، وأصل ذلك مأخوذ من الجَدَى – مقصور – وهو المطر العام النافع .

وقوله : حتى ينتح جبينه عرقا ، فهو مثل الرَّشْح . وقوله : الحميت ،فالحميت والزِّق اسمان له ، وإذا زُفِّت أو كان مَرْبوبا فهو الوَطْب ، وإذا لم يكن مربوبا ولا مُزَفَّتا فهو سِقاء ونِحْى ، والوطب يكون للبن والسمن ، والسقاء يكون للبن والماء.

رثاء الابناء والاخوة

قال رجل يذكر ابنه :

ألاَ يا سُمَيَةُ شُبِّى الوَقُودَا	لعلّ الليالى تُؤدِّى يزِيدا
فنَفْسى فِداؤُكَ من غائب	إذا ما المسارحُ كانت جَليدا
كفانِ الذى كنت أسعى لـه	فصار أبا لِى وصرت الوليدا

قولـه : إذا ما المسارح كانت جليدا ، فالمسارح : الطرق يَسْرحون فيها ، واحدها مِسْرح ، والجليد : يقع من السماء ، وهو ندًى فيه جمود ، فتبيض له الأرض ، وهو دون الثلج ، يقال له الجليد والضَّريب والسَّقيط والصَّقيع .

وقالت أخت طَرَفة بن العَبْد :

عدَدْنا له ستًّا وعشرين حجَّةً	فلما تَوَفاها استوى سَيِّدا ضَخْما
فُجِعْنا به لما رَجَوْنا إيابَه	على خيرِ حال لا وليدا ولا قَحْما

الوليد : الصغير . والقحم : الرجل المتناهى سنا .

وقال إبراهيم بن عبد الله يرثى أخـــاه محمدا :

أبا المُنازلِ ياعُبْرَ الفَـــوارسِ مَنْ … يُفجَعْ بمثلك فى الدنيا فقد فُجعـا
الله يعـلم أنى لـــو خَشيتُمُ … أوآنسَ القلبُ من خوفٍ لهم فزعا
لم يقتلوك ، ولم أُسلِمْ أخى لهـمُ … حتى نعيشَ جميعا أو نموت معـا

قوله : يا عبر الفوارس ، يصفه بالقوة منهم وعليهم ، كما يقال : ناقة عبر الهواجـر وعـبر السُّرَى . وقوله : أو لآنس القلب من خوف لهم فزعا ، يقول : أحـس ، وأصل الإيناس فى العين ، يقال : آنست شخصا ، أى أبصرته من بُعد ، وفى كتاب الله عز وجل : « آنسَ من جانبِ الطُّورِ نارا » .

وقال مُتَمِّم بن نُوَيْرَة :

وقالوا : أتبكى كـــلَّ قبر رأيتَه … لِمَيْتٍ ثَوَى بين اللِّوَى فالدَّكادكِ
فقلتُ لهم إن الأسى يبعث البُكا … ذَرُونى فهذا كلُّه قبرُ مـــالك

قومـــه

قال على بن عبد الله بن العباس رحمه الله :

أبِى العباسُ قـــرْمُ بنى قصَىٍّ … وأخـــوالى المـــلوك بنو وَليعَـةْ
همو منعوا ذِمارى يـــوم جاءت … كتائبُ مُسْرِفٍ وبنـــو اللَّكيعـةْ
أراد بِىَ التى لا عِزَّ فيهـــا … فحالتْ دونهَ أيـــد منيعـــةْ

obeikandl.com

قولــه : كتائب مسرف ، يعنى مُسلم بن عُقْبه المُرِّى صاحبَ الحَرّة ، وأهل الحجــاز يســمونه مســرفا ، وكان أراد أهل المدينة جميعا على أن يبايعوا يزيد بن معاويــة على أن كل واحد منهم عبدٌ قِنٌّ له إلا علىّ بن الحسين . فقال حُصين بن نُمَــير السّكُونىّ من كنْدة : « ولا يبايع ابن أختنا علىّ بن عبد الله إلاّ على ما يبايع عليه علىّ بن الحسين، على أنه ابن عم أمير المؤمنين ، وإلا فالحرب بيننا » .

فأُعفى علىّ بن عبد الله وقبِل منه ما أراد ، فقال هــذا الشعر لذلك . وقوله : بنو اللكيعة ، فهى اللئيمة .

وقال هشام أخو ذى الرمـــة :

تَعَزَّيتُ عن أوْفى بغَيْلانَ بعـــده ... عَزاءً وجَفْنُ العين بالمــاء مُترَعُ
ولم تُنسِنِى أوفى المُصيباتُ بعـــده ... ولكنَّ نَكْءَ القَرْحِ بالقرح أوجع

غيــلان : هو ذو الرمة ، وكان هشام من عقلاء الرجال ، حدثنى العباس ابــن الفــرج فى إسناد ذكــره يعزوه إلى رجل أراد سفرا فقال : قال لى هشام بن عقبة : « إنّ لــكل رُفْقة كلبا يَشرَكُهم فى فَضْلة الزاد وَيهِرُّ دونهَم ، فإنْ قدرتَ ألا تــكون كلب الرفقة فافعل . وإياك وتأخيرَ الصــلاة عن وقتها ، فأنتَ مُصلّيها لامحالةَ فصلها وهى تُقْبَل منك » .

جرير وقيس

حدثنى عمارة قال : مرض جرير مرضة شديدة فعادته قيس ، فقال :

نفسى الفداءُ لقــومٍ زَيَّنوا حَسَبى ... وإنْ مرضتُ فهم أهلى وعُوّادى
لو خفتُ لَيْثــا أبَاشِبْلَيْنِ ذا لبَــد ... ما أسلمونى لليثِ الغابة العــادى
إنْ تَجْرِ طيرٌ بأمرٍ فيــه عافيــةٌ ... أو بالرحيــل فقد أحسنتمُ زادى

قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، وهو يُهاجي عبد الرحمن بن الحكم ابن أبي العاص :

فأما قولُكَ الخلفاءُ منا ... فهم منعوا وَرِيدَكَ من وِداجِ [1]
ولولاهم لكنتَ كحوتِ بحرٍ ... هَوَى فى مظلم الغَمَرات داجِى [2]
وكنتَ أذلَّ مِنْ وَتِدٍ بقاعٍ ... يُشجَّجُ رأسَه بالفِهْر واجِى [3]

فكتب معاوية إلى مروان أن يؤدبهما ، وكانا قد تقاذفا . فضرب عبد الرحمن ابن حسان ثمانين وضرب أخاه عشرين . فقيل لعبد الرحمن بن حسان : « قد أمكنك فى مروان ما تريد ، فأشِدْ بذكره ، وارفعه إلى معاوية » . فقال : « إذن واللهِ لا أفعل ، وقد حَدَّنى كما تُحَدُّ الرجال الأحرار ، وجعل أخاه كنصف عَبد » فأوجعه بهذا القول .

ويروى أن عبد الرحمن بن حسّان لسعه زُنبور فجاء أباه يبكى ، فقال له : « مالك ؟ » فقال : « لسعنى طائر كأنه ملتف فى بُرْدَىْ حِبَرَة [4] » . فقال : « قلتَ والله الشعر » .

---

(1) الوداج : قطع الودج ، ويريد هنا قطع الوريد .
(2) الداجى : المظلم .
(3) الفهر : الحجر . وواجى : أصله واجىء بالهمز ، وهو الضارب الداقّ .
(4) الحبرة : نوع من ثياب اليمن ذو حمرة يضرب إلى السواد .

ويروى أن معلمه عاقب الصبيان على ذنب وأراده بالعقوبة ، فقال له :

اللهُ يعلم أنّى كنتُ مُنتبذا ... فى دار حَسّان أصطاد اليَعاسِيبا [(١)]

وأعْـرَقُ قوم كانوا فى الشعر آلُ حسّان ، فإنهم يَعْتدّون ستة فى نَسَق ، كلهم شـاعر ، وهم سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المُنْذر بن حَرام . وبعد هؤلاء فى الوقت آلُ أبى حَفْصة ، فإنهم أهلُ بيت كلُّهم شاعر ، يتوارثونه كابرا عن كابر .

ويروى أن ابنـة لابن الرِّقاع وقف بباب أبيها قوم يسألون عنه . فقالت : « ما تريدون إليه ؟ » . فقالوا : « جئنا لنهاجيه » . فقالت وهى صبية :

تَجمّعتمُ من كل أوْبٍ ووجهةٍ ... على واحدٍ لا زلتمُ قِرْنَ واحدِ [(٢)]

فهذه بلغت بطبعها على صِغَرها مبلغ الأعشى فى قلب هذا المعنى ، حيث يقول لهوْذَة بن علىّ :

يرى جمعَ ما دون الثلاثين قُصْرَةً ... ويَعْدو على جمع الثلاثين واحدا [(٣)]

---

(١) المنتبذ : المتنحى . واليعاسب : جمع يعسوب ، وهو ذكر النحل .

(٢) أوب : جهة : وقرن : كفء .

(٣) قصـرة : تقصـير .

نصائح

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « علّموا أولادكم العوم والرماية ، ومُرُوهم فَليَثِبوا على الخيل وثبا ، وَروُّوهم ما يَجمُل من الشعر » .

ويروى عن الشعبى أن عبد الله بن العباس قال : قال لى أبى : « يا بنى ، إنى أرى أمير المؤمنين قد اختصَّك دون من ترى من المهاجرين والأنصار. فاحفظ عنى ثلاثا : لا يُجرِّبنَّ عليك كذبا ، ولا تغتب عنده مسلما ، ولا تُفشيَنَّ له سرا » . فقلت له : « يا أبَه ، كل واحدة منها خير من ألف » . فقال : « كل واحدة منها خير من عشرة آلاف » .

وحدثنى العباس بن الفرج قال : نُظِر إلى عمرو بن العاص على بغلة قد شَمط وجهُها هَرَما . فقيل له : « أتركب هذه وأنت على أكرم ناخِرة بمصر ؟ » فقال : « لا ملل عندى لدابتى ما حملت رُجْلتى [1]، ولا لامرأتى ما أحسنت عشرتى ، ولا لصديقى ما حفظ سرى . إن الملل من كواذب الأخلاق » . قوله : على أكرم ناخرة ، يريد الخيل ، يقال للواحد ناخر ، وقيل : ناخرة يراد جماعة ، كما تقول رجل بَغّال وحَمّار والجماعة البغّالة والحَمّارة ، وكذلك تقول : أتتنى عصبة نبيلة ، وقبيلة شريفة ، والواحد نبيل وشريف .

وقال عمرو لعائشة رحمها الله : « لَوددتُ أنك كنتِ قُتلتِ يوم الجمل » فقالت : « ولِم لا أبالك ؟ » فقال : « كنت تموتين بأجلك ، وتدخلين الجنة ، ونجعلك أكبر التشنيع على علىّ » .

وحدثنى العباس بن الفرج الرِّياشى ، قال ابن عباس : دخلت على عمرو بن العاص وقد احتُضِر. فدخل عليه عبد الله بن عمرو فقال له : « يا عبد الله ، خذ

---

(1) الرجلة : السير على الأرجل .

ذلك الصندوق » . فقال : « لا حاجة لى فيه » . قال : « إنه مملوء مالا » . قال : « لا حاجة لى به » . فقال عمرو : « ليته مملوء بعْرا » . فقلت : « يا أبا عبد الله ، إنك كنت تقول : أشتهى أن أرى عاقلا يموت حتى أسأله : كيف يَجِد ؟، فكيف تَجِدُك ؟ » . قال : « أجد السماء كأنها مُطبقة على الأرض وأنا بينهما ، وأرانى كأنما أتنفس من خرْت إبرة » . ثم قال : « اللَّهُمَّ خذ منى حتى ترضَى » . ثم رفع يديه فقال : « اللهم أمرتَ فعَصَيْنا ، ونهيت فركبنا ، فلا برىءٌ فأعتذر ، ولا قوى فأنتصر ، ولكن لا إله إلا الله » (ثلاثا) ثم فاظ . قوله : من خَرت إبرة ، يعنى من ثقب إبرة . وقوله : فاظ ، أى مات ، يقال : فاظ وفاد وفَطَسَ وفاز وفَوَّز ، كل ذلك فى معنى الموت .

زياد بن أبيه والسلطان

حدثنى مسعود بن بشر قال : قال زياد : « الإمْرَةُ تُذهِب الحَفِيظة . وقد كانت من قوم إلىّ هنات ، جعلتها تحتَ قدمى ، ودَبْرَ أُذُنى . فلو بلغنى أن أحدكم قد أخذه السلّ من بغضى ما هتكتُ له سترا ، ولا كشفت له قناعا ، حتى يبدِىَ لى عن صفحته ، فإذا فعل لم أناظره » .

وسمع زياد رجلا يسب الزمان ، فقال : « لو كان يدرى ما الزمان لضربت عنقه ! إن الزمان هو السلطان » .

وفى عهد أرْدَشِير : « وقد قال الأولون منا : عَدْل السلطان أنفع للرعية من خصب الزمان » .

وقال المُهَلَّب بن أبي صُفرة لبنيه : « إذا وليتُم فَلِينوا للمحسن ، واشتدوا على المُريب ، فإن الناس للسلطان أهْيَب منهم للقرآن » .

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : « إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يزَع بالقرآن » . قوله : يزع ، أى يَكُفُّ . وقال الحسن مرة : « ما حاجة هؤلاء السلاطين إلى الشُرُط ؟ » . فلما ولى القضاءَ كثر عليه الناس ، فقال : « لابد للناس من وَزَعة » .

الحجاج

خطب الحَجّاج بن يوسف ذات يوم ، يومَ جمعة . فلما توسط كلامه سمع تكبيرا عاليا من ناحية السوق . فقطع خطبته التى كان فيها ثم قال : « يا أهْلَ العراقِ ، ويا أهل الشّقاق ، ويا أهل النفاق ، وسَيِّئى الأخلاق ، يا بَنِى اللَّكيعة ، وعبيد العصا ، وأولاد الإماء . إنى لأسمع تكبيرا ما يراد الله به إنما يراد به الشيطان، وإن مَثَلى ومَثَلكم قول ابنَ برّاقة الهمدانى :

وكنتُ إذا قوم رَمَونى رميتهم ... فهل أنا فى ذا يالَ هَمدان ظالمُ
متى تجمعِ القلب الذكىَّ وصارما ... وأنفا حَمِيًّا تَجْتَنِبْك المظالم »

ثم نزل فصلى بهم .

قوله : بنو اللكيعة : يريد اللئيمة . وقوله : عبيد العصا ، يريد أنهم لا ينقادون إلا بالإذلال ، كما قال ابنُ مفرغ الحِمْيَرِى :

العبدُ يُقرَعُ بالعصا ... والحُرُّ تَكْفِيهِ الملامهْ

وخطب الناس عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث بالمِرْبَد ، عند ظهور أمر الحجّاج عليه ، فقال : « أيها الناس ، إنه لم يبق من عدوكم إلا كما يبقى من ذَنَب الوَزَغَة ، تضرب به يمينا وشمالا ، فلا تلبث أن تموت » . فسمعه رجل من بنى قُشَير بن كعب ، فقال : « قَبحَ الله هذا ، يأمر أصحابه بقلة الاحتراس من عدوهم ويعِدهم الغرور » .

وروت الرواة أن الحجّاج لما أخذ رأس ابن الأشعث وَجَّه به إلى عبد الملك ابن مروان مع عِرار بن عمرو بن شَأس الأسدىّ ، وكان أسود دميما . فلما ورد به عليه جعل عبد الملك لا يسأل عن شىء من أمر الوقيعة إلا أنبأه به عِرار ، فى أصَحِّ لَفْظ ، وأشْبَع قول ، وأجْزإ اختصار . فشَفاه من الخبر ، وملأ أذنه صوابا ، وعبد الملك لا يعرفه ، وقد اقتحمتْه عينهُ حيث رآه . فقال عبد الملك متمثلا :

أرادتْ عِرارا بالهَوان ومَنْ يُرِد ... لَعمْرِى عِرارا بالهوان فقد ظَلَمْ
وإنّ عرارا إنْ يَكُنْ غيرَ واضح ... فإنى أحِبُّ الجَوْن ذا المَنْكِبِ العَمَمْ

فَقال له عِرار : « أتعرفنى يا أمير المؤمنين ؟ » . قال : « لا » . قال : « فأنا والله عرار » . فزاده فى سروره ، وأضعف له الجائزة .

غـــزل

قال أعرابي :

شكوتُ فقالتْ : كلُّ هذا تَبرُّمــا بُحُبِّيَ ؟ أراح الله قلبَك مــن حبى
فلما كتمتُ الحبَّ قالت : لَشَدَّ ما صَبَرتَ وما هذابفعل شَجِي القلب
وأدنو فتُقْصِينى ، فأَبعُد طالبــــا رضاها فتَعْتَدُّ التباعد مــن ذنبى
فشكواى تؤذيها، وصبرى يَسُوءُها وتجزع من بعْدِى ، وتنفر من قربى
فياقومِ هَلْ من حيلةٍ تعرفونهـــا ؟ أشيروابها،واستوجبواالشكرمن ربى

وقال قيس بن مُعاذ ، أحد بنى عُقَيل بن كعب ، وهو المجنون ؛ وحدثنى عبد الصمد بن المعذل قال : سمعت الأصمعيّ يثبِّته ، ويقول : لم يــكن مجنونا إنما كانت به لُوثَة أبى حَيَّة :

ولم أرَ ليلى بعد موقفِ ساعــــةٍ ببطن منى ترمى جِمــار المحصَّبِ
ويبدى الحصى منها إذا قذفتْ بــه من البُرْدِ أطرافَ البَنان المخضَّب
فأصبحت من ليلى الغداةَ كنــاظرٍ مع الصبح فى أعقاب نجمٍ مغرِّب
ألا إنمــا غادرتِ يا أمَّ مـــــالكٍ صَدى أينما تذهبْ به الريح يَذْهَبِ

هذا البيت من أعجب ما قيل فى النحافة .

ومما يستطرف فى هذا الباب قول عمر بن أبى ربيعة :

رأتْ رجلا أمّا إذا الشمس عارضت فيَضْحَى وأمــا بالعشى فيَخْصَرُ
أخا سفرٍ ، جوابَ أرضٍ، تقاذفتْ به فَلَواتٌ ، فهــو أشعثُ أغبر
قليلا على ظهــر المطيةِ ظلــهُ سوى ما نفى عنه الرداءُ المحَبَّر

وفى هــذا الــباب أشياء كثيرة تأتى فى موضعها إن شاء الله تعالى ومن الإفراط فيه قوله :

فلــو أنّ مــا أبقيتِ منى مُعَلَّقٌ بعُود ثُمامٍ ما تأوَّد عودُهــا

وهذا متجاوز كقول القائل : « ويمنعها من أن تطير زمامها » .

وأحســن الشــعر مــا قارب فيه القائل إذا شبَّه . وأحسن منه ما أصاب به الحقيقــة ونــبَّه بفطنــته على ما يخفى عن غيره ، وساقه برَصْفٍ قوى ، واختصار قريب.

وقال قيس بن معــاذ :

وأخرج من بين الجُلوس لعلّنى أحدِّث عنكِ النفسَ فى السِّرِّ خاليا

وإنى لأستَغْشِى وما بِىَ نَعْسة لعلَّ خيالا منك يلقى خياليــا

وفى هذا الشعر :

أشَوقا ولـمـا تَمْضِ لى غيرُ ليلةٍ رُوَيْدَ الهوى حتى يَغِبَّ لياليــا

هذا من أجود الــكلام وأوضحه معنى .

ويُستحسن لذى الرمّة قوله فى مثل هذا المعنى :

أحبُّ المكان القفر من أجل أننى بــه أتغنى باسمها غيرَ مُعْجم

أنشدنى ابن عائشة لبعض القرشيين :

وقفوا ثلاثَ مِنًى بمنزل غبطــة وهمُ على غَرَضٍ هنالك ماهــمُ

متجاورين بغير دار إقامــة لو قد أجَدَّ تَفَرُّقٌ لم يندمــوا

ولهُنَّ بالبيت العتيــق لُبانــةٌ و الركنُ يعرفهنّ لو يتكلّــمُ

لو كان حيًّــا قبلَهنّ ظعائنــا حيَّا الحطيمُ وجوهَهنّ وزمــزمُ

وكأنه وقد صَدَرْنَ لَواغِبــا بَيْض بأفنية المقام مُركَّــمُ

اللاغب : المعيى ، قال الله عز وجل : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ . والمركَّم : الذى بعضه على بعض ، والمرأة تشبه ببيضة النعامة كما تشبه بالدُّرة .

وروى بعض الرواة أن أبادَهْبَل الجُمَحِيَّ كان تقيا وكان جميلا . فقفل من الغزو ذات مرة ، فمر بدمشق . فدعته امرأة إلى أن يقرأ لها كتابا ، وقالت : « إن صاحبته فى هذا القصر، وهى تحب أن تسمع ما فيه ! » . فلما دخلت به ، برزت له امرأة جميلة ، وقالت له : « إنما احتلت لك بالكتاب حتى أدخلتك ! » . فقال لها : « أما الحرام فلا سبيل إليه !.» قالت : « فلستَ تُراد حراما ». فتزوجته .

وأقام عندها دهرا ، حتى نُعِى بالمدينة . ففى ذلك يقول ، وقد استأذنها ليُلِمَّ بأهله ثم يعود ، فجاء وقد اقتُسم ميراثه . فلما همَّ بالعود إليها ، نُعيت له . فهذا ما روى من هذا الوجه . والذى كأنه إجماع الناس أنه لعبد الرحمن بن حسان ، وهو فى بنت معاوية :

صاحِ حيّا الإلهُ أهلا ودارا ... عند أصلِ القَناة من جَيْرونِ
عن يسارى إذا دخلت من البا ... ب وإنْ كنت خارجا فيَمينى
فبِتلك ارتَهَنْتُ بالشأم حتى ... ظَن أهلى مُرجَّماتِ الظنون
وهى زهراء مثل لؤلؤة الغَـ ... ـوّاصِ ميزَتْ من جَوْهر مكنون
وإذا ما نسبتُها لم تجِدها ... فى سَناءٍ من المكارم دُون
ثم خاصرتُها إلى القبة الخضْـ ... ـراء تمشى فى مَرمرٍ مَسْنون
تجعلُ المسك واليَلَنْجُوجَ والنَّدْ ... دَ صِلاءً لها على الكانون
قبةٌ من مَراجلٍ ضربتْها ... عند برد الشتاء فى قَيْطون

المسنون : المصبوب على استواء . والمراجل : ثياب من ثياب اليمن . والقيطون : البيت فى جوف بيت . ويروى أن يزيد بن معاوية قال لمعاوية : « أما سمعت قول عبد الرحمن بن حسان فى ابنتك ؟ » . قال : « وما الذى قال ؟ » قال: قال :

وهى زهراء مثل لؤلؤة الغـ ـواص ميزت من جوهر مكنون

قال معاوية : « صدق » فقال يزيد : وقال :

وإذا ما نسبتها لم تجدها فى سناء من المكارم دون

قال معاوية : « صدق » فقال يزيد : إنه قال :

ثم خاصرتها إلى القبة الخضـ ـراء تمشى فى مَرْمَرَ مسنون

قال معاوية : « كذب » .

الأرحام

أنشِدت لرجل من بنى ضَبَّة بن أُدّ يقوله لبنى تميم بن مُرّ بن أُدّ :

أبنِى تميمٍ إننى أنا عَمُّكم لا تُحْرَمُنّ نصيحة الأعمامِ
إنى أرى سبب الفناء وإنما سببُ الفناء قطيعةُ الأرحام
فتداركوا بأبى وأمى أنتمُ أرحامَكم برَواجح الأحلام

ويروى أنه لما أتى عبدَ الله بن الزبير خبرُ قتل مُصْعَب بن الزبير ، خطب الناس . فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « أتانا خبر قتل المُصْعَب ، فسُرِرْنا به ، واكتأبنا له . فأما السرور فلما قُدِّر له من الشهادة ، وحيز له من الثواب .

وأمـــا الكـــآبة فلوعةٌ يجدها الحَميم عند فراق حَميمه . وإنّا والله ما نموت حَبَجـــا كميتة آل أبي العاص ، إنما نموت والله قتلا بالرماح ، وقَعْصا تحت ظلال السيوف. فإن يهلك المصعب فإن فى آل الزبير منه خَلَفا » . قوله : حبجا : يقال حَبِج بطنُه ، إذا انتفخ ، وكذلك حَبِط بطنه . والمُقْعَص : المقتول . واللوعة : الحرقة يقال : لاع يلاع لوعة ، فهو لائع ، ويقال لاعٍ ، على القلب .

أقوال لزياد

حدثـــنى مسعود بن بشر قال : قال زياد لحاجبه : « يا عجلانُ إنى وليتك هذا الباب ، وعزلتك عن أربعة : عزلتك عن هذا المنادى إذا دعا للصـــلاة ، فلا سبيل لـــك عـــليه ؛ وعـــن طارق الليـــل ، فشَرٌّ ما جاء به ، ولو جاء بخير ما كنتُ من حاجـــته ؛ وعن رسول صاحب الثَّغْر ، فإن إبطاء ساعة يُفسد تدبـــير سنة ؛ وعن هذا الطباخ إذا فرغ من طعامه ! » .

توقيعات

كُـــتِب إلى جعفـــر بن يحيى : « إن صاحب الطريق قد اشتطّ فيما يطلب من الأموال » . فوقّع جعفر : « هذا رجل منقطع عن السلطان ، وبين ذُؤبان العرب ، بحيـــث العـــدد والعُدّة ، والقلوب القاسية ، والأنوف الحَمِيّة ، فَلْيُمدَد من المال بما يَستصـــلح بـــه مَـــنْ معه ، ليدفع به عدوّه ، فإن نفقات الحروب يُستظهَر لها ولا يستظهر عليها » .

وأكثر الناسُ شكيةَ عاملٍ ، فوقّع إليه فى قصتّهم : « يا هذا ، قد كثر شاكوك، وقلّ حامدوك . فإمّا عدلتَ وإما اعتزلت ! » .

وزعم الجاحظ قال : قال ثُمامة بن أشْرَس النُّمَيْرِى : « ما رأيت رجلا أبلغ من جعفر بن يحيى والمأمون » .

وقال مُوَيس بن عمران : « ما رأيت رجلا أبلغ من يحيى بن خالد وأيوب بن جعفر » .

وقال جعفر بن يحيى لكتّابه : « إن قدرتم أن تكون كتبكم كلها توقيعات فافعلوا » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » . يقول : لو علم بعضكم سريرة بعض لاستثقل تشييعه ودَفْنه .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اجتنبوا القعود على الطرقات إلا أن تَضْمنوا أربعا : ردّ السلام ، وغض الأبصار ، وإرشاد الضال ، وعَوْن الضعيف » .

وقالت هنْد بنت عُتْبة : « إنما النساء أغلال ، فَلْيَخْتَر الرجل غلا ليده » .

وذكرت هند بنت المهلب بن أبي صفرة النساء ، فقالت : « مازُيِّنَّ بشيء كادب بارع تحته لُبٌّ ظاهر » .

وقالت هند بنت المهلب بن أبي صفرة ، أيضا : « إذا رأيتم النّعَم مُسْتَدِرّة فبادروا بالشكر قبل حلول الزّوال » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « افْصِلوا بين حديثكم بالاستغفار » .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : « قَيدوا النعم بالشكر ، وقيدوا العلم بالكتاب » .

وقال عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه : « العجب لمن يهلك والنجاة معه ! » . فقيل : « ما هي يا أمير المؤمنين ؟ » . قال : « الاستغفار » .

وفادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى فداءه من أسرى بدر فمن لم يكن له فداء أمره أن يعلم عشرة من المسلمين الكتابة . ففشت الكتابة بالمدينة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال أمتي صالحا أمرها مالم تر الفيء مغنما ، والصدقة مغرما » .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « يأتي على الناس زمان لا يُقرَّب فيه إلا الماحل ، ولا يُظرَّف فيه إلا الفاجر ، ولا يُضعَّف فيه إلا المنصف ، يتخذون الفيء مغنما ، والصدقة مغرما ، وصلة الرحم منًّا ، والعبادة استطالة على الناس. فعند ذلك يكون سلطان النساء ومشاورة الإماء وإمارة الصبيان » .

ويقال : كان الحجاج إذا استغرب ضَحِكا والى بين الاستغفار ، وكان إذا صعد المنبر تَلَفَّع بمطرفه ، ثم يتكلم رُوَيدا فلا يكاد يُسْمَع ثم يتزيد في الكلام حتى يُخْرج يده من مطرفه ، ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من في المسجد . وكان

يُطعـــم فى كل يوم على ألف مائدة ، على كل مائدة ثَريد وجَنْب من شواء وسمكة طرية . ويُطاف به فى محَفّة على تلك الموائد ليتفقد أمور الناس . وعلى كل مائدة عشرة، ثم يقول : « يا أهل الشام ، اكسروا الخبز لئلا يُعاد عليكم » . وكان لـــه ساقيان أحدهما يسقى الماء والعسل ، والآخر يسقى اللبن .

ويروى أن ليلى الأخيلية قدمت عليه فأنشدته :

إذا ورد الحجّاجُ أرضا مريضـــــةً ... تتبع أقصى دائهــــا فشَفــاهــا
شفاها من الداءِ العُقام الذى بهـــا ... غلامٌ إذا هزَّ القنــــاة ثناهــا

فقـــال لها : « لا تقولى : غلام ، قولى همام » . ثم قال لها : « أىّ نسائى أحبّ إليك أن أنزلك عندها الليلة ؟ » . قالت : « ومن نساؤك أيها الأمير ؟ » . قال : « أمّ الجلاس بنت سعيد بن العاص الأموية، وهند بنت أسماء بن خارجة الفزاريّـــة، وهـــند بنت المهلّب بن أبى صفرة العَتَـــكية ». فقالت : « القيسّية أحب إلىّ » . فلما كان الغد دخلت عليه فقال : « يا غلام أعطها خمسمئة » . فقـــــــالت : « أيها الأمير اجعلها أُدْما » . فقال قائل : « إنما أمر لك بشاء » . قالت : « الأمير أكـــرم مـــن ذلك » . فجعلها إبلا إناثـــا استحياء . وإنما كان أمر لها بشاء أولا . والأُدْم : البيض من الإبل ، وهى أكرمها .

الجـــود

قال المُفضَّل بن المهُلّب بن أبي صُفْرة :

هل الجــود إلا أن نجــود بأنفس ... على كل ماضِي الشَّفْرَتَيْنِ قَضيبِ
وما خيرُ عيشٍ بعدَ قتـــلِ محمدٍ ... وبعد يزيدَ و الحـَــرونِ حبيبِ
ومَنْ هَرَّ أطرافَ القَنا خَشْيَةَ الرَّدَى ... فليس لمجدٍ صـــالح بكَسُوب
وما هي إلا رَقْدةٌ تُورث العُـــلَى ... لرَهْطِكَ ما حَنَّت رَوائـــم نِيب

قوله : ومن هرّ أطراف القنا خشية الردى ، يقول : من كره . قال عنترة ابن شـــداد :

حلفتُ لهم والخيلُ تَرْدِى بنا معـا ... نُفارقُهم حتى يَهِرُّوا العَواليـــا
عَوالِىَ زُرْقا من رمـــاح رُدَيْنَـةٍ ... هريرَ الـكلابِ يَتَّقين الأفاعيـا

وقوله : الحرون ، فإن حبيب بن المهلب كان ربما انهزم عنه أصحابه فلا يَريم مكانه ، فكان يلقّب الحَرُون . والنيب : جمع ناب ، وهى المُسنة من الإبل .

عجوزان

نظر شيخ من الأعراب إلى امرأته تتصنع وهى عجوز ، فقال :

عجوزٌ تُرجِّى أن تـكون فَتيَّـةً وقد لُحِب الجنبـان واحْدوْدَبَ الظهر
تَدُسّ إلى العطّار سلعةَ بيتِهـا وهل يُصلح العطار ما أفسد الدهـر

فقالت له امرأته :

ألم تر أن النّاب تُحلَب عُلْبَـة ويُتْرَكُ ثِلْبٌ لا ضِـرابٌ ولا ظَهْر

ثم استعانت بالنساء ، وطَلَب الرجال ، فإذا هم خلوف . فاجتمع النساء عليه فضربنه . قوله : قد لحب الجنبان ، يقول : قلّ لحمهما . وقوله : تدسّ إلى العطـار سلعة بيتها ، يريد السَّويق والدقيق وما أشبـه ذلك ، وكل عَرَض فالعرب تقول له سِـلْعة . وقولها : ألم تر أن الناب تحلب علبة ، تقول : فيها منفعـة على حال ، والعلـبة : إنـاء لهـم مـن جلود يحلبون فيه . ومن أمثال العرب : « قد تُحْلَب الضَّجُور العلـبة » . يضربون ذلك للرجل البخيل الذى لا يزال يُنال منـه الشـىء القـليل . والضـجور : الناقة السيئة الخلق ، إنما تحلب حين تطلع عليها الشمس فتطيب نفسها . والثلب : الذى قد انتهى فى السن من الإبل .

الرزق المقدور

قال ضابِىء بن الحارث البُرْجُمِيّ :

ومَنْ يَكُ أمسى بالمدينةِ رَحْلُه فإني وَقَيَّارا بها لغَريبُ
وما عاجلاتُ الطير تُدنِ من الفتى نجاحا ولا عن رَيْثِهِنّ يَخيب
ورُبَّ أمورٍ لا تَضيرُكَ ضَيْرَةً وللقلبِ من مَخْشاتِهنّ وَجيب
ولا خيرَ فيمن لا يوطِّنُ نفسَه على نائباتِ الدهر حين تنوب

قوله : وما عاجلات الطير تدنِ من الفتى نجاحا ، يقول : إذا لم تعجل له طير سانحة فليس ذلك بمبعد خيرا عنه ، ولا إذا أبطأت خاب ، فعاجلها لا يأتيه بخير وآجلها لا يدفعه عنه ، إنما له ما قُدِّر له . والعرب تَزجُر على السانح وتتبرّك به ، وتكره البارح وتتشاءم به . والسانح : ما أراك مياسره فأمكن الصائد ، والبارح ما أراك ميامنه فلم يمكن الصائد إلا أن ينحرف له .

علي ومعاوية

وَجَّه علىّ بن أبي طالب رضى الله عنه جرير بن عبد الله البَجَلِيّ إلى معاوية رحمه الله ، يأخذه بالبيعة له . فقال له : « إن حولى من ترى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار ، ولكنىّ اخترتُك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيك : خير ذى يَمَنٍ . ائت معاوية فخذه بالبيعة » . فقال

جريــر : « والله يــا أمير المؤمنين ما أدَّخِرك من نُصْرتى شيئــا وما أطمع لك فى معاوية » . فقال علىّ رضى الله عنه : « إنما قصدى حُجّة أقيمها عليه » . فلما أتاه جرير دافَعَه معاوية ، فقال له جرير : « إنّ المنافق لا يُصلّى حتى لا يجد من الصلاة بــدّا . ولا أحسبك تبايع حتى لا تجد من البيعة بدّا » . فقال لــه معاوية : « إنها ليســت بخَدْعَة الصبىّ عن اللبن ، [1] إنه أمر له ما بعده ، فأبلِعنى رِيقى » . فناظر عَمْرا فطالت المناظرة بينهما ، وألح عليه جرير . فقال له معاوية : « ألقاك بالفصل فى أوّل مجــلس إن شاء الله تعالى » . ثم كتب لعمرو بمصر طُعمَة [2] وكتب عليه : « ولا يَــنْقُض شرط طاعة » . فقال عمرو : « يا غلام ، اكتب : ولاتَنْقُض طاعة شرطا » . فلما اجتمع له أمره رفع عقيرته [3] بنشد لِيُسْمِع جريرا :

تَطاوَلَ لَيْلِى واعترْتنى وســاوسى ... لآتٍ أتى بالترَّهات البَسابِسِ [4]
أتانِى جريرٌ والحوادثُ جَمَّـــة ... بتلك التى فيها اجْتِداعُ المَعاطس
أُكابدُه والسيفُ بينى وبينـــه ... ولستُ لأثوابِ الدَّنِىِّ بلابــس
إِنِ الشأم أعطتْ طاعة يَمَنِيّـــة ... تواصفَهَا أشياخها فى المجالـــس
فإنْ يفعلوا أصْدم عليــا بجبهـــة ... تَفتُّ عليه كلَّ رطبٍ ويابـــس
وإنى لأرجــو خيرَ ما نــالَ نـائلٌ ... وما أنا من مُلْكِ العراق بيائــس

وكتب إلى على رضى الله عنه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، مـــن معاوية بن صَخْر إلى عـــلى بن أبى طالب ، أما بعد ، فلعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك ، وأنت

(1) أى إعطاء الصبى شيئا يتلهى به عن اللبن .

(2) يريد أنه ولاه مصر بحيث يــكون خراجها له .

(3) العقيرة : الصـــوت .

(4) الترهات البسابس : الأباطيـــل .

بـــرىء مـــن دم عثمان ، كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، ولكنك أغريتَ بعثمان المهاجرين وخَذّلت عنه الأنصار . فأطاعك الجاهل ، وقَوى بــك الضـــعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين . ولعمرى ما حُجَّتك علىّ كحجتك على طلحة والــزبير، لأنهمـــا بايعاك ولم أبايعك . وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة ، أطاعوك ولم يطعك أهل الشام . وأما شرفك فى الإسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعك من قريش ، فلست أدفعه » .

ثم كتب إليه فى آخر الكتاب بشعر كعب بن جُعَيل ، وهو :

أرَى الشام تــكره مُلْكَ العـــراق ... وأهـــلَ العراق لهم كارهينـــــا
وكُلا لصاحبـــه مبُغضـــــا ... يرى كُلّ ما كان من ذاك دينـــا
إذا مارَمَوْنـــا رمينـــــاهمُ ... ودِ نّاهمُ مثلَ ما يُقْـــرضُونـــا
فقالوا : علىٌّ إمـــام لنـــــــا ... فقلنا : رضينا ابنَ هند رضينـــا
وقالوا : نرى أنْ تَدينوا لـــــــه ... فقلنا : ألاَ لا نرى أن ندينـــا
ومن دون ذلك خَرْطُ القَتـــاد ... وضربٌ وطعنٌ يُقِرُّ العيونـــــــا

وأحســـن الروايـــتين : يَفُضّ الشئونا . وفى آخر هذا الشعر ذمّ لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أمسكنا عن ذكره . وقوله : ودناهم مثل ما يقرضونا ، يقول جزيناهم . وقال المفسرون فى قوله عز وجل : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ،. قالوا : يوم الجزاء والحساب . ومن أمثال العرب : (كما تَدين تُدان) . وقوله : أن تدينوا له، أى أن تطيعـــوه وتدخـــلوا فى دينه أى فى طاعته . وقوله : ومن دون ذلك خرط القتاد، فهذا مثل من أمثال العرب . والقتاد : شجيرة شاكة غليظة أصولِ الشوك ،

Obeikandi.com

فلذلك يضرب خرطه مثلا فى الأمر الشديد ، لأنه غاية الجهد . ومن قال : يفض الشئونا ، فيفض يفرق ، والشئون : واحدها شأن وهى مجارى الدموع .

فكتب إليه أمير المؤمنين علىّ بن أبي طالب رضى الله عنه جواب هذه الرسالة :
« بسم الله الرحمن الرحيم : مـــن على بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر ، أما بعد، فإنـــه أتانى منك كتاب امرئ ليس لـــه بصر يهديه ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابـــه ، وقـــاده فاتبعه . زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتى خطيئتى فى عثمان . ولعَمْـــرِ ى ما كنتُ إلا رجلا من المهاجرين ، أوردتُ كما أوردوا وأصدرت كما أصـــدروا ؛ وما كان الله ليجمعهم على ضلال ، ولا ليضربهم بالعمى . وبعدُ فما أنـــت وعثمانُ ؟ إنما أنت رجل من بنى أمية ، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه . فإن زعمت أنك أقوى على ذلك فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوم إلىّ. وأمـــا تمييزك بينك وبين طلحة والزبير ، وأهل الشام وأهل البصرة ، فلعمرى ما الأمـــر فيما هناك إلا سواء ، لأنها بيعة شاملة لا يُستَثْنى فيها الخِيار ، ولا يستأنف فيهـــا الـــنظر . وأما شرفى فى الإسلام وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعى من قريش ، فلعمرى لو استطعت دفعه لدفعته » .

ثم دعا النَّجاشِىّ أحد بنى الحارث بن كعب ، فقال له : « إن ابن جُعَيل شاعر أهـــل الشام ، وأنت شاعر أهل العراق فأجب الرجل » . فقال : « يا أمير المؤمنين أسْمِعنى قوله » . قال : « إذا أسمعك شعر شاعر » . فقال النجاشى يجيبه :

دَعَـــا يا معـــــاوىَ مالن يـــكونا	فقـــد حقّق الله ما تحـــــــذرونـــا
أتاكم علىٌّ بأهل العـــــــــراق	وأهل الحجـــاز فما تصنعونا ؟

وبعد هذا ما نمسك عنـــه .

obeikandi.com

خالد بن يزيد
وعبد الملك بن مروان

يـروى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالدا فقال : « يا أخى ، لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك ! » . فقال له خالد : « بئس والله ماهممتَ به فى ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ! » . فقال : « إن خيلى مرت به فعبث بها وأصغرنى » فقال له خالد : « أنا أكفيك » . فدخل خالد على عبد الملك، والوليد عنده . فقال : « يا أمير المؤمنين ، الوليد ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد، فعبث بها وأصغره ! » . وعبد الملك مطرق . فرفع رأسه ، فقال : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فقال خالد : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾. فقال عبد الملك : « أفى عبد الله تكلمنى ؟ والله لقد دخل علىّ فما أقام لسانه لحنا » . فقال له خالد : « أفعَلَى الوليد تعوِّل ؟ » . فقال عبد الملك : « إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان » . فقال خالد : « وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد». فقال له الوليد: « اسكتْ يا خالد ، فوالله ما تُعَدُّ فى العير ولا فى النَّفير » . فقال خالد : « اسمعْ يا أمير المؤمنين » . ثم أقبل عليه ، وقال : « وَيْحَك ! فَمَن العير والنفير غيرى ؟ جدى أبو سفيان صاحب العير ، وجدى عُتْبة بن ربيعة صاحب النفير . ولكن لو قلتَ : غُنَيْمات وحُبَيْلات ، والطائف ، ورحم الله عثمان ، لقلنا : صدقت ! » .

أما قوله : فى العير ، فهى عير قريش التى أقبل بها أبو سفيان من الشام ، فنهد إليهـا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وندب إليها المسلمين ، وقال : « لعلّ الله يُنَفِّـلُـكُموها » ، فـكانت وقعة بَدر . وأما النفير ، فَمَنَ نَفَر من قريش ليدفع عـن العير ، فجاءوا فكانت وقعة بدر ، وكان شيخ القوم عتبة بن ربيعة بـن عـبد شمس ، وهو جد خالد من قبل جدته هند أم معاوية بنت عتبة . ثم اتسع هذا المثل حتى صار يقال لمن لا يصلح لخير ولا شر ، ولا يُحفَل به : « لا فى العير ولا فى النفير » . وقوله : غنيمات وحبيلات ، يعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لـما أطـرد الحكم بن أبى العاص بن أمية ، وهو جد عبد الملك بن مروان ، لجأ إلى الطائف . فكان يرعى غنيمات ، ويأوى إلى حُبيَلة وهى الكرْمة . وقوله : رحم الله عثمان ، أى لرده إياه . وقولنا : أطرده أى جعله طريدا .

العصبية

قال رجل من بنى أسد بن خُزَيمة يمدح يحيى بن حَبان :

ألا جعل الله اليمَانين كُلَّهـم — فدى لفتى الفتيان يحيى بن حَيان
ولولا عُرَيْقٌ فىّ من عصبيـة — لقلت وألفا من مَعَدٍّ بْنِ عَدْنان
ولـكن نفسى لم تَطِب بعشيرتى — وطابت له نفسى بأبناء قحطان

وهذا من التعصب المفرط .

وحدثـنى شـيخ من الأزد ثقة عن رجل منهم أنه كان يطوف بالبيت ، وهو يدعو لأبيه . فقيل له : « ألا تدعو لأمك ! » . فقال : « إنها تميمية » .

وسُمع رجل يطوف بالبيت وهو يدعو لأمه ولا يذكر أباه . فعوتب فقال : « هذه ضعيفة ، وأبى رجل يحتال لنفسه » .

وحدثنى المازنى عمن حدثه قال : رأيت رجلا يطوف بالبيت ، وأمه على عنقه، وهو يقول :

أَحمِل أمى وهى الحَمّالَهْ
تُرضعنى الدِّرَّةَ والعُلالَهْ
ولا يُجازَى والدٌ فعالَهْ

قوله : الدرة ، فهو اسم ما يدر من ثدييها ، ابتداء كان ذلك أو غير ذلك . والعلالة : لا تكون إلا بعد ، يقال عَلَّة يَعُله عَلا ، والاسم العلالة .

بعد العسر يسر

قال الآخر:

إذا ضَيَّقْتَ أمرا ضاق جدا ... وإنْ هَوَّنْتَ ما قد عَزَّ هانا
فلا تَهلك لشىء فاتَ يأسا ... فكم أمرٍ تَصعَّب ثم لانا
سأصبر من رفيقى إنْ جفانى ... على كل الأذى إلا الهوانا
فإن المرءَ يجزَع فى خلاءٍ ... وإنْ حضرَ الجماعةُ أنْ يُهانا

ذكر العتبىّ أن الحجاج بن يوسف بن الحَكَم الثَّقفى لما أكره عبد الله بن جعفر على أنْ زَوَّجه ابنته ، استأجَلَه فى نقلها سنة . ففكر عبد الله بن جعفر فى

الانفكـــاك مـــنه، فأُلْقِى فى رُوعِه خالد بن يزيد . فكتب إليه يُعْلمه ذلك ، وكان الحجـــاج تـــزوّجها بلا إذن عبد الملك . فورد على خالد كتابه ليلا ، فاستأذن من ســـاعته عـــلى عبد الملك . فقيل له : « أفى هذا الوقت ؟ » . فقال : « إنه أمر لا يؤُخَّر ». فأُعلم عبد الملك بذلك ، فأذن له . فلما دخل عليه ، قال له عبد الملك : « فيم السُّرَى يا أبا هاشم ؟ » . قال : « أمر جليل لم آمَن أنْ أؤخره فتحدث علىّ حادثـــة فلا أكون قضيت حق بيعتك » . قال : « وما هو ؟ » . قال : « أتعلم أنه ما كان بين حيَّين من العداوة والبغضاء ما كان بين آل الزبير وآل أبى سفيان ؟ » . قـــال : « لا » قال : « فإن تزويجى إلى آل الزبير حَلَّل ما كان لهم فى قلبى ، فما أهـــل بيـــت أحبّ إلىّ منهم » . قال : « فإن ذلك لَيـــكون » . قال : « فكيف أذِنـــت لـــلحجاج أن يتزوج فى بنى هاشم ، وأنت تعلم ما يقولون ويقال فيهم ، والحجّاج من سلطانك بحيث علمت ؟ » . فجَزَّاه خيرا . وكتب إلى الحجّاج بعَزْمة أن يطلقها فطلقها . فغدا الناس عليه يعزّونه عنها ، فكان فيمن أتاه عمرو بن عُتبة ابـــن أبى سفيان . فأوقع الحجّاج بخالد ، فقال : « كان الأمر لآبائه فعجز عنه حتى انتُزِع منه » . فقال له عمرو بن عُتبة : « لا تقل ذا أيها الأمير ، فإنّ لخالد قديما سَـــبَق إليه ، وحديثا لم يُغْلَب عليه ، ولو طَلَب الأمر لطلبه بجَدّ وجِدّ ، ولكنه عَلمِ عِـــلْما فسَلَّم العِـــلْم إلى أهله » . فقال الحجاج : « يا آل أبى سفيان ، أنتم تحبون أن تَحْـــلُموا ، ولا يكون الحلم إلا عن غضب ، فنحن نُغْضِبكم فى العاجل ، ابتغاء مرضاتكم فى الآجل » . ثم قال الحجَّاج : « والله لأتزوَّجنَّ من هو أمسُّ به رحما ، ثم لا يمكنه فيه شىء » . فتزوج أم الجُلاس بنت عبد الله بن خالد بن أسيد .

مواعـــظ

قال رجل لإبراهيم بن أدهم : « عِظْنى » . فقال : « اتَّخِذ الله صاحبا ، وذر الناس جانبا » .

وقال سعيد بن المُسَيَّب: كنت بين القبر والمنبر مفــكرا ، فسمعت قائلا يقول ولم أره : « الـــلهم ، إني أسألك عملا بارا ، ورزقا دارًّا ، وعيشا قارًّا » . فلزمتُهن فلم أر إلا خيرا .

وقـــال الأصـــمعى : كان من دعاء أبي المُجيب : « اللهم اجعل خير عملى ما قـــارب أجلى » . وكان يقول فى دعائه : « اللهم لا تَكِلنا إلى أنفسنا فنعجِز ، ولا إلى الناس فنُضيَّع » .

وقـــال أبو زيد : وقف علينا أعرابي فى حلقة يونس النحوى ، فقال : « الحمد لله كمـــا هـــو أهـــلُه ، وأعوذ بالله أن أذكِّر به وأنساه . خرجنا من المدينة ، مدينة رســـول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثين رجلا ، ممن أخرجتْه الحاجة ، وحُمِل على المكـــروه ، لايُمرِّضـــون مريضهم ، ولا يدفنون ميتهم ، ولا ينتقلون من منزل إلى منزل وإن كرهوه . والله ياقوم لقد جعت حتى أكلت النوى المحرَق ، ولقد مَشَيت حـــتى انتعلتُ الدم ، وحتى خرج من قدمى بَخَص ولحم كثير . أفَلا رجلٌ يرحم ابـــن ســـبيل ، وفَلَّ طريق ، ونِضْوَ سفر ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن ثـــواب الله عز وجل ، ولا عمل بعد الموت . وهو الذى يقول جل شأنه: « من ذا الـــذى يقرض الله قرضـــا حسنا فيضاعفه له » ، مَلِىٌّ وَفِىٌّ ،ماجد واجد ،جواد، لا يستقرض من عوز ولكنه يَبْلو الأخبار ». فبلغنى أنه لم يبرح حتى أخذ ستين دينارا .

قوله : يخص ، يريد اللحم الذى يركب القدم ؛ هذا قول الأصمعى . وقال غيره : هو لحم يخلطه بياض من فساد يحل بـــه .

وفى حديث الحجـــاج بـــن علاط السلمى ، وكان قد أسلم ولم تعلم قريش بإســـلامه ، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر فى أن يصير إلى مكة فيأخذ ما كان لـــه من مال ، وكانت لـــه هناك أموال متفرقة ، وهو رجل غريب بينهم، إنما هو أحد بنى سليم بن منصور ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يارسول الله ، إنى أحتاج أن أقول » . قال : « فَقُلْ » .

وهـــذا كلام حسن ومعنى حسن ، يقول : أقول على جهة الاحتيال غير الحق فـــأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه من باب الحيلة ، وليس هو من باب الفســـاد . وأكثر ما يقال فى هذا المعنى تَقَوَّل ، كما قال الله عز وجل : « يَقُولون تَقَوَّله » .

فصار إلى مكة فقالت قريش : « هذا لَعَمْر الله عنده الخبر » . فقالوا : « بلغنا أن القاطع قد خرج إلى أهل خيبر » . فقال الحجاج : « نعم فقتلوا أصحابه قتلا لم يُسْـــمَع بمثله وأخذوه أسيرا ، وقالوا : أن نـــكارم به قريشـــا فندفعه إليهم ، فلا تـــزال لنا هذه اليد فى رقابهم . وإنما بادرت لجمع مالى لعلى أصيب به من فَلّ محمد وأصحـــابه قبل أن يسبقنى إليه التجار ويتصل بهم الحديث. فاجتهدوا فى أن جمعوا إلىّ مـــالى أسرع جمع ، وسروا أكثر السرور . وأتانى العباس وهو كالمرأة الوالة . فقـــال : « ويحك يا حجاج ما تقول ؟ » . فقلت : « أ كاتِمٌ أنت علىّ خبرى ؟ » . فقـــال : « إى والله » . فقـــلت : « فَالْبَثْ علىّ شيئـــا حتى يخف موضعى » . فسرتُ إليه فقلت : « الخبر والله على خلاف ما قلتُ لهم : خلّفت رسول الله صلى

obeikandi.com

الله عـــليه وسلم وقد فتح خيبر . وخلفته والله مُعْرِسا بابنة ملكهم . وما جئتك إلا مُسْــلِما ، فَـاَطْوِ الخبر ثلاثا حتى أُعْجِز القوم ، ثم أَشِعْه فإنه والله الحق » . فقال العــباس : « ويْحك ، أَحَقٌّ ما تقول ؟ ». قلت: « إىْ والله » فلما كان بعد ثلاثة تخــلَّق العــباس ، وأخــذ عصاه ، وخرج يطوف بالبيت ، فقالت قريش : « يا أبا الفضـــل ، هــذا والله التجُّلد لحَرِّ المصيبة » . فقال : « كلاّ ومن حلفتم به ، لقد فتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرس بابنة ملكهم » . فقالوا : « من أتاك بهذا الحديث ؟ » . فقال : « الذى أتاكم بخلافه ، ولقد جاءنا مُسْلِمــا » . ثم أتت الأخبار من النواحى بذلك . فقالوا : « أفلتَنا الخبيث ، أوْلَى له » .

الأعــراب

قــال عــبد المــلك بن عُمَير : استعمل عُتْبة بن أبى سفيان رجلا من آله على الطائف ، فظلم رجلا من أزد شَنُوءة . فأتى الأزدىّ عتبة ، فمَثلَ بين يديه ، فقال :

أمرتَ من كان مظلوما ليأتيَــكمْ   فقد أتاكم غريبُ الدارِ مظلوم

ثم ذكــر ظُلامته . فقال له عتبة : « إنى أراك أعرابيا جافيا ، والله ما أحسبك تدرى كم تصلى فى كل يوم وليلة » . فقال : « أرأيتَ إن أنبأتك ذلك ، أتجعل لى عليك مسألة » . قال : « نعم » . قال الأعرابى :

إن الصــلاةَ أربعٌ وأربعُ
ثم ثلاثٌ بعــدهن أربع
ثم صلاة الفجر لا تُضيَّع

فقال : « صدقت فاسأل » . فقال : « كم فقَار ظهرك ؟ » . فقـــال : « لا أدرى » . فقـــال : « أفَــتَحْــكُم بين الناس وأنت تجهل هذا من نفسك؟ » . قال : « رُدُّوا عليه غُنَيْمته » .

وشـــهد أعرابى عند معاوية بشىء كرهه ، فقال له معاوية « كذبتَ » . فقال الأعرابى : « الكاذب والله مُتزمّل فى ثيابك » . فقال معاوية وتَبسَّم : « هذا جزاء من عَجِل » .

الســـواقط

قـــال أبـــو عـــبيدة معمر بن المثنى التميمىّ : كانت السَّوَاقِطُ ترِد اليمامةَ فى الأشـــهر الحُرم لطلب التمر . فإن وافقت ذلك ، وإلا أقامت بالبلد إلى أوانه ، ثم تخرج منه فى شهر حرام . فـــكان الرجل منهم إذا قدم يأتى رجلا من بنى حنيفة ، وهـــم أهـــل الـــيمامة . فيكـــتب له على سهم أو غيره : « فلان جار فلان » . والســـواقط: مَـــنْ ورد اليمامة من غير أهلها . وقد كان النعمان بن المنذر أراد أن يُجْليهم منها ، فأجارهم مُرارة بن سُلْمِـــى الحَنَفىّ ، ثم أحد بنى ثعلبة بن الدّول بن حَنيفة ، فسوّغه الملك ذلك . فقال أوْس بن حَجَر يحضُّ النعمان عليه :

زعم ابن سُلْمِى مُرارةُ أنـــه ... مَوْلى السواقِـــط دونَ آل الْمنذِرِ
منع اليمامةَ حَزنَها وسُهولَهَـــا ... من كل ذى تاجٍ كـــريمِ الْمَفْخر

وذكر أبو عبيدة أن رجلا من السواقط من بنى أبى بكر بن كلاب قدم اليمامة، ومعه أخ له . فكتب له عُميَر بن سلمىّ أنه له جار ، وكان أخو هذا الكلابى جميلا، فقـــال له قُرين أخو عمير : « لا تَرِدَنَّ أبياتنا بأخيك هذا » .فرآه بعدُ بين أبياتهم

فقتله . قال أبو عبيدة : وأما المولى فذكر أن قرينا أخا عمير كان يتحدث إلى امرأة أخي الكلابي ، فعثر عليه زوجها ، فخافه قرين عليها ، فقتله وكان عمير غائبا ، فأتى الكلابي قبر سلمى أبي عمير وقرين ، فاستجار به ، وقال :

وإذا استجرتَ من اليمامةِ فاستجرْ ... زيدَ بن يربوعٍ وآلَ مُجَمِّعِ
وأتيتُ سُلْميا فعُذْتُ بقَبرهِ ... وأخو الزّمانة عائذٌ بالأمْنع
أقَرينُ إنك لو رأيتَ فوارسِي ... بعَمايَتَيْنِ إلى جوانب ضَلْفَع
حَدَّثتَ نفسك بالوفاء ولم تكن ... للغدر خائنةً مُغِلَّ الإصْبَع

فلجأ قَرين إلى قَتادة بن مَسْلمة . فحمل قتادة إلى الكلابيّ دِيات مضاعفة وفعلت وجوه بنى حنيفة مثل ذلك . فأبى الكلابيّ أن يقبل . فلما قدم عُمَيرة ، قالت له أمه ، وهى أم قَرين : « لا تقتل أخاك ، وسُق إلى الكلابيّ جميع ماله » . فأبى الكلابيّ أن يقبل ، وقد لجأ قرين إلى خاله السمين بن عبد الله ، فلم يمنع عُمير ، فمضى به ، حتى قطع الوادى ، فربطه إلى نخلة . وقال للكلابى : « أما إذ أبيتَ إلا قتله فأسهِلْ حتى أقطع الوادى ، وارتحل عن جوارى ، فلا خير لك فيه » فقتله الكلابى . ففى ذلك يقول عمير :

قَتلْنا أخانا للوفاء بجارنا ... وكان أبونا قد تُجير مقابِرُهْ

وقالت أم عمير :

تَعُدُّ مَعاذرا لا عُذْر فيها ... ومن يقتل أخاه فقد ألاما

قوله : ولم تكن للغدر خائنة ، ولم يقل خائنا ، فإنما وضع هذا فى موضع المصدر ، والتقدير ولم تكن ذا خيانة ، وقوله : للغدر ، أى من أجل الغدر ، وقال المفسرون والنحويون فى قول الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ أى لشديد من أجل حب الخير ، والخير ههنا : المال ، ومن قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ ... ﴾ . والمُغِل : الذى عنده غُلول ، وهو ما يُختان ويُحتجَن ، ويستعمل مستعارا فى غير المال . والإصبَع أفصح ما يقال ، وقد يقال : أصْبَع وَإصبِع وأصبُع ، وكلٌ جَيد ، وإنما يعنى ههنا النعمة . وأما قولها : ومن يقتل أخاه فقد ألاما ، تقول : أتى ما يلام عليه .

أفضل الأخيار

أنشدنى السَّعْدِىّ أبو مُحَلّم :

إنـا سألنا قومنا فخِيارُهـم مَن كـان أفضلَهم أبوه الأول
أعْطَى الذى أعطى أبوه قبـلَه وتَبخَّلتْ أبناءُ من يَتبَخـل

مديح

أنشدنى أيضا :

لَطلحةُ بن حبيب حين تسـألُه أنْدَى وأكرَمُ من فِند بن هَطّال
وبيتُ طلحةَ فى عز ومكرمـة وبيتِ فِنْدٍ إلى رِبقٍ وأحمـال [1]

---

(1) الربق : حبل فيه عدة عرى تشد به الصغار من الغنم والمعز .

أَلاَ فتى من بنى ذُبْيــــانَ يحملنى ... وليس يحملنى إلا ابـــنُ حَمّال

فقلتُ طلحةُ أَوْلىَ من عَمَدْتُ له ... وجئت أمشى إليه مَشْىَ مختــال

مُستيقِنا أنّ حَبلى سوف يعْلقُــه ... فى رأسِ ذَيالةٍ أو رأسِ ذَيّـال

قولــه : إلى ربق وأحمال ، إنما أراد جمع حَمَل على القياس ، كما تقول فى جميـع بـاب فَعَـل حَمَل وأحمال ، وصنم وأصنام ، وقوله : فى رأس ذيالة ، يعنى فرســا أنثى أو حصانا ، والذّيال : الطويل الذنب ، وإنمـا يُحمَد منه طول شعر الذنب ، وقِصَر العَسيب .

الفرزدق والذئب

قال الفَرَزْدق ، ونزل به ذئب فأضافه :

وأطْلَس عَسّالٍ وما كان صاحبـا ... رفعت لنارى مَوْهِنـا فـــأتانِى

فلما دنا قلتُ : ادنُ دُونَك إننى ... وإيّاك فى زادى لَمُشترِكـــان

فبتُّ أقد الزاد بينى وبينــه ... على ضـوء نارٍ مرّة ودخـان

وقلت له لمـا تَكَشر ضـاحكا ... وقائمُ سيفى من يـدى بمكان

تَعشَّ فإنْ عـــاهدتَنى لا تخونُنى ... نَـكُنْ مثل من ياذئبُ يصطحبان

وأنت امرؤٌ ياذئب والغدرُ كنتما ... أُخَيَّـينِ كانا أُرْضِعا بلبـــان

ولو غيرنا نبَّهت تلتمس القـرَى ... رمـاك بسهم أو شباةِ سِـــنان

قوله : وأطلس عسال ، فإنما نسبه إلى مشيته ، يقال : مرّ الذئب يَعْسل ، وهو مشـى خفيف كالهَروْلَة ، وقوله : رفعت لنارى ، من المقلوب ، إنما أراد رفعت له نارى ، والـكلام إذا لم يدخله لبس جاز القلب للاختصار . وقوله : أوشباة سنان، الشّبا والشَّباة واحد ، وهو الحَدّ .

الغـــد

مما يستحسن فى وصف الجود ، والحث على المبادرة به ، وتعريف حَمْد العاقبة فيه ، قول النَّمرِ بن تَوْلَب العكلىّ :

أعاذِلَ إنْ يُصبح صـــداىَ بقفْرةٍ بعيدا نآنى صـــاحبى وقريبى
تَرَىْ أن ما أبقيتُ لم أكُ ربَّـــه وأن الذى أنفقتُ كـــان نصيبى
وذى إبـــلٍ يسعى ويحسبها له أخى نصب فى رَعيــها ودُءوب
غدتْ وغدا رَبٌّ ســواه يقودها وبُدّل أحجارا وجـــالَ قَليب

قوله : إن يصبح صداى بقفرة ، فالصدى : على ستة أوجه ، أحدها ما ذكره وهـــو مـــا يبقى من الميت فى قبره ، وقوله : وبدّل أحجارا وجال قليب ، فالجال : الناحية ، يقال لــكل من البئر والقبر وما أشبه ذلك : جال وَجَوْل .

وروى عـــن رســـول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول ابن آدم مالى مـــالى ، ومـــالك مـــن مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت، وأعطيت فأمضيت » .

ويـــروى عـــن بعضهم أنه قال : « إنى أحب البقاء ، وكالبقاء عنـــدى حسن الثنـــاء » .

وقال معاوية لابن الأشعَث بن قيس : « ما كان جَدُّك قيس بن مَعْدى كَرِب أعطى الأعشى ؟ » . فقال : « أعطاه مالا وظَهْرا ورقيقا وأشياء أُنسيتُها » فقال معاوية : « لكن ما أعطاكم الأعشى لا يُنْسَى » .

وقال عُمر بن الخطاب رضى الله عنه لابنة هَرِم بن سِنان المُرّىّ : « ما وهب أبوك لزهير ؟ » . فقالت : « أعطاه مالا وأثاثا أفناه الدهر » . فقال عمر : « لكن ما أعطاكُمُوه لا يُفنيه الدهر » .

وقال المفسرون فى قول الله عز وجل عن إبراهيم صلوات الله عليه : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى ثناء حسنا ، وفى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى يقال له هذا فى الآخرين . والعرب تحذف هذا الفعل من قال ويقول استغناء عنه ، قال الله عز وجل : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أى فيقال لهم . ومثله : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ أى يقولون. وكذلك : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ .

خطبة الحجاج حين ولي الكوفة

قال عبد الملك بن عُمَير اللَّيْثىّ : بينا نحن فى المسجد الجامع بالكوفة وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ، يخرج الرجل منهم فى العشرة والعشرين من مواليه، إذ أتى آت فقال : « هذا الحجّاجُ قد قدم أميرا على العراق » . فإذا به قد دخل المسجدَ مُعْتَمّا بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه ، متقلدا سيفا ، متنكبا قوسا، يؤمُّ المِنبر . فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر . فمكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس

بعضهم لبعض : « قَبَح الله بنى أميةَ حيث تستعمل مثل هذا على العراق ؟ » . حتى قـال عُمَـير بن ضابئ البُرْجُمىّ : « ألا أحْصِبهُ لـكم ؟ » . فقالوا : « أمهِل حتى ننظر » . فلما رأى عيون الناس إليه ، حَسَر اللثام عن فيه ، ونهض فقال :

أنا ابن جَلا وطَلاّعُ الثّنـايا   متى أضعِ العـمامةَ تعرفونى

ثم قـال : « يا أهل الـكوفة ، إنى لأرى رءوسا قد أينَعَتْ ، وحان قِطافها، وإنى لَصاحبُها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللّحى » . ثم قال :

هذا أوانُ الشّـدِّ فاشْتدى زِيَمْ   قد لَفَّها الليـلُ بسَوّاقٍ حُطَمْ
ليس براعى إبـلٍ ولا غـنم   ولا بجَزّار على ظهـرِ وَضَمْ

ثم قـال :

قد لَفّـها الليـلُ بعَصْـلَبىّ   أرْوَعَ خَرّاج مـن الدَّوِّى
مهاجرٍ ليس بأعـرابىّ

وقال :

قد شَمَّرتْ عن ساقها فشُـدُّوا   وجَدَّت الحربُ بكـم فجِدُّوا
والقوسُ فيهـا وَتَرٌ عُرُدّ   مثلُ ذراع البَـكْرِ أو أشـدّ

إنى والله — يـا أهل العراق — ما يـُقَعْقَعُ لى بالشِّنـان ، ولا يُغْمَزجانبى كـتغْماز التين . ولقد فُررْتُ عن ذكاء ، وفُتِّشت عن تجربة . وإن أمير المؤمنين — أطـال الله بقاءه — نَثَر كِنانته بين يديه ، فعَجَم عيدانها . فوجـدنى أمرَّها عُودا ، وأصـلَبها مَـكْسِرا، فرماكم بى ، إنـكم طال ما أوْضَعْتم فى الفتنـة ؛ وأضجعتم فى مَـراقد الضلال ، والله لأحزِمنـكم حَزْمَ السَّلَمَة ، ولأضربنّكم ضرب غَرائب

الإبل. فإنكم لَكاهل قريةٍ كانت مطمئنةً يأتيها رزقُها رَغَدا من كل مكان، فكفرتْ بـأنْعُم الله ، فأذاقهـا الله لباس الجـوع والخوف بما كانوا يصنعون . وإنى والله ما أقـول إلا وفّيـت، ولا أَهُمُّ إلا أمضَيت ، ولا أخلق إلا فَرَيْت . وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعْطِياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهَلّب بن أبى صُفْرة. وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا تَخلّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنـقه . يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين .

فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . مـن عـبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، إلى من بالكوفة من المسلمين. سلام عليـكم » . فلم يقل أحد منهم شيئا فقال الحجاج : « اكفُف يا غلام » . ثم أقبل على الناس فقال : « أسلّمَ عليـكم أمير المؤمنين فلم تـردّوا عليه شيئا ، هذا أدب ابن نِهْية . أما والله لأؤدبنكـم غير هذا الأدب أو لَتستقيمُنّ . اقـرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين » . فلما بلغ إلى قوله : « سلام عليكم » ، لم يبق فى المسجد أحـد إلا قال : « وعلى أمير المؤمنين السلام » .

ثم نزل فوضع للناس أعْطياتهم . فجعلوا يأخذون ، حتى أتاه شيخ يَرْعَش كبرا، فقـال : « أيهـا الأمـير ، إنى من الضعف على ما ترى ، ولى ابن هو أقوى على الأسفار منى ، فتقبَّلْه بدلا منى » . فقال له الحجاج : « نفعل أيُّها الشيخ ؟ » . فلما ولّـى قال له قائل : « أتدرى من هذا أيها الأمير » . قال : « لا » . قال : « هذا عُمير بن ضابِىء البرجمىّ الذى يقول أبوه :

هَممْتُ ولم أفعلْ وكِدْتُ ولَيْتَنى ... تركتُ على عثمانَ تبكى حَلائِلُه

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا، فوطىء بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه» . فقـال : « رُدُّوه » . فلما رُدّ قال له الحجاج : « أيها الشيخ ، هلا بعثت إلى أمير

المؤمنين عثمان بَدَلا يـوم الدار ، إنّ فى قتلك ، أيها الشيخ ، لصلاحا للمسلمين. يا حَرِسيّ اضربَنْ عُنقه » .

فجعـل الـرجل يَضيق عليه أمره فيرتحل ، ويأمر وليَّه أن يلحقه بزاده . ففى ذلك يقول عبد الله بن الزَّبِير الأسـدىّ :

تَجهَّزْ فإما أنْ تزور ابـنَ ضابِىء عُميرا وإما أن تزور المهُلبَّـا
هما خُطَّتا خَسْفٍ نَجاؤُكَ منهمـا ركوبـُك حَوْلِيًا من الثلج أشْهَبا
فأضْحَى ولو كانت خراسانُ دونه رآها مكان السُّوق أو هى أقربـا

قوله : أنا ابن جلا ، إنما يريد المنكشف الأمر . والشعر لسُحَيم بن وَثِيل الرّياحى ، وإنما قاله الحجاج متمثلا . وقوله : وطلاع الثنايا ، الثنايـا : جمع ثَنِيَّة ، والثـنيّة : الطـريق فى الجـبل ، وإنمـا أراد به أنه جَلْد يَطلُع الثنايا فى ارتفاعها وصـعوبتها. وقولـه : هذا أوان الشدّ فاشتدى زيم ، يعنى فرسا أو ناقة . والشعر لـلحُطَم القيسـى . وقوله : قد لفّها الليل بسواق حطم ، فهو الذى لا يُبقى من السير شيئا . وقوله : على ظهر وضَم ، فالوضم : كل ما قُطع عليه اللحم . وقوله: قـد لفّهـا الـليل بعصلبىّ ، أى شديد . وأروع : أى ذكىّ . وقوله : خرّاج من الدوّىّ، يقول : خراج من كل غمّاء شديدة . وقوله : والقوس فيها وترعرد ، فهو الشديد . وقوله : إنى والله ما يقعقع لى بالشنان ، واحدها شَنّ ، وهو الجلد اليابس، فـإذا قُعقِـع بـه نفرت الإبل منه ، فضرب ذلك مثلا لنفسه . وقولـه : ولقد فُررت عن ذكاء يعنى تمام السّن . وقوله : فعجم عيدانها، يقول : مضغها لينظر أيها أصلب . وقوله : طال ما وضعتم فى الفتنة ، الإيضاع : ضرب من السير . وقوله:

فاضحي ولو كانت خراسان دونه ، يعنى دون السفر ، رآها مكان السوق للخوف والطاعة .

وحدثنى محمد بن إبراهيم الهاشمى قال : بلغ عمر بن الخطاب رحمه الله أن قوما يفضلونه على أبي بكر الصديق رحمه الله . فوثب مُغضَبا حتى صعد المنبر . فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم قال : « أيها الناس ، إنى سأخبركم عنى وعن أبي بكر . إنه لما تُوُفِّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدّت العرب ، ومنَعتْ شاتَها وبَعيرها . فأجمع رأينا كلّنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنْ قلنا له : يا خليفة رسول الله ، إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقاتل العرب بالوحى والملائكة ، يمده الله بهم ، وقد انقطع ذلك اليوم ، فالزم بيتك ومسجدك فإنه لا طاقة لك بقتال العرب. فقال أبو بكر الصديق : أوَكُلُّكم رأيه على هذا ؟ فقلنا : نعم . فقال : والله لأنْ أخِرَّ من السماء فَتَخطفَنى الطير ، أحبّ إلىّ من أن يكون هذا رأيي . ثم صعد المنبر فحمد الله وكبّره ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . أيها الناس ، أأنْ كَثُر أعداؤكم ، وقل عددكم ، ركب الشيطان منكم هذا المركب . والله لَيُظْهِرنّ الله هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون ؛ قوله الحق ، ووعده الصدق، بل نقذف بالحق على الباطل فَيَدْمَغه فإذا هو زاهق ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . والله أيها الناس لو أُفرِدتُ من جميعكم لجاهدتهم فى الله حَقَّ جِهاده حتى أُبْلِيَ بنفسى عذرا ، أو أُقتَل قتلا . والله أيها الناس لو منعونى عِقالا لجاهدتهم عليه ، واستعنت عليهم الله وهو خير معين . ثم نزل فجاهد فى الله حق جهاده ، حتى أذعنت العرب بالحق » .

قوله : لو منعونى عقالا لجاهدهم عليه ، فإن المُصَدِّق [1] إذا أخذ من الصدقة ما فيها ، ولم يأخذ ثمنها قيل : أخذ عقالا ، وإذا أخذ الثمن قيل . أخذ نَقْدا .

وكـــان ارتداد من ارتد من العرب أنْ قالوا : نقيم الصلاة ولا نؤتى الزكاة . فمن ذلك قول الـحُطَيئـــــة :

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننـــــا ... فيالَهْفتا ما بالُ ديـــــنِ أبى بكرِ
أيورِثُها بَـــكْرا إذا مـــات بعده ... فتلك وبيتِ الله قاصمةُ الظهـــر
فقوموا ولا تعطوا اللئامَ مقَـــادَةً ... وقوموا ولو كان القيامُ على الجَمْر
فِدًى لبنى نَصْرٍ طَرِيفى وتـــالِدى ... عشيةَ ذادُوا بالرماح أبا بكـــــر

من أشعار المولدين

هـــذه أشـــعار اخترناها من أشعار المولدين ، حكيمة مستحسنة ، يُحتاج إليها للتمـــثُّل ، لأنها أشْكَلُ [2] بالدهر ، ويستعار من ألفاظها فى المخاطبـــات والخطب والكتب .

قال محمود بن حسن الوراق :

تعصى الإله وأنتَ تُظهـــر حُبـّـه ... هذا محالٌ فى القيـــــاس بديـــعُ
لو كان حُبُّك صادقا لأطعتَـــــه ... إن المحِبّ لمن يحب مطيـــــــع

---

(١) المصدق : جامع الزكـــــاة .
(٢) أشكل : أشـــــبه .

وقال أيضـــــا :

إنى شـــــكرتُ لظالمى ظلمى   وغفرتُ ذاك له على عـــلمى
ورأيـــتُه أسْدَى إلىّ يــــدا   لمــا أبان بجهـــــله حِـلمى
رجعتْ إساءته وإحســـــانى   فعـــــاد مضاعفَ الجُــرْم
وغدوتُ ذا أجـــرٍ ومَحْمَدة   وغدا بكَسب الظلم والإثـــم
فـــكأنما الإحســـانُ كـــان له   وأنا المُسىء إليـــه فى الحــكم
ما زال يظلمنى وأرحمـــــــه   حتى بكيتُ له من الظلــــــم

أخذ هذا المعنى من قول رجل من قريش لرجل قال له : « إنى مررت بقوم من قريـــــــش ، من آل الزبير أو غيرهم ، يشتمونك شتما رحمتك منه » . قال : « أفسمعتَنى أقول إلا خيرا » . قال : « لا » . قال : « إياهم فارحم » .

وقـــال أبـــو بكر الصديق رحمه الله لرجل قال له : « لأشتمنّك شتما يدخل معك فى قبرك » . قال : « معك والله يدخل لا معى » .

وقال ابن مسعود : « إن الرجل ليظلمنى فأرحمه » .

وقـــال رجل للشعبىّ كلاما أقذع له فيه . فقال له الشعبى : « إن كنت صادقا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك » .

ويروى أنه أتى مسجدا ، فصادف فيه قوما يغتابونه . فأخذ بعضادتى الباب ثم قال :

هنيئا مريئـــا غير داءٍ مُخامــــرٍ   لعَزّةَ من أعراضنــــا ما استحلّتِ

وذكـــر ابن عائشة أن رجلا من أهل الشام قال : دخلت المدينة فرأيت رجلا راكـــبا عـــلى بغلة ، لم أر أحسن وجهـــا ولا سَمْتا ولا ثوبا ولا دابة منه فسألت عـــنه. فقيل لى : « هذا الحسن بن على بن أبي طالب رضى الله عنهما » . فامتلأ قلبى له بغضا وحسدت عليا أن يكون له ابن مثله . فصرت إليه فقلت له : « أأنت ابن أبي طالب ؟ » . فقال : « أنا ابن ابنه » . فقلت : « فبك وبأبيك أسبّهما » . فلما انقضى كـــــلامى قال لى : « أحسبك غريبا ؟ » . قلت : « أجل » . قال : « فمِـــلْ بـــنا ، فإن احتجت إلى منزل أنزلناك ، أو إلى مال آسيْناك ، أو إلى حاجة عاوناك » . قال : فانصرفت عنه ووالله ما على الأرض أحب إلىّ منـــــه.

وقال صالح بن عبد القدوس :

إن يكن ما به أصِبْتُ جليـــــــلا ... فذهابُ العزاءِ فيـــه أجَـــــــلُّ
كـــلُّ آتٍ لا شـــــك آت وذو الجهـــــــــل مُعَنًّى والغمُّ والحزن فَضْلُ

وأنشد مُنشِد من الأبيات المنفردة القائمة بأنفسها :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى ... إلى بعضِ ما فيه عليك مَقـــالُ

وقال آخــــــر :

ويعرف وَجْهَ الحزم حتى كأنمـــــا ... تخاطبه من كل أمر عواقبُــــــهْ

وقال أشْجَع السُّـلَمى :

رَأىٌ سَرَى وعيونُ الناس راقـــدةٌ ... ما أخَّرَ الحزمَ رأىٌ قدَّمَ الحـــذرا

وقال آخــــــر :

فلو عاب نفسى غيرُ نفسى لَسؤْتُهُ ... فكيف ونفسى قد أتت ما يعيبها

وقال عبد الصمد بن المُعَـذَّل :

أمُنُّ على المُجْـــــــتَدِى ... ومـــــا أتْبِـعُ المَنَّ مَنْ [1]

(1) المجتدى : طالب المعروف . والمن الأول : الإحسان . والمن الثانى : الفخر بالإحسان .

كأنْ لم يَزَل مـــا أتـــى ... وما قـــد مضى لم يكـــن

أرى النـــاس أحـــدوثةً ... فـكونى حديثـــا حســـن

وقال دِعْبِل بن على الخزاعى :

أحببتُ قومى ولم أعدِلْ بحبهـــمُ ... قالوا:تعصّبتَ جهلاقولَ ذى بَهت

دَعنى أصِلْ رَحِمى إن كنتَ قاطعَها ... لابُدَّ للرحمِ الدنيا من الصـــلة

فاحفظ عشيرتَك الأدْنينَ إنَّ لهـــم ... حَقا يُفَرِّق بين الزوج والمَـــرة

لا تَعْرِضنّ بمـــزحٍ لامرئ طَبِنٍ ... ما راضَه قلبُه أجْراه فى الشفة [1]

فرُبَّ قافيةٍ بالمزح جاريـــــة ... مشئومة لم يُـــرَدْ إنماؤها نَمَت

وقال الخليل بن أحمد ، وكان نظر فى النجوم فأبعد ، ثم لم يرضها فقال :

أَبلغـــــا عنى المُنجِّم أنـــى ... كافرٌ بالذى قَضَتْه الـــكواكبْ

عالمٌ أنّ ما يـــكون وما كـــا ... ن بحَتْمٍ مـــن المُهَيْمِن واجبْ

وأنشدنى الرياشى لغيره :

قد نَقَّر الناسُ حتى أحدثوا بِدَعـــا ... فى الدين بالرأى لم تُبْعَث بها الرسل [2]

حتى استخفَّ بحق الله أكثرُهـــم ... وفى الذى حُمِّلوا من حقـــه شُغُل

وقال الحَكَمىّ أبو نواس :

أخِى ما بالُ قلبِك ليـــس يَنْقَى ... كأنكَ لا تظن المـــوتَ حَقّـــا

ألا يا ابنَ الذين فَنوا وبـــادوا ... أماَ واللهِ ما ذهبـــــوا لتبقى

وما أحد بزَادِك منـــك أحْظى ... وما أحد بزادك منـــك أشقى

ولا لك غير تَقـــوى الله زادٌ ... إذا جَعلتْ إلى الَّلهـــَوات تَرْقى

---

(١) الطبِن : الفصـــل الحاذق .

(٢) نقر : بحث .

الصبر

كان ابن شبرمة إذا نزلت به نازلة قال : « سحابة ثم تنقشع » .

وكان يقال : « أربع من كنوز الجنة : كتمان المصيبة ، وكتمان الصدقة، وكتمان الفاقة ، وكتمان الوجع » .

وقال عمر بن الخطاب رحمه الله : « لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليتُ أيهما ركبت » .

وقال العُتْبِيّ محمد بن عبيد الله يذكر ابنا له مات :

أضحتْ بِخَدِّى للدموعِ رسومُ ... أَسَفًا عليك وفى الفؤاد كُلومُ
والصبر يُحْمَدُ فى المصائبِ كلها ... إلا عليكَ فإنه مذموم

وأحسب أن حبيبا الطائى سمع هذا فاستَرقه فى بيتين : أحدهما قوله فى إدريس بن بدر الشامى :

دموعٌ أجابتْ داعىَ الحزنِ هُمَّعُ ... تَوصَّلُ منا عن قلوبٍ تقطَّعُ
وقد كان يدْعَى لابسُ الصبرِ حازما ... فأصبحَ يُدْعى حازما حين يجزَعُ

والآخر قوله :

قالوا : الرحيل ، فما شككتُ بأنها ... نفسى عن الدنيا تريد رحيلا
الصبر أجْمَلُ غيرَ أنّ تَلَدُّدا ... فى الحبِّ أحْرَى أن يكون جميلا

عقل ولسان

كان الحسن يقول : « لسان العاقل من وراء قلبه . فإنْ عرض له القول نظر، فإن كان له أن يقول قال ، وإن كان عليه القول أمسك. ولسان الأحمق أمام قلبه، فإذا عرض له القول قال كان عليه أوله » .

وقال إياس بن معاوية المُزَنيّ أبو واثِلَة ، وكان أحد العقلاء الدهاة الفضلاء لخالد بن صفوان : « لا ينبغى أن نجتمع فى مجلس » . فقال له خالد : « وكيف يا أبا واثلة ؟ » فقال : « لأنك لا تحب أن تسكت ، وأنا لا أحب أن أسمع » .

أقضية

خاصم إلى إياس رجل رجلا فى دَين ، وهو قاضى البصرة . فطلب منه البيِّنة فلم يأته بمَقْنعَ . فقيل للطالب : « استَجِرْ وكيع بن أبى سُود حتى يشهد لك فإن إياسا لا يجترئ على رد شهادته » . ففعل ، فقال وكيع : « والله لأشهدن لك فإن رد شهادتى لأعَممنَّه السيف » . فلما طلع وكيع فهم إياس عنه . فأقعده إلى جانبه ثم سأله عن حاجته . فقال : « جئت شاهدا » . فقال له : « يا أبا المُطرف أتشهد كما تفعل الموالى والعجم . أنت تجلُّ عن هذا » . فقال : « إذن والله لا أشهد » . فقيل لوكيع بعد : « إنما خدعك » . فقال : « أوْلَى لابن اللخْناء » .

واختلف نصرانى إلى أبى دُلامة مولى بنى أسد يَتطبَّب فوعده إن برأ على يديه أن يعطيه ألف درهم . فبرأ ابنه ، فقال للمتطبب : « إن الدراهم ليست عندى ، ولكن والله لأوصلنَّها إليك . ادَّعِ على جارى فلان هذه الدراهم فإنه موسر، وأنا

وابنى نشهد لك فليس دونَ أخْذِها شيء ». فصار النصرانى بالجار إلى ابن شبرمة فسأله البينة . فطلع عليه أبو دلامة وابنه ، ففهم القاضى . فلما جلس بين يديه قال أبو دلامة :

إنِ الناسُ غَطَّونى تغطيتُ عنهمُ وإن بَحَثونى كان فيهم مباحثُ

فقـال ابن شبرمة : « من ذا الذى يبحثك يا أبا دلامة ؟ » . ثم قال للمدعى : قد عرفت شاهديك فخلِّ عن خصمك ، ورح العشّية إلىّ . فراح إليه ، فغرمها من ماله .

وشهد أبو عبيدة عند عبيد الله بن الحسن العَنْبرى على شهادة ، ورجلٌ عدل ، فقال عبيد الله للمدعى : « أما أبو عبيدة فقد عرفته ، فزدنى شاهدا » . وكـان عبيد الله أحد الأدباء الفقهاء الصلحاء .

وتقـدم رجـل إلى سوار بن عبد الله ، وسوار ابن عم عبيد الله بن الحسن ، يدعى دارا ، وامرأة تدافعه ، وتقول لسوار : « إنها والله خطة ما وقع فيها كتاب قـط ». فـأتى المدعي بشاهدين يعرفهما سوار ، فشهدا له بالدار . وجعلت المرأة تنكر إنكارا يعضده التصديق. ثم قالت : « سل عن الشهود فإن الناس يتغيرون » . فرد المسألة فحُمد الشاهدان :فلم يزل يُريِّث أمورهم ويسأل الجيران فكل يصدق المـرأة ، والشاهدان قد ثبتا . فشكا ذلك إلى عبيد الله ، فقال للشاهدين : « ليس للقاضـى أن يسألـكما كيف شهدتما ، ولـكن أنا أسألـكما » . فقالا: « أراد هـذا أن يحج فأدارنا على حدود الدار من خارج ، وقال : هذه دارى فإن حدث بى حادث فلْتُبع ولتقسم على سبيل كذا ». قال: « فعند كما غير هذه الشهادة ؟ »

قـــالا : « لا » . فقـــال : « الله أكبر ، وكذا لو أدرتكما على دار سوار وقلت لـــكما مثل هذه المقالة أكنتما تشهدان بها لى ؟ » . ففهما أنهما قد اغترا .

وحدثـــنى أحـــد أصحابنا أن رجلا من الأعراب تقدم إلى سوار فى أمر ، فلم يصـــادف عـــنده ما يحب فاجتهد فلم يظفر بحاجته . فقال الأعرابى وكانت فى يده عصـــا :

رأيت رُؤيا ثم عَبرْتُهـــــا ... وكنتُ للأحـــــلام عَبّارا
بأننى أخبِطُ فى ليلـــــق ... كلبا فــكان الــكلب سَوّارا

ثم انحى على سوار بالعصا فضربه حتى مُنع منه ، فما عاقبه سوّار بشيء .

وحُدِّثـــت أن أعـــرابيا مـــن بنى العَنْبر سار إلى سوّار ، فقال : « إن أبى مات وتـــركنى وأخالى » . وخط خَطَّـــين فى الأرض ثم قال : « وهجينــــا » . وخط خطّـــا ناحية ، « فكيف نقسم المال » . فقال : « أههنا وارث غيركم ؟ » . قال : « لا ». قـــال : « المـــال بينكم أثلاثا » . فقال : « لا أحسبك فهمت عنى ، إنه تركنى وأخى وهجينا لنا » . فقال سوّار : « المال بينكم أثلاثا » . فقال الأعرابى: « أيأخذ الهجين كما آخذ ، وكما يأخذ أخى » . قال : « أجَل » . فغضب الأعرابى ثم أقـــبل على سوار فقال : « تَعلّمْ والله أنك قليل الخالات بالدَّهناء [1] » . فقال سوّار : « إذا لا يضيرنى ذلك عند الله شيئـــا » .

(١) قيل إنه لم يـــكن بالدهناء إماء وإنما كل نسائها حرائر .

وكـــان عَقيــــل بـــن عُلَّفة من الغَيْرة والأنفة على ما ليس عليه أحد علمناه . فخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته على أحد بنيه ، وكانت لعقيل إليه حاجات. فقال : « أما إذ كنتَ فاعلا فَجنِّبنى هُجَناءَك » .

وخطـــب إليه ابنتَه إبراهيم بن هشام ، وهو خال هشام بن عبد الملك ، ووالى المدينة ، وكان أبيض شديد البياض . فرده عقيل وقال :

رددتُ صحيفةَ القُرشيِّ لمــــــا أبتْ أعــراقــه إلا احمـــرارا

وكـــانت حفصة بنت عمران قد ميتَ عنها . فخطبها جماعة من قريش أحدهم عبد الله بن حسن وأحدهم إبراهيم بن هشام . فـــكان أخوها محمد بن عمران إذا دخـــل إلى إبراهيم بن هشام أوسع له وأنشده :

وقالوا : يا جميل أتى أخوهـــــــا فقلت : أتى الحبيبُ أخو الحبيب
أحبكَ أنْ نزلت جبال حِسْمى وأن ناسبتَ بَثْنةَ مــــن قريب

وهذا الشعر لجميل بن عبد الله بن مَعْمَر العُذْرى .

وكان يقال : إن أول من أظهر الجور من القضاة فى الحكم بِلال بن أبى برُدَة ، وكان أمير البصرة وقاضيها . وكان بلال يقول : « إن الرجلين لَيتقدَّمان إلىّ فأجد أحدهما على قلبى أخفّ فاقضى له » .

ويروى أن بلالا وفد على عمر بن عبد العزيز بخُناصِرةَ فسَدِك [1] بسارية من المسجد . فجعل يصلى إليها ويديم الصلاة . فقال عمر بن عبد العزيز للعلاء بن المغيرة بن البُنْدار : « إنْ يكن سرُّ هذا كعلانيته فهو رجل أهل العراق غير مُدافَع » . فقال العلاء : « أنا آتيك بخبره » . فأتاه وهو يصلى بين المغرب والعشاء فقال : « اشفع صلاتك فإن لى إليك حاجة » ففعل . فقال له العلاء : « قد عرفت حالى من أمير المؤمنين ، فإنْ أنا أشرتُ بك على ولاية العراق فما تجعل لى ؟ » . قال : « لك عُمالتى [2] سنة » . وكان مبلغها عشرين ألف ألف درهم . قال : « فاكتب لى بذلك » . فارقدّ [3] بلال إلى منزله فأتى بدواة وصحيفة فكتب له بذلك . فأتى العلاء عمر بالكتاب . فلما رآه كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن ، وكان والى الكوفة : « أما بعد ؛ فإن بلالا غرَّنا بالله فكدنا نغتر ، فسبكناه فوجدناه خَبَثا كلّه ، والسلام » . ويُروى أنه كتب إلى عبد الحميد : « إذا ورد عليك كتابي هذا ، فلا تستعن على عملك بأحد من آل أبي موسى » . وكان بلال داهية لَقِنا أديبا . ويقال : إن ذا الرُّمَّة لما أنشده :

سمعتُ الناسَ يَنْتَجِعون غيثا ... فقلتُ لصَيْدَحَ : انتجعى بلالا
تُناخِي عند خيرِ فتى يَمانٍ ... إذا النَّكْباءُ ناوحتِ الشمالا

---

(1) خناصرة : بلدة من أعمال حلب . وسدك : لصق .

(2) العمالة : أجرة العامل .

(3) ارقد : أسرع .

فلما سمع قوله : فقلت لصيدح انتجعى بلالا ، قال : « يا غلام ، مُرْ لها بقَتٍّ ونوى » . أراد أن ذا الرمة لا يحسن المدح . وقوله : إذا النكباء ناوحت الشمالا، فإن الرياح أربع ، ونكباواتها أربع ، وهى الريح التى تأتى من بين ريحين ، فتكون بين الشمال والصَّبا ، أو الشمال والدَّبور ، أو الجنوب والصبا، فإذا كانت النكباء تُناوِح الشمال فهى آية الشتاء . ومعنى تناوح تقابل .

العرب والموالي والأنساب

قال المُنتجِع لرجل من الأشراف : « ما علّمتَ ولدَك ؟ » . قال : « الفرائض » . قال : « ذلك علم الموالى لا أبالك . عَلمهم الرَّجَز فإنه يُهَرّت أشداقهم » .

ومن ذلك قول الشعبيّ ، ومر بقوم من الموالى يتذاكرون النحو ، فقال : « لئن أصلحتموه إنكم لأوّل من أفسده » .

وقول العرب : « ما يخفى ذلك على الأسود والأحمر » يريد العربيّ والعجميّ.

وقال المختار لإبراهيم بن الأشتَر يوم خازَر ، وهو اليوم الذى قُتل فيه عُبيد الله بن زياد : « إن عامّة جندك هؤلاء الحمراء، وإن الحرب إنْ ضَرَّستهم هربوا فاحمل العرب على متون الخيل ، وأرْجِل الحمراء أمامهم » .

ومن ذلك قول الأشعث بن قيس لعلى بن أبى طالب رحمه اله، وأتاه يتخطّى رقاب الناس ، وعلىّ على المنبر ؛ فقال : « يا أمير المؤمنين ، غلبتنا هذه الحمراء على قربك » . فركض علىّ المنبر برجله . فقال صَعْصَعة بن صُوحان العَبْدىّ :

« مـــا لنـــا ولهذا ». يعنى الأشعث ، « لَيَقُولنَّ أمير المؤمنين اليوم فى العرب قولا لا يـــزال يُذكَر » . فقال علىّ : « من يَعْذِرنى من هذه الضـــيّاطِرَة ، يتمرغ أحدهم عـــلى فراشـــه تَمـــرُّغ الحمار ويُهَجِّر قوم للذكر ، فيأمرنى أن أطردهم ؟ ما كنت لأطـــردهم فأكون من الجاهلين . والذى فَلَق الحَبة ، وبرأ النَّسمَة ، ليَضربُنَّكم على الديـــن عَوْدا كما ضربتموهم عليه بَدْءا » . قوله : الضياطرة ، واحدهم ضَيْطَر وضيْطار ، وهو الأحمر العَضِل الفاحش .

قـــال يحـــيى بـــن نوفـــل يهجو العُرْيان بن الهَيْثم بن الأسود النخَعىّ ، وكان العـــريان تزوج زَبادِ ، من ولد هانئ بن قَبيصة الشَّيبانىّ ، وكانت عند الوليد بن عبد الملك فطلقها ، فتزوجها العريان . وكان ابن نوفل له هجّاء ، فقال :

أعُريانُ ما يدرى امرؤ سِيلَ عنكمُ ... أمِنْ مذْحجٍ تُدْعَوْنَ أم مِن إيـــادِ
فإنْ قلتمُ : من مذحج إنّ مذحجا ... لَبِيضُ الوجوهِ غير جدٍّ جعـــاد
وأنتم صِغار الهام حُدْلٌ كأنمـــا ... وجوهـــكمُ مطليّـــةٌ بمـــداد
لَعمْرُ بنى شيبان إذ يُنْـــكِحونه ... زَبادِ لَقدْ ما قَصَّروا بزبـــاد
أبعْدَ الوليدِ أنـــكحوا عبد مذحجٍ ... كُمْترِيةٍ عَيْرا خـــلافَ جَواد

قوله : وأنتم صغار الهام حدل ، فالأحدل : المائل العنق . وقولـــه : لقد ما قصـــروا، فمـــا : زائدة ، مثل قوله تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا ﴾ ، ولو قال : لَقدْمـــا قصّروا ، لم يكن جيدا ودخل الوليد فى الذم . وقوله : كمترية عيرا خلاف جواد ، يقول : بعد جواد ، قال الله عز وجل : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ .

صيغة فعال

اعلم أنه لا يُبْنَى شيء من هذا الباب على الكسر إلا وهو مؤنث معرفة معدول عن جهته ، وهو فى المؤنث بمنزلة فُعَل ، نحو عُمَر وقُثَم فى المذكر ، وفُعَل معدول فى حال المعرفة عن فاعل وكان فاعل ينصرف ، فلما عُدِل عنه فُعَل لم ينصرف. وفَعالِ معدول عن فاعِلة ، وفاعلة لا ينصرف فى المعرفة ، فعُدِل إلى البناء لأنه ليس بعد مالا ينصرف إلا المبنىّ . وبُنِى على الكسر لأن فى فاعلة علامة التأنيث . وكان أصل هذا أن يكون إذا أردت به الأمر ساكنا كالمجزوم من الفعل الذى هو فى معناه ، فكَسَرْتَه لا لتقاء الساكنين ، مع ما ذكرنا من علامة التأنيث ، والكسر مما يؤنث به فلم يخل من العلامة ، تقول للمرأة : أنتِ فعلتِ . فالكسر علامة التأنيث . وكذلك إنّكِ ذاهبةٌ ، وضربتُكِ يا امرأة .

فمما لا يكون إلا معرفة مكسورا ما كان اسما للفعل نحو نزَالِ ، ومعناه انزلْ ، وكذلك تَراكِ زيدا أى اتركه . فهما معدولان عن المتاركة والمنازلة ، وهما مؤنثان معرفتان . يدلك على التأنيث القياس الذى ذكرنا ، قال الشاعر تصديقا لذلك :

وَلَنِعمْ حَشْوُ الدرعِ أنتَ إذا ... دُعِيَتْ نَزالِ ولُجَّ فى الذعرِ

قال : دعيت ، لما ذكرته لك من التأنيث . فهذا باب من الأربعة .

ومـنها أن يـكون صفة غالبة تحلّ محل الاسم ، نحو قولهم للضبع : جَعارِ ، وللمنية: حَلاقِ ، لأنها حالقة . والدليل على التأنيث بعد ما ذكرنا قوله :

لَحِقَتْ حَلاقِ بهم على أكْسائِهِمْ ضَرْبَ الرقابِ ولا يهِمُّ المَغْنَمُ [1]

وتقول فى النداء : يا فَساقِ ، وياخَباث ، ويالـكاع لأنه فى النداء فى موضع معرفة كما تقول للرجل : يافُسَق وياخبث وبالـكع ، فهذا باب ثان.

ومن ذلك ما عُدِل عن المصدر ، نحو قوله :

جَماد لهـا جَمـادِ ولا تقولى طَوالَ الدهرِ مـا ذُكِرَتْ حَمَاد

يـريد قـولى لها : جمودا ولا تقولى لها حمدا هذا المعنى ، ولـكنه عدل مؤنثا . وهذا باب ثالث .

والـباب الرابع أن تُسمِّى امرأة أو شيئا مؤنثا باسم تصوغه على هذا المثال ، نحـو رَقـاشِ وحَـذامِ وقَطامِ وما أشبهه ، فهذا مؤنث معدول عن راقشة وحازمة وقاطمة ، إذا سميت به . وأهل الحجاز يُجْرونه على قياس ما ذكرت ، لأنه معدول فى الأصـل وسُمِّى به ، فنُقل إلى مؤنث كالباب الذى كان قبله فلم يغيروه ، فعلى ذلك قالوا : اسق رَقاشِ إنها سَقاية ، وقال آخر :

إذا قالتْ حذام فصَدِّقوهـا فإن القول مـا قالت حـذام .

(١) الأكسـاء : المتاخرون .

وأما بنو تميم فإذا أزالوه من النعت فَسموا به صرفوه فى النكرة ، ولم يصرفوه فى المعرفة . وسيبويه يختار هذا القول الآخر ، فيقول : هذه رقاشُ قد جاءتْ ، وهذه غَلابُ قد جاءت ، وهذه غلابٌ أخرى . ولا اختلاف بين العرب فى صرفه إذا كان نكرة ، وفى إعرابه فى المعرفة ، وصرفه فى النكرة إذا كان اسما لمذكر ، نحو رجل تسميه نَزالِ أو رقاشِ أو حَلاقِ ، فهو بمنزلة رجل سميته بعَناقٍ أو أتانٍ ، لأن التأنيث قد ذهب عنه . فاحتج سيبويه فى تصحيح هذا القول بأنك لو سميت شيئا بالفعل الذى هو مأخوذ منه لأعربته ، نحو أنزلْ واضْرِبْ لو سميت بهما رجلا لجرى مجرى إصْبَع وأحمد وإثمد ونحو ذلك . فهذا يحيط بجميع هذا الباب.

الزواج

قالت امرأة أحسبها من بنى عامر بن صَعْصَعَة زُوِّجت فى طَيئ :

لا تحمدَنّ الدهرَ أختٌ أخا هـا ... ولا ترثِينَّ الدهـرَ بنتٌ لوالدِ
همُ جعلوهـا حيثُ ليستْ بحُرَّةٍ ... وهم طرحوها فى الأقاصى الأباعد

ويُروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « إنما النكاح رِقَ . فلينظر امرؤ من يُرِقُّ كريمته » .

وعلى هذا جاءت اللغة فقالوا : كنا فى إملاك فلان ، وفى مِلْك فلان ، وفى مَلْك فلان ، وفى مَلَكة فلان ، وفى مِلْكان فلان . ويقول الرجل : ملكتُ المرأة وأملكنيها وليُّها .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوصيكم بالنساء فإنهم عندكم عَوانٍ » . أى أسيرات .

وقال رجل يذكر امرأة زُوِّجت من غير كفء :

لقد فرح الواشون أنْ نال ثعلبٌ ... شبيهةَ ظَبيٍ مُقلتاها وجيدُها
أضَرَّ بها فَقْدُ الوَلِيِّ فأصبحتْ ... بكَفِّ لئيمِ الوالدين يَقودُها

ولما زَوَّج إبراهيم بن النعمان بن بشير الأنصارى يحيى بن أبى حَفْصة مولى عثمان بن عفان ابنته ، على عشرين ألف درهم ، قال قائل يُعيِّره :

لَعَمْرِى لقد جَلَّلْتَ نفسك خَزْيَةً ... وخالفتَ فِعْلَ الأكْثَرِين الأكارم
ولو كانَ جَدّاكَ اللذان تتابعا ... ببَدرٍ لَمَا راما صنيعَ الألائم

فقال إبراهيم بن النعمان يرد عليه :

ما تركتْ عشرون ألفا لقائل ... مَقالا فلا تَحفِلْ مَلامةَ لائم
وإنْ أكُ قد زَوَّجْتُ مولىً فقد مَضَتْ ... به سُنَّةٌ قَبْلِى وحبُّ الدراهم

وتزوج يحيى بن أبى حَفصة ، وهو جد مروان الشاعر ، ويزعم النسابون أن أباه كان يهوديا أسلم على يدى عثمان بن عفان ، وكان يحيى من أجود الناس وكان ذا يسار فتزوج خَوْلة بنت مُقاتل بن طَلْبة بن قيس بن عاصم ، سيد أهل الوبر ، ومَهَرها خِرَقا . ففى ذلك يقول القلاخ بن حَزْن :

لم أرَ أثوابا أجَرَّ لِخَزْية ... وألأمَ مَكْسُوا والأمَ كاسيا
من الخِرَقِ اللاتى صُبِبْنَ عليكم ... بحَجْرٍ فكُن المُبقياتِ البواليا

فقال يحيى بن حفصة يجيبه :

تجاوزتُ حَزْنــا رغبةً عن بناتـــه ... وأدركت قيســا ثانيا من عنانيــا

يقــال ذلك للسابق إذا تقدم تقدما بَيِّنا فبلغ الغاية ، فمن شأنه أن يثنى عنانه فينظر إلى الخيل .

وقال القلاخ فى هذه القصــة :

لُبنتُ خَوْلة قالتْ حين أنكَحَهــا : ... لَطالمــا كنتُ منك العارَ أنتظرُ

أنكحتَ عَبْدَيْنِ ترجو فضل مالِهما ... فى فيك مما رجوتَ التُّربُ والحَجر

للهِ دَرُّ جِيـــادٍ أنتَ سائسها ... بَرْذَلتها وبها التَّحْجيل والغرَر [1]

وقال الفرزدق :

ألم تَــرَ أنــا بنى دارِم ... زُرارةُ منــا أبــو مَعْبَدِ

ومِنــا الذى منع الوائــداتِ ... وأحيــا الوَئِيــدَ فلم تُوأدِ

ألَسْنا بأصحــابِ يوم النِّســار ... وأصحـــابِ ألويــة المِرْبَــد

ألسنا الذيـــن تميمٌ هم ... تُســامى وتفخــر فى المَشْهَد

وناجِية الخــير والأقْرعــان ... وقبرٌ بـــكاظمــةَ الــمَوْرِد

إذا ما أتى قـــبرَه عائـــذٌ ... أنــاخ على القـــبر بالأسْعُد

أيطلُب مجـــــدَ بنى دارمٍ ... عَطِيَّةُ كالجُعَــلِ الأســـود

ومجـــــدُ بنى دارم دونَــه ... مـــكانُ السِّماكَيْنِ والفرْقَــد

---

(1) برذلتها : جعلتها براذين ، وهى ما ليس من نتاج العرب من الخيل . والتحجيل : البياض فى قوائم الفرس . الغرو : البياض فى مقدم رأسه .

زرارة الذى ذكــــر : هو زرارة بن عــُدَس ، وكان زرارة يكنى أبا معبد .

أمـــا قولـــه : ومنا الذى منع الوائدات ، فإنه يعنى جـــده صَعْصعة بن ناجِيـــة ، وكـــانت العرب فى الجاهلية تَئِد البنات . ولم يكن هذا فى جميعها ، إنما كان فى تميم ابن مُرّ ثم استفاض فى جيرانهم . فهذا قول واحد . وقال قوم آخرون : بل كان فى تميم وقيس وأسد وهُذَيل وبــكر بن وائل ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الــلهمّ اشــدد وَطــأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كِسِنى يوسف ». فأجدبوا سبع سنين ، حتى أكلوا الوَبر بالدم ، ولهذا أبان الله عز وجل تحريم الدم ، ودل على ما من أجله قتلوا البنات، فقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ ، وقال : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ ، فهذا خبر بَيِّن أن ذلك للحاجة .

وقد روى بعضهم أنهم إنما فعلوا ذلك أنفـــة . وذكر أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى أن تمـــيما مـــنعت الـــنعمان الإتاوة . فوجه إليهم أخاه الرّيان بن المنذر ، وكانت للـــنعمان خمـــس كـــتائب : إحداها الوَضائع ، وهم قوم من الفرس كان كسرى يضعهم عنده عُدّة ومَددا ، فيقيمون سنة عند الملك من ملوك لَخْم ، فإذا كان فى رأس الحَول رَدهَّم إلى أهليهم وبعث بمثلهم ؛ وكتيبة يقال لها الشَّهباء ، وهى أهل بيـــت المـــلك ، وكـــانوا بيض الوجوه يسمُّون الأشاهب ؛ وكتيبة ثالثة يقال لها الصَّـــنائع، وهم صنائع الملك ، أكثرهم من بكر بن وائل ؛ وكتيبة رابعة يقال لها الـــرَّهائن ، وهـــم قـــوم كان يأخذهم من كل قبيلة فيكونون رهنا عنده ثم يوضع مكانهم مثلهم ؛ والخامسة دَوْسَر ، وهى كتيبة ثقيلة تجمع فرسانا وشجعانا من كل قبيلة. فأغزاهم أخاه ، وجلّ من معه بكر بن وائل . فاستاق النَّعَم وسبى الذرارىّ. فوفدت إليه بنو تميم . فلما رآها أحب البُقيا ، فأناب القومُ وسألوه النساء . فقال النعمـــان : « كل امرأة اختارت أباها ، رُدَّت إليه ، وإن اختارت صاحبها تُركت

عــليه » فكــلهن اختارت أباها إلا ابنة لقيس بن عاصم ، فإنها اختارت صاحبها عمرو بن المُشَمرَج . فنذر قيس أن لا تولد له ابنة إلا قتلها ، فهذا شيء يعتلّ به من وَأد ، ويقــول: « فعلناه أنفة » . وقد أُكْذِب ذلك بما أنزل الله تعالى فى القرآن . وقال ابن عباس رحمه الله فى تأويل هذه الآية : « وكانوا لا يُورِّثون ولا يتخذون إلا من طاعن بالرمح ومنع الحريم » ، يريد الذُّكْران .

وروت الــرواة أن صعصــعة بن ناجية لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأســلم ، قال : « يا رسول الله ، إنى كنت أعمل عملا فى الجاهلية أَفَيَنْفعُنى ذلك اليــوم ؟ » . قال : « وما عملك ؟ » قال : « أَضْلَلْتُ ناقتين عُشَراوَيْن ، فركبت جملا ومضيت فى بُغائِهما [1] . فرُفِع لى بيت حَرِيدٌ [2] فقصدته . فإذا شيخ جالس بفــناء الدار فسألته عن الناقتين » . فقال : « ما نارُهما ؟ » قلت : « ميسم بنى دارم » . فقال : « هما عندى وقد أحيا الله بهما قوما من أهلك مضر » . فجلست معــه لتُخرَجــــــــا إلىّ ، فإذا عجوز قد خرجت من كسْر البيت ، فقال لها : « مــا وضعت ؟ فإنْ كان سَقْبا شاركَنا فى أموالنا ، وإن كان حائلا وَ أدْناها » . فقــالت العجــوز : « وضعت أنثى » ، فقلت : « أتبيعها ؟ » قال : « وهل تبيع العرب أولادها ؟ » قلت : « إنما أشترى منك حياتها ولا أشترى رِقَّها » . قــال : « فــبكم ؟ » قلت : « احتــكمْ » ، قال « با لناقتين والجمل » قلت : « ذاك لك على أن يبلّغنى الجمل وإياها » . ففعل فآمنت بك يا رسول الله وقد صارت لى سُنة عَلَى أن أشترى كل مَوْءودة بناقتين عشراوين وجمل . فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومئتــا موءودة فقد أنقذتها . فقال رسول الله صلى الله عليه وســـــــــلم :

---

(1) بغائهما : طلبهما .

(2) حريد : منعزل عن الناس .

« لا ينفعك ذلك ، لأنك لم تبتغِ به وجه الله . وإنْ تعمل فى إسلامك عملا صالحا ، تُثَب عليه ».

وأما قوله : قبر بكاظمة المورد ، فإنه يعنى قبر أبيه غالب بن صعصعة بن ناجية. وكان الفرزدق يُجِير من استجار بقبر أبيه ، وكان أبوه جوادا شريفا . فممن استجار بقبر غالب فأجاره الفرزدق امرأة من بنى جعفر بنِ كلاب، خافت لما هجا الفرزدق بنى جعفر بن كِلاب أن يسميها ويسبها ، فعاذت بقبر أبيه . فلم يذكر لها اسما ولا نسبا ، ولكن قال فى كلمته التى يهجو فيها بنى جعفر بن كلاب :

عجوزٌ تصلّى الخمس عاذتْ بغالبٍ ... فلا والذى عاذت به لا أضِيرُها

ومن ذلك أن الحجاج لما ولّى تميم بن زيد القَيْنىّ السِّنْد ، دخل البصرة . فجعل يُخرج من أهلها من شاء . فجاءت عجوز إلى الفرزدق فقالت : « إنى استجرت بقبر أبيك » ، وأتت منه بحَصَيات . فقال لها : « وما شأنك ؟ » فقالت : « إن تميم بن زيد خرج بابن لى معه ، ولا قرّة لعينى ولا كاسبَ لى غيره » . فقال لها : « وما اسم ابنك ؟ » فقالت : « خُنَيس » فكتب إلى تميم بن زيد مع بعض مَنْ شَخَص :

تميم بن زيد لا تكونَنّ حاجتى ... بظَهْرٍ فلا يَعْيا علىَّ جوابُها

وَهبْ لى خُنَيسا واحتسب فيه منّةً ... لعَبرةِ أُمٍّ ما يسوغُ شرابُها

أتتنى فعاذتْ يا تميمُ بغالب ... وبالحفرةِ السافى عليها تراهُا

وقد علم الأقوام أنك ماجد ... وليثٌ إذا ما الحربُ شبّ شهابُها

فلما ورد الكتاب على تميم تشكك فى الاسم فقال : « أحبيش أم خنيس » ثم قال : « انظروا من له مثل هذا الاسم فى عسكرنـــا » ، فأصيب ستة ما بين حبيش وخنيس فوجـــه بهم إليه .

ومـــنهم مُكاتَب لبنى مِنْقَرٍ ظلع بمكاتبته [1] . فأتى قبر غالب فاستجار به . وأخـــذ منه حَصَيات فشدّهنّ فى عمامته ثم أتى الفرزدق فأخبره ، وقال : « إنى قد قلت شعرا » فقال : « هاتِه » فقال :

بقَبرْ ابنِ ليلى غالبٍ عُذْتُ بعدمـــا خَشيتَ الرَّدَى أوأن أُرَدَّعلى قَسرِ
بقبرِ امرئٍ تَقرِى المِئِينَ عظامُـــــه ولم يَكُ إلا غالبـــــا ميتٌ يَقْرِى
فقالَ لىَ : استَقْدِم أمامك إنمـــــا فكاكُكَ أنْ تلقَى الفرزدقَ بالمصْرِ

فقال له الفرزدق : « ما اسمك ؟ » قال : « لَهْذَم » . قال : « يالهذم ، حُكمُك مُسَــمَّطا » . قـــال : « ناقة كَوْماء سوداء الحدقة » قال : « يا جارية اطرحى إلينا حَـــبْلا » ثم قـــال « يا لهذم ، اخرج بنا إلى المِرْبد فألْقِه فى عنق ما شئت » . فتخير العبد على عينه ثم رمى بالحبل فى عنق ناقة . وجاء صاحبها ، فقال له الفـــرزدق : « اغْــدُ علىّ فى ثمنها » . فجعل لهذم يقودها والفرزدق يسوقها ، حتى إذا نفذ بها من البيوت إلى الصحراء صاح به الفرزدق : « يالهذم قَبح الله أَخْسرَنا ! » .

---

[1] المكاتب : العبد الذى تعهد كتابة أن يدفع لسادته مبلغا من المال نظير حريته . وظلع بمـــكاتبته : عجز عنهـــا .

الخداع

يروى أن يزيد بن معاوية قال لمعاوية فى يوم بويع له على عهده ، فجعل الناس يمدحونـــه ويقـــرظونـــــه : « يا أمير المؤمنين ، والله ما ندرى : أنخدع الناس أم يخدعوننا ؟ » فقال له معاوية : « كل من أردت خديعته فتخادع لك حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته » .

سفارات

لمـــا وجّه عبد الملك الشّعْبِىّ إلى صاحب الروم فكلّمه ، قال له صاحب الروم بعـــد انقضاء ما بينهما : « أضِمن أهل بيت المملكة أنت ؟ » قـــال الشعبى : « لا ولكنى رجل من العرب » فكتب معى رقعة وقال لى : « إذا أديت جواب ما جئت لـــه ، فأدّ هذه الرقعة إلى صاحبك » . فلما رجعت إلى عبد الملك فأعطيته جواب كـــتابه وخبّرته بما دار بيننا نهضت . ثم ذكرت الرقعة فرجعت فدفعتها إليه . فلما ولّيـــتُ دعانى فقال لى : « أتدرى ما فى هذه الرقعة ؟ » . قلت : « لا » قال : « فيها : العجب لقوم فيهم مثل هذا كيف وَلوا أمورهم غيره » . فلما ولّيت دعانى فقـــال لى : « أفـــتدرى ما أراد بهذا ؟ » . قلت : « لا » . قال : « حسدنى عليك فأراد أن أقتلك » . فقلت : « إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين لأنه لم يرك ». فرجع الـــكلام إلى ملك الروم ، فقال : « لله أبوه ، ما عدا ما فى نفسى » .

وحُدِّثت أن معـــاوية كان إذا أتاه عن بَطْريقٍ من بطارقة الروم كيد للإسلام، احـــتال لـــه . فأهدى إليه وكاتَبه حتى يُغْرِىَ به ملك الروم . فـــكانت رسله تأتيه

obeikandi.com

فتخبره بأن هناك بطريقا يؤذى الرُّسُل ويطعن عليهم ويسىء عشرتهم . فقال معاوية : « أى ما فى عمل الإسلام أحبّ إليه ؟ » فقيل له : « الخفَاف الحمر ودُهْن البان » . فألْطفه بهما حتى عرفتْ رسلُه باعتياده . ثم كتب إليه كتابا كأنه جواب كتاب منه ، يعْلِمُه فيه أنه وثق بما وعده به من نصره وخذلان ملك الروم ، وأمر الرسول بأن يتعرض لأن يُظهَر على الكتاب . فلما ذهبت رسله فى أوقاتها ثم رجعت إليه ، قال : « ما حدث هناك ؟ » . قالوا : « فلان البطريق رأيناه مقتولا مصلوبا » . فقال : « وأنا أبو عبد الرحمن ! » .

وحُدِّثت أن ملك الروم فى ذلك الأوان وجّه إلى معاوية : « إن الملوك قبلك كانت تراسل الملوك منا ، ويجهد بعضهم فى أن يُغرِب على بعض . أفتأذن فى ذلك ؟ » . فأذن له . فوجّه إليه برجلين أحدهما طويل جسيم والآخر أيِّد[1] . فقال معاوية لعمرو : « أما الطويل فقد أصبنا كفاه ، وهو قيس بن سعد بن عُبادة وأما الآخر الأيد فقد احتجنا إلى رأيك فيه » . فقال : « ههنا رجلانِ كلاهما إليك بغيض : محمد بن الحَنَفِيّة وعبد الله بن الزبير » . فقال معاوية : « من هو أقرب إلينا على كل حال » . فلما دخل الرجلان ، وجه إلى قيس بن سعد بن عبادة يُعْلمه . فدخل قيس فلما مَثَل بين يدى معاوية ، نزع سراويله فرمى بها إلى العلج فلبسها، فنالت ثَنْدُوَته [2] . ثم وجه إلى محمد بن الحنفية فدخل فخُبر بما دعى له ، فقال : « قولوا له : إن شاء فليجلس وَلْيُعْطِنى يده حتى أقيمه أو يقعدنى، وإن شاء فليكن القائم وَأنا القاعد » . فاختار الرومى الجلوس فأقامه محمد ،

---

(1) الأيد : القوى .

(2) الثندوة : حلمة الثدى .

وعجز محمد عن إقعاده ، ثم اختار أن يكون محمد هو القاعد فجذبه وأقعده ، وعجز الرومىّ عن إقامته . فانصرفا مغلوبين .

وحدثنى أحد الهاشميين أن ملك الروم وجه إلى معاوية بقارورة ، فقال : « ابعثْ إلىَّ فيها من كل شىء » . فبعث إلى ابن عباس ، فقال : « لِتُمْلأْ له ماء » . فلما ورد بها على ملك الروم ، قال : « لله أبوه ، ما أدهاه » . فقيل لابن عباس : « كيف اخترت ذلك ؟ » . فقال : « لقول الله عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ » .

وقيل لرجل من بنى هاشم ، وهو جعفر بن محمد ، وكان يقُدَّم فى معرفته : « ما طعم الماء ؟ » . فقال : « طعم الحياة » .

وكان قيس بن سعد شجاعا جوادا سيدا . وجاءته عجوز قد كانت تألفه ، فقال لها : « كيف حالك ؟ » فقالت : « ما فى بيتى جُرذ » . فقال : « ما أحسن ما سألتِ ! أمَا والله لأكثِرن جُرذان بيتك » .

وكان سعد بن عبادة حيث توجه إلى حَوْران قسَّم ماله بين ولده . وكان له حَمْل لم يشعر به . فلما وُلِد له قال له عمر بن الخطاب يَعنى قيسا : « لأنْقُضَنَّ ما فعل سعد » . فجاءه قيس فقال : « يا أمير المؤمنين ، نصيبى لهذا المولود ولا تنقض ما فعل سعد » .

أولاد الإماء

قال السُّلَيك بن السُّلكة ، وهى أمه ، وكانت سوداء حبشية ، وكان من غربان العرب ، وهو السليك بن عُمَير السعْدِى :

أَلا عَتَبتْ علىَّ فصارمتْنِى ... وأعجبَها ذوو اللّمم الطّوالِ
فإنى يا بنة الأقوام أرْبِى ... على فِعْلِ الوَضىِّ من الرجال
فلا تَصِلى بصعلوكٍ نؤومٍ ... إذا أمسى يُعَدُّ من الرجال
ولكنْ كلُّ صعلوكٍ ضروبٍ ... بنصل السيفِ هاماتِ الرجال
أشاب الرأسَ أنى كلَّ يوم ... أرى لى خالةً وسْطَ الرحال
يَشُقُّ علىَّ أنْ يَلْقَينَ ضَيْما ... ويَعْجِز عن تَخلُّصهن مالى

قوله : وأعجبها ذوو اللمم الطوال ، يعنى الجُمَم . وقوله : على فعل الوضىِّ من الرجال ، يريد الجميل . وقوله : تصلى بصعلوك ، يقول : لا تتصلى به . وإنما توجع لخالاته لأنهن كنّ إماء .

ويروى عن رجل من قريش لم يُسَمَّ لنا قال : كنت أجالس سعيد بن المُسيَّب فقال لى يوما : « من أخوالك ؟ » . فقلت : « أمى فتاة » . فكأنى نقصت فى عينه . فأمهلتُ حتى دخل عليه سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رحمه الله . فلما خرج من عنده ، قلت : « يا عم من هذا ؟ » فقال : « يا سبحان الله ! أتجهل مثل هذا من قومك ؟ هذا سالم بن عبد الله » . قلت : « فمن أمه ؟ » قال: « فتاة » . ثم أتاه القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رحمه الله ، فجلس عنده ثم نهض فقلت : « يا عم من هذا ؟ » . فقال : « أتجهل من أهلك مثله ؟ ما

أعجب هذا ! هذا القاسم بن محمد » . قلت : « فمن أمه ؟ » . قال : « فتاة » . فأمهلت شيئا حتى جاءه على بن الحسين بن على بن أبي طالب رضى الله عنه فسلم عليه ثم نهض فقلت : « يا عم من هذا ؟ » . قال : « هذا الذى لا يسع مسلما أن يجهله . هذا على بن الحسين » . قلت : « فمن أمه ؟ » . قال : « فتاة » . قلت : « يا عم رأيتُنى نقصت فى عينك لما علمت أنى لأمِّ ولد ، أفمالى فى هؤلاء أسوة ؟ » . فجللتُ فى عينه جدا . وكانت أم على بن الحسين سُلافة من ولد يَزْدَ جِرد معروفة النسب ، وكانت من خيرات النساء .

وقال رجل من ولد الحكم بن أبي العاص ، يقال له عبيد الله بن الحُرِّ ، وكان شاعرا متقدما ، وكان لأم وَلَدَ :

فإنْ تَكُ أمى من نساء أفاءَها ... جياد القنا والمُرهَفاتُ الصَّفائح
فَتبًّا لفضل الحُرِّ إنْ لم أُنَلْ به ... كرائمَ أولادِ النساء الصَّرائح

وإنما أخذ هذا من قول عنترة :

وأنا امرؤٌ من خير عبسٍ مَنصِبا ... شَطْرِى وَأَحْمِى سائرى بالمُنصُلِ

وأنشد لبلال بن جرير ، وبلغه أن موسى بن جرير كان إذا ذكره نسبه إلى أمه لأنه ابن أم ولد ، فيقول : « قال ابنُ أمِّ حكيم » . فقال بلال :

يارُبَّ خالٍ لى أغَرَّ أبْلَجا
من آلِ كسرى يَغْتَدى مُتَوَّجا
ليس كخالٍ لك يُدْعَى عَشْنَجَا

والعشنج : المتقبض الوجه السيىء المنظر ، وكان سبب أم بلال عند جرير ، أن جريرا فى أول دخوله العراق دخل على الحكم بن أيوب بن أبى عَقِيل الثَّقفى، وهو ابن عم الحجاج وعامله على البصرة . وفى ذلك يقول جرير :

أقْبَلْنَ من ثَهْلانَ أو وادى خِيَمْ
على قِلاصٍ مثل خيطان السَّلَمْ [1]
إذا قطعنَ عَلَما بدا علم
حتى أنخْناها إلى باب الحَكَمْ
خليفة الحجاج غير المتهم
فى ضِنْضِيءِ المجد وبُحْبوح الكرم [2]

فكتب الحكم بعد أن فاطَنه [3] إلى الحجاج ، وذلك فى أول سببه : «إنه قدم علىّ أعرابى باقعة [4] لم أر مثله » . فكتب إليه الحجاج أن يحمله معه . فلما دخل عليه ، قال له : «بلغنى أنك ذو بديهة ، فقل فى هذه الجارية » ، لجارية قائمة على رأسه . فقال جرير : «مالى أن أقول فيها حتى أتأملها ، ومالى أن أتأمل جارية الأمير» . فقال : «بلى فتأملها واسألها» ، فقال لها : «ما اسمك يا جارية» فأمسكت . فقال لها الحجاج : «خَبِّريه يا لَخْناء» . فقالت : «أمامة» . فقال جرير :

---

(1) القلاص : جمع قلوص ، وهى الناقة الشابة . والخيطان : جمع خيط ، وهو الجماعة . والسلم : نوع من الشجر يدبغ به .
(2) ضنضىء : أصل . وبحبوح الكريم : الواسع منه الغزير .
(3) فاطنه : اختبر فطنته وعرفها .
(4) باقعة : داهية .

وَدِّعْ أمامةَ حانَ منـــك رحيلُ ... إنّ الوَداعَ لمـــن يُحبُّ قليلُ
مثلَ الكَثيبِ تمايلتْ أعطافُـــه ... فالرِّيحُ تَجْبُر مَتْنَه وتَهِيـــل
هَذِى القلوبُ صَوادِيا تَيَّمتِهـــا ... وأرى الشفاءَ وما إليـــه سبيل

فقال له الحجاج : «قد جعل الله لك السبيل إليها ، خذها هى لك» . فضرب بيده إلى يدها فتمنعت عليه فقال :

إن كان طبعـــكمُ الدلال فإنه ... حسنٌ دَلالك يا أمـــامَ جميلُ

فاستضحك الحجاج ، وأمر بتجهيزها معه إلى اليمامة . وخُبِّرت أنها كانت من أهـــل الرىّ ، وكان إخوتها أحرارا ، فاتبعوه بها حتى بلغوا عشرين ألفا فلم يفعل . ففى ذلك يقول :

إذا عرضوا عشرين الفا تعرّضتْ ... لأم حكيم حاجةٌ هى ما هيــــا
لقد زدتِ أهلَ الرى عندى مودة ... وحَبَّبت أضعافا إلىّ المواليـــــا

فأولدها حكيما وبلالا وحَزْرة بنى جرير ، هؤلاء من أذْكُر من ولدها .

ويقال : إن الحِمّانى قاوَل بلالا ذات يوم فيما كان بينهما من الشر ، فقـــال : «يـــا ابن أم حكيم» . فقال لـــه بلال : «ما تذكر من ابنة دِهْقان ، وأخِيذة رماح وعطيـــة مَلِك . ليست كأمك التى بالمرُّوت تغدو على أثر ضأنها كأنما عَقِباها حافرا حمـــار» . فقال له الحمانى : «أنا أعلم بأمك إنما عتب عليها الحجاج فى أمر ، الله أعلم به ، فحلف أن يدفعها إلى الأم العرب. فلما رأى أباك لم يشكك فيه» .

وأنشِدت لرجل من رُجّاز بنى سعد :

أنا ابنُ سعدٍ وتَوَسَّطتُ العَجَمْ
فأنا فيما شئت من خالٍ وعَمْ

وقال عمر بن الخطاب رحمه الله : «ليس قوم أكْيَس من أولاد السَّرارى لأنهم يجمعون عزّ العرب ودهاء العجم» .

وكتب أمير المؤمنين المنصور إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على ابن أبى طالب رحمهم الله ، لما كتب إليه محمد : « واعلم أنى لست من أولاد الطلقاء ولا أولاد اللُّعناء ، ولا أعرقتْ فىّ الإماء ، ولا حَضَنتْنى أمهات الأولاد ولقد علمتَ أن هاشما ولد عليا مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى من قِبَل جَدَّىَّ الحسن والحسين » . يعنى أن أم علىّ فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وأم الحسن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، وأن أمه فاطمة بنت الحسين بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم . فكتب إليه المنصور : « أما ما ذكرت من ولادة هاشم عليا مرتين ، وولادة عبد المطلب الحسن مرتين ، فخير الأوَّلين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلده هاشم إلا مرة واحدة ، وله السبق إلى كل خير . ولقد علمت أنه بُعِث رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعة : فآمن به اثنان أحدهما أبى ، وكفر به اثنان أحدهما أبوك . وأما ما ذكرت أنه لم تُعْرِق فيك الإماء ، فقد فخرت على بنى هاشم طرا ، أولهم إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم علىّ بن الحسين الذى لم يولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مولود مثله » . وهذه رسالة للمنصور طريفة مستحسنة جدا .

وأنشدنى الرِّياشىّ :

إنّ أولادَ السَّـرارِى كَثُروا يارب فينـــا
رَبِّ أدْخِـلْنى بلادا لا أرى فيها هَجِينـــا

والهجــين عــند العرب الذى أبوه شريف وأمه وضيعة ، والأصل فى ذلك أن تكــون أمَــة ، وإنما قيل هجين من أجل البياض . وإذا كانت الأم كريمة والأب خسيسا قيل : المُدَرَّع ، وإنما سمى مدرعا للرَّقْمَتَين فى ذِراع البغل ، وإنما صارتا فيه من ناحية الحمار .

مصعب وابنــه

يروى عن رجل من بنى أسد بن عبد العزَّى أنه زوج ابنته عمرو بن عثمان بن عفـــان . فـــلما نُصَّت عليه طلقها على المِنَصَّة . فجاء أبوها إلى عبد الله بن الزبير فقال : «إن عمرو بن عثمان طلق ابنتى على المنصة ، وقد ظنَّ الناس أن ذلك لعاهة وأنـــت عمهـــا فقم فادخل إليها» . فقال عبد الله : «أو خيرا من ذلك ، جيئونى بالمصعب» . فخطب عبد الله فزوجها من المصعب ، وأقسم عليه لَيَدْخُلنّ بها فى ليلته . فلا تعرف امرأة نُصّت على رجلين فى ليلتين ولاء غيرها . فأولدها المصعب عيســى وعُــكّاشة . فلما كان يوم مَسْــكَن ، وهرب أكثر الناس عن المصعب ، دخــل إلى سُــكَينة ابنة الحسين بن على ، وكانت له شديدة المحبة ، وكانت تخفى ذلك . فلبس غلالة ، وتوشح عليها ، وانتضى السيف . فلما رأت ذلك علمت أنه عزم ألا يرجع . فصاحت من ورائه : «واحَرَبَاه» . فالتفت إليها فقال : «أوَهذا لى فى قلــبك ؟» . فقالت : «أى والله وأكثر من هذا» . فقال : «أما لو علمت

لـكان لى ولك شان » . ثم خرج فقال لابنه عيسى : «يا بنى انجُ إلى نجائك فإن القـوم لا حاجـة بهم إلى غيرى ، وستفلت بحيلة أو بقيا » . فقال : «يا أبتاه ، لا أحـدِّث والله عنك أبدا » . فقال : «أما والله لئن قلت لَمَا زلت أتعرف الكرم فى أسرارك وأنت تُقلّب فى مهدك » . فقُتل بين يدى أبيه .

الكرم

قـال عبد الله بن العباس : «ما رأيت أحدا أسعفتُه فى حاجة إلا أضاء ما بينى وبينه ، ولا رأيت رجلا رددته عن حاجة إلا أظلم ما بينى وبينه» .

وقال عبد الله بن هَمام السَّـلُولى :

فأخْلفْ وَأتْلِفْ إنّما المـال عارَةٌ ... فـكُلْه معَ الدهر الذى هو آكلُهْ
فأهْون مفقودٍ وَ أ يْسرُ هـالكٍ ... عَلَى الحىِّ من لا يبلغ الحىَّ نائلُهْ

وقـد قيـل لعلى بن الحسين ، وَكان بَيِّن الفضل رحمه الله : « ما بالك إذا سافرت كتمت نسبك أهلَ الرفقة ؟ » .فقال : أكره أن آخذ برسول الله صلى الله عـليه وسلم مالا أُعطى مثله . وإنما يَعْتَرِى هذا الباب من الظلم وَقلة الإنصـاف والـبعد من الرّقة عليهم الجَهلَة من أهل هذا النسب ، والله جلّ ذكره يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فإذا كان هو صلى الله عليه وسلم يخاف من المعصية فكيف يأمنها غيره به .

وكان يقال : من عرف حق أخيه دام له إخاؤه ، وَمن تكبر على الناس، ورجا أن يكون له صديق فقد غرّ نفسه .

وقيل : ليس لِلَجُوج تدبير ، وَلا لسيىء الخلق عيش ، ولا لمتكبر صديق .

وقيل : من بسط بالخير لسانه انبسطت فى القلوب محبته ، والمِنّة تفسد الصنيعة .

ويروى أن شاعرا أتى أبا البَختَرِىّ وَهب بن وهب ، وكان من أجود الناس ، وَكان إذا سمع مدح المادح ضحك وَسرَى السرور فى جوانحه وأعطى وزاد ، فأتاه هذا الشاعر فأنشده :

لكلّ أخى فضل نصيبٌ من العلا ... ورَأسُ العُلا طُرًّا عَقيدُ النَّدَى وَهْب
ومَاضَرَّ وَهبا قولُ من غَمَط العلا ... كما لا يَضُرّ البدرَ ينبحهُ الكلب

فثنى له الوسادة وَهَش إليه ورَفَده وَحمله وَأضافه . فلما أن أراد الرجل الرحلة لم يخدمه أحد من غلمان أبى البخترى وَلا عَقَد له وَلا حَلّ معه . فأنكر ذلك مع جميل ما فُعِل به ، وأنه قد تجاوز به أمله . فعاتب بعضهم فقال له الغلام : « إنما نعين النازل عَلَى الإقامة ولا نعين الراحل عَلَى الفراق » . فبلغ هذا الكلام جليلا من القرشيّين فقال : « وَالله لَفِعْلُ هؤلاء العبيد عَلَى هذا القصد أحسن من رِفْد سيدهم » .

مجلس عبد الملك بن مروان

قـال عبد الملك بن مروَان يوما لجلسائه ، وكان يجتنب غير الأدباء : « أى المناديل أفضل ؟ » فقال قائل منهم : « مناديل مصر كأنها غِرْقِىء البيض » ، وَقال آخر : « مناديل اليمن كأنها أنوار الربيع » . فقال عبد الملك : « ما صنعتما شيئا، أفضل المناديل ما قال أخو تميم » يعنى عَبْدة بن الطبيب :

لما نزلْنـا نصبْنا ظِـلَّ أخبِيةٍ ... وفار للقوم باللحم المَراجِيـلُ
وَرْدٌ وأَشقَرُ ما يُؤْنِيه طابخُـه ... ما غَيَّرَ الغَلْيُ منه فهو مأكـول
ثُمَّتَ قُمْنا إلى جُرْدٍ مُسَوَّمـةٍ ... أعْرافُهنّ لأيدينـا مناديـل

قوله : غرقئ البيض ، يعنى القشرة الرقيقة التى تركب البيضة دون قشرها الأعـلى ، وقشرها الأعلى يقال لـه القَيض . وقوله : وَرد وَأشقر ما يؤنيه طابخه يقـول : ما تغير من اللحم قبل نضجه . وقوله : ما يؤنيه طابخه ، يقول : ما يؤخره لأنه لو أناه لأنضجه ، لأن معنى أناه بلغ به إناه أى إدراكه ، قال الله عـز وجل : ﴿ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾. وَقوله : مسومة ، تـكون على ضربين : أحدهما أن تكون مُعْلَمة ، والثانى أن تكون قد أُسِيمت فى المَرْعَى ، وهى ههنا معلمة .

كثير عزة

حُدثت أن عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة أتى المدينة فأقام بها . ففى ذلك يقول :

يا خَليلىَّ قـد مللتُ ثَوائِى ... بالمُصَلَّى وقـد شَنِئتُ البقيعـا

فلما أراد الشخوص شَخَص معه الأحوص بن محمد ، فلما نزلا وَدّان صار إليهما نُصَيب . فمضى الأحوص لبعض حاجته فرجع إلى صاحبيه ، فقال : « إنى رأيت كُثَيِّرا بموضع كذا » . فقال عمر : « فابعثوا إليه ليصير إلينا » . فقال الأحوص : « أهو يصير إليكم ؟ هو والله أعظم كِبْرا من ذلك » . قال : « فإذا نصير إليه » . فصاروا إليه وهو جالس على جلد كبش ، فوالله ما رفع منهم أحدا ولا القرشىّ . ثم أقبل على القرشى فقال : « يا أخا قريش ، والله لقد قلت فأحسنت فى كثير من شعرك ، ولكن خبرنى عن قولك :

قالتْ لها أختُها تعاتبُها ... لا تُفْسِدِنَّ الطوافَ فى عُمَرِ
قُومى تَصَدّىْ له لِيُبْصِرَنا ... ثم اغْمِزِيه يا أختُ فى خَفَر
قالتْ لها قد غمزتُه فأَبى ... ثم اسْبَطَرَّتْ تشتدّ فى أَثَرى

والله لو قلت هذا فى هِرّةٍ ما عدا ، أردت أن تنسب بها فنسبت بنفسك أهكذا يقال للمرأة ؟ إنما توصف بالخَفَر وأنها مطلوبة ممتنعة . هَلاّ قلت كما قال هذا وضرب بيده على كتف الأحْوَص :

أدورُ ولولا أن أرَى أمّ جعفر ... بأبياتكم ما درتُ حيث أدُورُ
وما كنت زَوّارا ولكنّ الهوى ... إذا لم يُزَرْ لا بدّ أنْ سيزور
لقد منعتْ معروفَها أمُّ جعفر ... وإنى إلى معروفها لفقير

فامتلأ الأحوص سرورا . ثم أقبل عليه فقال : يا أحوص ،خبرنى عن قولك :

فإنْ تَصِلى أصلْكِ وإنْ تعودى ... لهَجْر بعد وَصلِك لا أبالى

أمـا والله لو كنت من فحول الشعراء لباليت ، هلا قلت مثل ما قال هذا . وضرب بيده على جنْب نصيب :

بزينب ألْمِمْ قبلَ أن يَظْعَنَ الرَّكْبُ وقُلْ إنْ تَمَلّينا فما مَلّكِ القلبُ

فانتفخ نصيب . ثم أقبل عليه فقال : « ولكن أخبرنى عن قولك يا أسود :

أهيمُ بدَعْدٍ ما حَييتُ وإنْ أمُتْ فواحَزَنا من ذا يهيم بها بعدى ؟

كـأنك اغتممت أن لا يُفعل بها بعدك » . فقال بعضهم لبعض : « قوموا فقد استوت القِرفْة » . وهى لعبة على خطوط فاستواؤها انقضاؤهـا .

وحُدِّثـت أن كُـثَيرا دخـل على عبد الملك بن مروان ، وعنده الأخطـل ، فأنشده . فالتفت عبد الملك إلى الأخطل فقال : « كيف تـــرى ؟ » فقال : « حجـازى مُجـوَّع مقرور ، دعنى أضْغَمهُ يا أمير المؤمنين » . فقال كثير : « من هـذا يـا أمير المؤمنين ؟» . فقال له : « هذا الأخطل» . فقال له كثير : « مهلا ! فهـلا ضغمتَ الذى يقول :

لا تَطْلُبَنّ خُـؤولةً فى تغلب فالزَّنْجُ أكرمُ منهـمُ أخْوالا
والتَّغْلَبِىّ إذا تَنَحْنَـح للقِرَى حَكّ اسْتَه وتَمثّل الأمثـالا

فسكت الأخطل فما أجابه بحرف » .

نصيب

خُبِّرت أن نُصَيبا نزل بامرأة تُكنَى أم حبيب من أهل مَلَل ، وكانت تُضيف فى ذلك الموضع وتَقرِى ، ولا يزال الشريف قد نزل بها فأفضل عليها الفضل الكثير ، ولا يزال الشريف ممن لم يَحْلُل بها يتناولها بالبر ليعينها على مُرُوءتها. فنزل بها نصيب ومعه رجلان من قريش . فلما أرادوا الرحلة عنها وَصَلها القرشيّان ، وكان نُصيب لا مال معه فى ذلك الوقت ، فقال لها : «إن شئت فلك أن أُوجِّه إليك بمثل ما أعطاك أحدهما ، وإن شئت قلتُ فيك شعرا» . فغَزِلت أمّ حبيب فقالت : «بل الشعر» . فقال :

ألاَ حَىِّ قبلَ البَيْن أمّ حبيبِ ... وإن لم تكن منا غدا بقريبِ
وإنْ لم يكن أنى أحبك صادقا ... فما أحدٌ عندى إذا بحبيب
تَهامِ أصابتْ قلبَه مَلِيَّةٌ ... غريبُ الهوى وَاهًا لكل غريب

وحُدثت أن نصيبا أتى عبد الملك فأنشده . فاستحسن عبد الملك شعره وسُرّبه فوصله . ثم دعا بالغداء فطَعم معه . فقال له عبد الملك : «يا نصيب ، هل لك فيما يتُنادَم عليه ؟» فقال : «يا أمير المؤمنين ، تأمّلنى» قال : «قد أراك». فقال : «يا أمير المؤمنين ، جلدى أسود ، وخَلْقى مشوّه ، ووجهى قبيح ، ولست فى منصب ، وإنما بلغ بى مجالستك ومؤاكلتك عقلى . وأنا أكره يا أمير المؤمنين أن أدخل عليه ما ينقصه» . فأعجبه كلامه ، فأعفاه .

وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج فى وَفْدة وَفدها عليه ، وقد أكلا : «هل لك فى الشراب ؟» فقال : «يا أمير المؤمنين ، ليس بحرام ما أحللتَه ، ولكنى

أمنع أهل عملي منه وأكره أن أخالف قولَ العبد الصالح : وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » . فأعفاه .

وقال مَسْلمة بن عبد الملك يوما لنصيب : « أمدحتَ فلانا ؟ » لرجل من أهله. فقال : « قد فعلت » . قال : « أوَ حرمك ؟ » قال : « قد فعل » . قال : « فهَلاَّ هجوته » . قال : « لم أفعل » . قال : « ولم ؟ » قال : « لأنى كنتُ أحق بالهجاء منه ، إذ رأيته موضعا لمدحى » . فأعْجِب به مسلمة . فقال : « اسألنى » قال : « لا أفعل » قال : « ولم ؟ » فقال : « لأن كفك بالعطية أجود من لسانى بالمسألة » فوهب له ألف دينار .

وحُدثت أن الكميت بن زيد أنشد نصيبا فاستمع له . فكان فيما أنشده :

وقد رأينا بها حُورا مُنعَّمة ... بيضا تكاملَ فيها الدَّلُّ والشَّنَبُ(1)

فثنى نصيب خنصره . فقال له الكميت : « ما تصنع ؟ » فقال : « أحصى خطأك » . تباعدتَ فى قولك : تكامل فيها الدل والشنب ، هلا قلتَ كما قال ذو الرمّة :

لمياء فى شفتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ ... وفى اللثاتِ وفى أنيابها شَنَبُ (2)

ثم أنشده فى أخرى :

كأنّ الغَطامِط من جَرْيِها ... أراجيزُ أسَلْمَ تهجو غِفارا (3)

---

(1) الدل : الدلال . والشنب : عذوبة الأسنان ورقتها .

(2) لمياء : سوداء الشفة . والحوة واللعس : حمرة تضرب إلى سواد قليلا .

(3) الغطامط : جمع غطمطة ، وهى اضطراب أمواج البحر .

فقال له نصيب : «ما هجت أسلم غفارا قط » . فاستحيا الكميت فسكت.

والذى عابه نصيب من قوله تكامل فيها الدل والشنب قبيح جدا ، وذلك أن الكلام لم يجر على نظم ، ولا وقع إلى جانب الكلمة ما يشاكلها . وأول ما يُحتاج إليه القول أن يُنْظَم على نسق وأن يوضع على رسم المشاكلة .

وخُبّرت أن عمر بن لَجَأ قال لابن عم له : «أنا أشعر منك» . قال له: «وكيف ؟» قال : «لأنى أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه» .

وأنشد عمرو بن بحر :

وشِعْر كبعرِ الكبشِ فَرّق بينه لسانُ دَعِيٍّ فى القَريضِ دخيل

وبعر الكبش يقع متفرقا . فمن ذلك قول ابنة الحطيئة له لما نزل فى بنى كليب بن يربوع : «تركت الثروة والعدد ونزلت فى بنى كليب : بعر الكبش» .

أقوال سيارة

يروى أن عائشة رحمها الله نظرت إلى رجل مُتماوِت ، فقالت : «ما هذا ؟» . فقالوا : «أحد القراء » . فقالت : «قد كان عمر بن الخطاب قارئا ، فكان إذا قال أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع » .

ويروى أن عمر بن الخطاب رحمه الله نظر إلى رجل مُظهر للنسك متماوت، فخفقَه بالدرّة وقال : «لا تُمت علينا ديننا أماتك الله » .

وحُدِّثت أن الحسن نظر إلى رجل يجود بنفسه فقال : «إن أمرا هذا آخره لَجَدير بأن يُزْهد فى أوله ، وإنّ أمرا هذا أوله لجدير أن يُخاف آخره » .

وقيل لرجل من أشراف العجم فى علته التى مات فيها : «ما بك ؟» قال : «فكر عجيب ، وحسرة طويلة » . فقيل : «مم ذاك ؟ » فقال : «ما ظنكم بمن يقطع سفرا قفرا بلا زاد ، ويسكن قبرا موحشا بلا مؤنس ، ويقدم على حكم عادل بلا حجة » .

الإخوان

قيل لخالد بن صَفْوان : «أى إخوانك أحب إليك ؟ » فقال : «الذى يَسُد خَلَلى ، وَيغفر زَلَلى ، ويقبل عِللى ».

وافتقد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب صديقا له من مجلسه ثم جاءه فقال له : «أين كانت غيبتك ؟» فقال : «خرجت إلى عُرْض من أعراض المدينة مع صديق لى » . فقال له : «إن لم تجد من صحبة الرجال بُدّا ، فعليك بصحبة من إنْ صحبتَه زانك ، وَ إن خففت له صانك ، وَ إن احتجت إليه مانك[1] ، وَ إن رأى منك خَلّة سَدّها أو حسنة عدّها ، وإن وَعدك لم يُجْرِضك[2] ، وَ إن كَثرُت عليه لم يرفضك ، وَ إن سألته أعطاك ، وَ إن أمسكت عنه ابتداك » .

---

(١) مانك : احتمل مئونتك .

(٢) يجرضك : يجهدك بكثرة الوعــود .

الجــــود

امتدح نصيب عبد الله بن جعفر فأمر له بخَيْل وإبل و أثاث وَ دنانير ودَراهم . فقال له رجل : «أمثل هذا الأسود يعُطى مثل هذا المال ؟ !» . فقال له عبد الله ابــن جعفر : «إن كان أسود فإن شعره لأبيض ، وَ إن ثناءه لعربى ، وَ لقد استحق بما قال أكثر مما نال . و هل أعطيناه إلا ثيابا تبلى ، ومالا يفنى ، ومطايا تُنْضَى [1]، وَ أعطانا مدحا يُرْوَى ، وَثناء يبقى» .

وقيل لعبد الله بن جعفر : «إنك لتبذل الكثير إذا سُئلت ، وَ تضيّق فى القليل إذا تُوجِرت » . فقال : «إنى أبذل مالى وأضنّ بعقلى » .

وقيل ليزيد بن معاوية : «ماالجور ؟» فقال : «إعطاءُ المال من لا تعرف فإنه لا يصير إليه حتى يتخطّى من تعرف » .

وقيــل لخُرَيم المُرىّ ، وهو المُنبَّز بخُرَيم الناعم : «ما النعمة ؟» فقال : «الأمن فإنــه ليس لخائفٍ عيش ، والغنى فإنه ليس لفقير عيش ، والصحة فإنه ليس لسقيم عيش» ، قيل : «ثم ماذا ؟» قال : «لا مزيد بعد هذا » .

وقــال سَلْم بن قُتَيبة : «الشباب الصحة ، والسلطان الغنى ، والمروءة الصبر على الرجال» .

---

[1] تنضى : هَزل من كثرة ركوبهــــا .

وقـــال المهلّب بن أبي صفرة : «العجب لمن يشترى المماليك بماله ولا يشترى الأحرار بمعروفه » .

وقـــال خـــالد بن عبد الله القسرى : «محض الجود ما لم تسبقه مسألة ، وما لم يتبعه مَنّ ، ولَم يُزْر به قِصَر ، ووافق موضع الحاجة » .

وقال بعض المُحْدَثين ، وهو الطائى :

أسائلَ نَصْر لا تَسَلْهُ فإنه أحَنُّ إلى الإرفادِ منك إلى الرِّفْدِ

ودخـــل النَّخار العُذْرِىّ على معاوية فى عَباءة فاحتقره . فرأى ذلك النخار فى وجهه ، فقال له: «يا أمير المؤمنين ، ليست العباءة تكلمك ، إنما يكلمك من فيها» ثم تكـــلم فملأ سَمْعَه ثم نهض ولم يسأله ، فقال معاوية : «ما رأيت رجلا أحْقَر أوّلا ولا أجلّ آخرا منـــــه» .

ودخل محمد بن كعب القُرَظى على سليمان بن عبد الملك فى ثياب رَثّة . فقال لـــه سليمان : «ما يحملك على لبس مثل هذه الثياب ؟» فقال : «أكره أن أقول الزهد فأطرى نفسى ، أوقول الفقر فأشكو ربى » .

ونظـــر أعـــرابى إلى رجل جيد الكُدْنة [1] فقال : «يا هذا ، إنى لأرى عليك قَطِيفةً محـــكمة من نَسْج أضراســـك » .

---

(1) ضخامة الجســـــم .

الجود والبخل

قال رجل من المتقدمين ، وهو قيس بن عاصم المِنْقَرىّ :

أيَـا ا ْبنةَ عبدِ الله وا ْبنــةَ مالك ... ويابنةَ ذى البُرْدَيْنِ والفَرَس الوَرْدِ
إذا ما أصبتِ الـــزادَ فالتمسى له ... أكيلا فإنّى لستُ آكـله وحدى
قَصِيا كريمـــا أو قريبـا فإننى ... أخافُ مَذمّاتِ الأحاديث من بعدى
وإنى لَعَبْدُ الضيفِ ما دام ثاويـــا ... وما من خلالى غيرَها شِيمةُ العبد

الصـــدق

يروى أن الحجاج جلس لقتل أصحاب عبد الرحمن بن محمدِ بن الأشعث فقام رجل منهم فقال:« أصلح الله الأمير ، إنّ لى عليك حقـا ».قال: « وما حَقُّك ؟» . قال : « سَبَّك عبد الرحمن يوما فرددت عليه » . قال : «من يعلم ذاك ؟» . قال : «أَنْشدُ الله رجلا سمع ذاك إلا شهد به» . فقام رجل من الأُسراء فقال : «قد كان ذاك أيهـا الأمير » . قال : « خَلوا عنه » . ثم قال للشاهد : «فما منعك أن تنكر كما أنكر» . قال : «لقديم بغضى إياك» . . قال : « ويُخَلّى عنه لصدقه» .

البغض

قال عمر بن الخطاب لرجل ، وهو أبو مريم السَّلُولىّ : «والله لا أحبك حتى تحبّ الأرض الدم» . قال : «أفَتمنعنى حقا ؟» قال : «لا» . قال : «فلا بأس ، إنما يأسف على الحب النساء» .

وقال الحجاج لرجل من الخوارج : «والله إنى لأبغضكم» . فقال له الخارجى : «أدخلَ الله أشَدَّنا بغضا لصاحبه الجنة» .

جواب

دخل يزيد بن أبي مُسْلِم على سليمان بن عبد الملك ، وكان دميما . فلما رآه قال : «قَبح الله رجلا أجَرّك رَسَنه وأشركك فى أمانته» . فقال له يزيد : «يا أمير المؤمنين ، رأيتنى والأمرُ لك ، وهو عنى مدبر ، ولو رأيتنى والأمر علىّ مقبل لاستكبرت منى ما استصغرت، واستعظمت منى ما استحقرت» . فقال : «أترَى الحجاج استقرّ فى قعر الجحيم بعد ؟» . فقال : «يا أمير المؤمنين ، لا تقل ذاك ، فإن الحجاج وَطَّأ لكم المَنابر ، وأذل لكم الجَبابر ، وهو يجىء يوم القيامة عن يمين أبيك وعن يسار أخيك ، فحيث كانا كان» .

كذب الأعراب

حدثنى أبو عمر الجَرْمىّ قال : سألت أبا عبيدة عن قول الراجز :

أهَدَّمُوا بيتَك لا أبالَكا وأنا أمشى الدألى حَوالَكا

فقلت : «لمن هذا الشعر ؟» . فقال : «هذا يقوله الضب للحِسْل أيام كانت الأشياء تتكلم» . الدألى : مشى كمشى الذئب ، يقال : هو يدأل فى مشيه ، إذا مشى كمشية الذئب .

وحدثنى غير واحد من أصحابنا قال : قيل لرؤبة : «ما قولك :

لو أنِى عُمِّرتُ سِنَّ الحِسْلِ أو عمرَ نُوحٍ زمنَ الفِطَحْلِ
والصخر مُبْتَلٌّ كمِثْلِ الوَحْلِ

ما زمن الفطحل ؟» قال : «أيام كانت السِّلام[1] رطابا» . قوله : سن الحسل مثل تضرب به العرب فى طول العمر .

وحدثنى سليمان بن عبد الله عن أبي العميثل مولى العباس بن محمد ، قال : تكاذب أعرابيان ، فقال أحدهما : «خرجت مرة على فرس لى فإذا بظلمة شديدة فيممتها حتى وصلت إليها . فإذا قطعة من الليل لم تنتبه . فما زلت أحمل بفرسى عليها حتى أنبهتها فانجابت» . فقال الآخر : «لقد رميت ظبيا مرة بسهم ، فعدل الظبى يمنة فعدل السهم خلفه ، فتياسر الظبى فتياسر السهم خلفه ، ثم علا الظبى ، فعلا السهم خلفه ، فانحدر عليه حتى أخذه» .

(١) السلام : جمع سلمة ، وهى الحجارة الصلبة .

وتزعم الرواة أن عروة بن عتبة قال لابنى الجون الكنديين يـــــــــوم جبلة : «إن لى عــليــكما حقا لرحلتى ووفادتى، فدعونى أنذر قومى من موضعى هذا». فقالوا : «شأنك» . فصرخ بقومه ، فأسمعهم على مسيرة ليلة .

ويـــروى عن حماد الراوية قال : قالت ليلى بنت عروة بن زيد الخيل لأبيها : أرأيت قول أبيك :

بنى عامرٍ هل تعرفـــــون إذا غدا — أبو مِكْنفٍ قد شدَّ عقْدَ الدوائـــر
بجيش تَضلُّ البُلْقُ فى حَجراتــــه — ترى الأكْمَ منه سُجَّدا للحوافر
وجمعٍ كمثل الليل مُر تجِس الوغى — كثير تَواليه سريع البـــوادر
أبتْ عادةٌ للور ْدِ أن يكره الوغى — وحاجةُ ر ُمْحى فى نُمير بن عامــر

فقلت لأبى : «أحضرتَ هذه الوقعة ؟» فقال : «نعم ؟» قلت: «فكم كانت خيــلكم ؟» . قــال : «ثلاثة أفراس أحدها فرسه» . فذكرت هذا لابن أبى بكر الهــذلى ، فحدثــنى عن أبيه ، قال : «حضرت يوم جبلة» .وكان قد بلغ مئة سنة وكان قد أدرك أيام الحجاج ، قال : «فكانت الخيل فى الفريقين مع ما كان مع ابنى الجــون ثلاثــين فرســا» . فحدثــت بهذا الحديث الخثعمى ، وكان راوية أهل الــكوفــة ، فحدثنى أن خثعم قتلت رجلا من بنى سليم بن منصور ، فقالت أخته ترثيـــــه :

لَعَمْرِى ومــا عمرى علىّ هيّنٍ — لَنِعْمَ الفتى غـــادرتمُ آل خثعما
وكان إذا ما أورد الخيلَ بِيشةً — إلى جنبِ أشراجٍ أنــاخ فألْجَما
فأَر ْسَلَها رَهْوا رعــالا كأنّها — جرادٌ زَهَتْه ريــحُ نجدٍ فأتْهما

فقيـــل لهـــا : «كم كانت خيل أخيك ؟» فقالت : «اللهم إنى لا أعرف إلا فرســـــه» .

قولـــه : قد شد عقد الدوائر ، يريد عقد دوائر الدرع ، فإن الفارس إذا حمى فعل ذلك . وقولـــــه: تضل البلق فى حجراته ، يقول : لكثرته لا يرى فيه الأبلق والأبـــلق مشهور المنظر لاختلاف لونيه . وحجراته : نواحيه . وقوله : ترى الأكم مـــنه سجدا للحوافر ، يقول : لكثرة الجيش يطحن الأكم حتى يلصقها بالأرض . وقولـــه : كمثل الليل ، يقول : كثرة فيكاد يسد سواده الأفق . والمرتجس : الذى يســـمع صوته ولا يبين كلامه . وقوله : فأرسلها رهوا ، يقول : ساكنة . ورعال : جمع رعيل ، وهو ما تقدم من الخيل . وقوله : زهته ريح نجد فأتهما ، يقول : رفعته واستخفته ، ومعنى أتهم أتى تهامة .

وحدثـــنى الـــتوزى قـــال : سألت أبا عبيدة عن مثل هذه الأخبار من أخبار العرب. فقال لى : إن العجم تكذب فتقول : كان رجل ثلثه من نحاس ، وثلثه من رصاص ، وثلثه ثلج ، فتعارضها العرب بهذا وما أشبهه . ومن ذلك قول مُهَلْهِل بن رَبيعة :

فلولا الريحُ أَسْمَعَ من بحَجْر ... صَليل البَيْضِ تُقْرَع بالذُّكورِ

وحدثنى عمرو بن بحر قال : أتيت أبا الربيع الغَنَوى ، وكان من أفصح الناس وأبـــلغهم ، ومعى رجل من بنى هاشم : فقلت : «أبو الربيع ههنا ؟» . فخرج إلىّ وهـــو يقـــول : «خرج إليك رجل كريم» . فلما رأى الهاشمى استحيا من فخره ، فقـــال : «أكرمُ الناسِ رَديفا ، وأشرفهم خَليفا» . فتحدثنا مليّا ، ثم نهض الهاشمى . فقـــلت لأبى الربيع : «يا أبا الربيع ، مَنْ خير الخلق ؟» فقال : «الناس والله» .

فقــلت : «من خير الناس ؟» قال : «العرب والله» قلت : «فمن خير العرب ؟» قال: «مضر والله» قلت : «فمن خير مضر ؟» قال : «قيس والله» قلت : «فمن خير قيس ؟» قال : «يَعْصُر والله» قلت : «فمن خير يعصر؟» قال: «غَنِيّ والله» قــلت : «فمــن خير غنى ؟» قال : «المخاطب لك والله» قلت : «أفأنت خير الــناس ؟». قــال : «نعم إى والله» قلت : «أيســرك أن تحتك بنت يزيد بن المهلب ؟» قال : «لا والله» قلت : «ولك ألف دينار ؟» قال: «لا والله» قلت : «فألفا دينار ؟» قال : «لا والله» قلت : «ولك الجنة» فأطرق ثم قال : «على أنْ لا تلد منى» .

قولــه : أكرم الناس رديفا ، فإن أبا مَرْثد الغنوّى كان رديف رسول الله صلى الله عــليه وسلم . وقوله : وأشرفهم حليفا ، كـــــان أبو مرثد حليف حمزة بن عبد المطلب .

ومــن ذلك ما يَحْــكُون فى خبر لُقْمان بن عـــاد . فإنهم يصفون أن جارية له سُئلت عما بقى من بصره لدخوله فى السن ، فقالت : «والله لقد ضعف بصره، وَلقــد بقيــت منه بقية : إنه ليفصل بين أثر الأنثى والذكر مِنَ الذّر إذا دبّ على الصفا» . فى أشياء تشاكل هذا من الــكذب .

وَحُدّثت أن امرأة عِمران بن حَطّان السّــدوسى قالت : «أمــا حلفت أنك لا تــــكذب فى شــعر ؟» فقال لها : «أوَ كان ذلك ؟» قالت «نعم ، قلتَ :

فــكذاك مَجْزَأَةُ بن ثـــور كــان أشــجعَ من أسامَــه

أيكون رجل أشجع من أســد ؟» . فقال لها : «ما رأيتُ أسدا فتح مدينة قطّ ، ومجزأة بن ثور قد فتح مدينة» .

قـال الأصمعى : قلت لأعرابى كنت أعرفه بالـكذب : «أصدقت قط ؟» قال : «لو لا أنى أخاف أن أصدق فى هذا لقلت لك » .

وتحدثوا من غير وجـه أن عمرو بن مَعدى كَرب كان معروفا بالـكذب ، وقيـل لخَـلَف الأحمر ، وكان شديد التعصب لليمن : «أكان عمرو بن مَعْـدى كرب يكذب ؟» فقال : «كان يكذب فى المقال ، ويَصْدُق فى الفعال» .

وذكروا من غير وجه أن أهل الـكوفة من الأشراف كانوا يظهرون بالكناسة، فيـتحدثون عـلى دوابهم إلى أن يطردهم حرّ الشمس . فوقف عمرو بن معدى كرب . وخالد بن الصقْعَب النهدى . فأقبل عمرو يحدثه ، فقال : «أغَرْنا مرة على بـنى نَهْد فخرجوا مُسْتَرْعفين بخالد بن الصقعب . فحملتُ عليه فطعنته فأرديتهُ . ثم مِلْتُ عليه بالصمّصْامة فأخذت رأسه» . فقال له خالد : «حِلا أبا ثور ، إن قتيلك هو المحدَّث» . فقال : «يا هذا ، إذا حُدِّثت فاستمع ، فإنما نتحدث بمثل ما تسمع لتُرهَب به هذه المَعَدّية » .

قوله : مسترعفين ، يقول : مُقدَّمين .

وخُـبّرت أن قاصا كان يكثر الحديث عن هَرِم بن حيان . فاتفق هرم معه فى مسـجد ، وهو يقول : «حدّثنا هرم بن حيَّان » . مرة بعد مرة ، بأشياء لا يعرفها هرم . فقال له : «يا هذا ، أتعرفنى ؟ أنا هرم بن حيان ، ما حدثتُك من هذا بشىء قط» . فقال له القاصّ : «وهذا أيضا من عجائبك ، إنه ليصلى معنا فى مسجدنا خمسـة عشر رجلا ، اسم كل رجل منهم هرم بن حيان ، كيف توهمتَ أنه ليس فى الدنيا هرم بن حيان غيرك ؟» .

وكان بالرّقة قاص يكنى أبا عقيل يكثر التحدث عن بنى إسرائيل ، فيُظَن به الكـذب ، فقال له يوما الحجاج بن حَنْتَمة : «ما كان اسم بقرة بنى إسرائيل ؟» قال : «حَنْتَمة» . فقال لـه رجل من ولد أبي موسى الأشعرى : «فى أى الكتب وجدت هذا ؟» قال : «فى كتاب عمرو بن العاص» .

ويُـروى أن رجـلا وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فكَذَبه . فقـال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أأسألك فَتكذِبُني ؟ لولا سخاء فيك وَمِقَك الله عليه ، لشَرّدْتُ بك مِنْ وافدِ قوم» . معنى ومقك أحبّك .

ويـروى أن رجـلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : «يا رسول الله، إنمـا أُوخَـذ مـن الذنوب بما ظهر . وأنا أستسر بخلال أربع : الزنا والسَّرَق وشرب الخمر والـكذب ، فأيّهن أحببتَ تركت لك سرا» . فقـال رسول الله : «دع الـكذب» . فلما ولى من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم همّ بالزنا فقـال : يسألنى رسول الله فإن جحدتُ نقضتُ ما جعلت له ، وإن أقررت حُددتُ فلم يزن . ثم همّ بالسرق ثم هم بشرب الخمر ففكر فى مثل ذلك فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «يا رسول الله ، قد تركتهُنّ جُمَع».

اللسان

قـال ابن المُقفـع : «إذا كثُر تقليب اللسان رَقّتْ جوانبه ولانتْ عَذَبَته» .
وقال العتّابيّ: «إذا حبُس اللسان عن الاستعمال اشتدت عليه مخـارج الحروف» .

وحدثنى من لا أحصى من أصحابنا . قال معاوية يوما : «من أفصح الناس ؟» فقام رجل من السِّماط فقال : «قوم تَباعدوا عن فُراتيّة العراق ، وتيامَنُوا عن كشكشة تميم ، وتياسَرُوا عن كَسْكسة بكر ، ليس فيهم غَمْغَمة قُضاعة ، ولا طُمْطُمانية حِمْير » . فقال له معاوية : «من أولئك ؟» فقال : «قومى يا أمير المؤمنين» . فقال له معاوية : «من أنت ؟» قال : «أنا رجل من جَرْم» . قال الأصمعى : وجَرْم من فصحاء الناس . قوله : تيامنوا عن كشكشة تميم ، فإن بنى عمرو بن تميم إذا ذكرت كاف المؤنث فوقفت عليها أبدلت منها شينا لقرب الشين من الكاف فى المخرج ، وأنها مهموسة مثلها ، فأرادوا البيان فى الوقف لأن فى الشين تفشيا فيقولون للمرأة : جعل الله لك البركة فى دارِش ، ويحك مالِشْ ، والتى يُدْرِجونها يَدَعونها كافا ، والتى يقفون عليها يُبدلونها شينا . وأما بكر فتختلف فى الكسكسة ، فقوم منهم يبدلون من الكاف سينا كما يفعل التميميون فى الشين ، وهم أقلهم ، وقوم يبينون حركة كاف المؤنث فى الوقف بالسين فيزيدونها بعدها فيقولون : أعطيتُكِسْ .

غزل ولهو وغناء

قال محمد بن عبد الله بن نُمَير الثَّقَفِيّ :

لم تَرَ عينى مثلَ سربٍ رأيتُه ... خَرَجْنَ من التنعيم مُعْتَجِرات [1]
مَرَرْنَ بفَخّ ثم رُحْنَ عَشيّةً ... يُلَبِّين للرحمن مُؤْتَجِرات
تَضوَّع مِسْكا بطنُ نَعمْانَ أنْ مَشَتْ ... به زينبٌ فى نسوة عَطِرات

(1) معتجرات : قد لوين على رؤوسهن أثوابا من غير إدارة تحت الحنك .

وقامتْ تَرَاءَى يــومَ جَمْع فأَفتَنَتْ … برؤيتها مَنْ راح من عَرفــــات
ولما رأتْ رَكْبَ النُمَيْرِىّ أعرضت … وكنّ مــــن أنْ يَلْقَيْنَه حَذِرات
دعتْ نِسْوةً شُمَّ العَرانينِ بُدَّنــــا … نَواعِمَ لا شُعْثا ولا غَــــبِرات
فأَدْنَيْن لما قمن يَحْجُبْنَ دونَهَــــا … حجابا مـــن القَسِّىِّ والحِبَرات
أحلَّ الذى فوقَ السمواتِ عرشُه … أوانسَ بالبطحــاءِ مُعْتمــرات
يُخَبِّئْنَ أطرافَ البَنان مـــن التُّقَى … ويَخرُجْنَ جُنْحَ الليلِ مُختَمِرات

قوله : مثل سرب رأيته ، هو القطعة من النساء أو من الظباء أو من البقـــر أو مـــن الطـــير ، فهذا يعنى نساء . والبدّن : واحدها بادن ، وهو العظيم البدن . والأشعث والشعثاء : الخاليان من الدهن .

وقـــال عمر بن أبى ربيعة ، ونظر إلى أم عمر بنت مروان بن الحكم ، وكانت صارت إليه متنكرة ، فرأته وقضت من محادثته وطرا ، ثم انصرفت . فلما رجعت مـــن مِنًى عرفها ، فعلمت ذلك فبعثت إليه : « لا ترفع بى صوتا » وأهدت له ألف دينار فاشترى بها عطرا وبَزًّا وأهداه لها ، فأبت أن تقبله . فقال : « إذا والله أُنهِبه فيكون أذْيَعَ له » . فقبلته وفى ذلك يقول :

وكم من قتيلٍ لا يُبَــــاءُ به دمٌ … ومن غَلِقٍ رَهْنا إذا ضمَّــــه مِنَى
وكم مالىء عينيــه من شىءِ غيرِه … إذاراح نحوالجَمْرةِ البيضُ كالدُّمى
يجُرون أذيــالَ المُروطِ بأَسْــــوق … خِدال إذا وَلَّيْنَ أعجــازُها رِوَى
أوانسُ يَسلُبْنَ الحليم فـــــؤادَه … فياطُولَ ما حزن ويا حُسْنَ مُجْتَلى
فلم أر كالتَّجْميرِ منظرَ ناظـــــر … ولا كليالى الحجّ أفْتَنَّ ذا هَـــوَى

وفيها أيضـــــا يقول :

أيها الرائـــحُ المُجِدُّ ابتـــكارا قد قَضَى من تهامة الأوْطـــــارا
ليت ذا الحجَّ كان حتما علينـــا كلَّ شهريـــن حَجّةً واعتمارا

قوله : وكم من قتيل لا يباء به دم ، يقول : لا يُقاد به قاتله .

وكـــان ابـــن أبي عَتِيق من نُسّاك قريش وظرفائهم ، بل قد بَذّهم ظرفا ، وله أخبار كثيرة . فمن طريف أخباره أنه سمع وهو بالمدينة قول ابن أبي ربيعة :

فما نلتُ منها مَحْرَمـــا غيرَ أننـــا كلانا من الثوبِ المُطَرَّفِ لابـــسُ

فقـــال : «أبنا يلعب ابن أبي ربيعة ؟ فأىَّ مُحَرَّم بقى ؟» فركب بغلته متوجها إلى مكة . فلما دخل أنصاب الحرم قيل لـــه : «أحْرِمْ» . قال : «إن ذا الحاجة لا يحرم» . فلقى ابن أبي ربيعة ، فقـــال : «أما زعمتَ أنك لم تركب حراما قط ؟» . قال : «بلى» . قال : «فمـــا قولك : كلانا من الثوب المطرف لابس ؟» فقال لـــه : «إذا أخـــبرك . خـــرجتْ بعِـــلّة المسجد فصرنا إلى بعض الشّعاب فأخذتنا السـّــماء . فأمـــرتُ بمُطَـــرّفى فسترنا الغلمان به لئلا يروا هابَلّة ، فيقولوا : هلا اســـترت بسَقائفِ المسجد ؟» . فقال له ابن أبي عتيق : «يا عاهِر ، هـــذا البيت يحتاج إلى حاضنة » .

وهو الذى سمع قول عمر بن أبي ربيعة :

مَنْ رسولى إلى الثريا بأنى ضقتُ ذَرْعـــا بهَجْرها والكتاب

obeikandi.com

فلبس ثيابه وركب بغلته وأتى باب الثريا . فاستأذن عليها ، فقالت : «والله ما كنت لنا زوّارا » . فقال : «أجل ولكنى جئت برسالة ، يقول لك ابن عمك عمر بن أبي ربيعة : ضقت ذرعا بهجرك والكتاب » . فلامه عمر فقال له ابن أبي عتيق : «إنما رأيتك متلددا تلتمس رسولا فخففت فى حاجتك ، فإنما كان ثوابي أن أشكَر » .

ومن طريف أخباره أن عائشة بنت طلحة عتبت على مصعب بن الزبير فهجرته . فقال مصعب : «هذه عشرة آلاف درهم لمن احتال لى أن تكلمنى» فقال له ابن أبي عتيق : «عَدّل المال » ثم صار إلى عائشة فجعل يستعتبها لمصعب . فقالت : «والله ما عَزْمى أنْ أكلمه أبدا » . فلما رأى جِدَّها قال لها : «أيا بنت عم إنه قد ضمن لى إنْ كلمته عشرة آلاف درهم ، فكلميه حتى آخذها ثم عودى إلى ما عَوَّدك الله من سوء الخلق » .

ومن أخباره أن مروان بن الحكم قال يوما : «إنى لمشغوف ببغلة الحسن ابن على رحمهما الله » . فقال له ابن أبي عتيق : «إن دفعتُها إليك أتقضى لى ثلاثين حاجة ؟» قال : « نعم » . قال : «إذا اجتمع الناس عنك العشية فإنى آخذ فى مآثر قريش ثم أمسك عن الحسن ، فلمْنى على ذلك» . فلما أخذ الناس مجالسهم أخذ فى مآثر قريش . فقال له مروان : «ألا تذكر أولية أبي محمد وله فى هذا ما ليس لأحد » . فقال : «إنما كنا فى ذكر الأشراف ولو كنا فى ذكر الأنبياء لقدمنا ما لأبي محمد » . فلما خرج الحسن ليركب تبعه ابن أبي عتيق فقال له الحسن وتبسم : «ألك حاجة ؟» فقال : «ذكرت البغلة» فنزل الحسن ودفعها إليه .

ومــن طــريف أخباره أن عثمان بن حَيَّان المُرّى لما دخل المدينة واليا عليها ، اجــتمع الأشــراف عــليه من قريش والأنصار . فقالوا له : « إنك لا تعمل عملا أجْــدَى ولا أوْلَــى من تحريم الغناء والرثاء » . ففعل وأجَّلهم ثلاثا . فقدم ابن أبي عــتيق فى الليلة الثالثة ، فحط رَحْله بباب سلامة الزرقاء . وقال لها : « بدأتُ بك قــبل أن أصــير إلى منزلى » . فقالت : « أو ماتدرى ما حدث ؟ » وأخبرته الخبر . فقــال : « أقيمى إلى السَّحَر حتى ألقَاه ». فقالت : « إنا نخاف أن لا تغنى شــيئا ونــنكظ [1] » فقــال : « إنه لا بأس عليك» ، ثم مضى إلى عثمان فاستأذن عليه . فاخبره أن أحدَّ [2] ما أقدمه عليه حبّ التسليم عليه . وقال له : « إنّ من أفضل ما عملتَ به تحريم الغناء والرثاء» . قال : « إنّ أهلك أشاروا علىّ بذلك » ، قــال : « فــإنك قد وُفقت ، ولــكنى رسول امرأة إليك ، تقول : قد كانت هذه صناعتى فتــبت إلى الله منها ، وأنا أسألك أيها الأمير أن لا تحول بينها وبين مجاورة قبر النبى صلى الله عليه وسلم» . فقال عثمان : « إذن أدعها لك» . قال : « إذن لايدعها الــناس ولكن تدعو بها فننظر إليها ، فإن كانت ممن يُتْرَك تركتها » . قال : « فادْعُ بهــا » . فأمــرها ابــن أبي عتيق فتقَشفت وأخذت سُبْحة فى يدها وصارت إليه . وحدثــته عن مآثر آبائه ، فَفِكــه لها ، فقال لها ابن أبي عتيق : « اقْرَئى للأمير » . ففعــلت فأعجب بذاك . فقال لها : « فاحْدِى للأمير » . فحركه حداؤها . ثم قال لهــا : « غَنِّى للأمير » . فجعل يعجب بذلك عثمان . فقال لــــه ابن أبي عتيق « فكيف لو سمعتَها فى صناعتها ؟ » فقال : « قل لها فَلْتَقل» فأمرها فتغنت :

سَدَدْنَ خَصاصَ الخَيْم لمــا دَخَلْنه بــكل لَبانٍ واضــح وجبيــــن

---

[1] نكظ : تنالنــــا شــــدة .

[2] أحــد : أســــــرع .

فنزل عثمان بن حيّان عن سريره حتى جلس بين يديها . ثم قال : «لا والله ما مثلك يخرج عن المدينة» فقال له ابن أبي عتيق : «إذا يقول الناس : أذِن لسلامة فى المقام ومنع غيرها» . فقال له عثمان : «قد أذنت لهم جميعا» .

وقال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة :

قال لى صـــاحبى لِيَعْلَمَ مـــا بى	أتحِبُّ القَتُــولَ أختَ الرَّباب ؟
قلتُ : وَجْدى بها كوجدك بالمــاءِ	إذا مــا مُنِعْت بَرْدَ الشــراب
مَنْ رسولى إلى الثريّــا بـــأنى	ضقت ذرعــا بهجرها والكتاب
سلبتْنى مُجاجَةُ المِسْك عقـــلى	فسـلُوها بما تُحِلُّ اغتصـــابى
أزهقتْ أمُّ نوفـــل إذْ دَعَتْهـــا	مُهجتى ، مــا لقاتلى من متَــاب
حينَ قالت لها : أجيبى ، فقــالت :	مَنْ دعانى ؟ قالت : أبو الخَطّــاب
فاستجابت عند الدعاء كما لَبْــــ	بَى رجالٌ يَرْجُونَ حسن الثّواب
أبْرَزُوها مثــلَ المَهَــاة تَهَــادى	بين خمسٍ كــواعبٍ أتراب
وهى مِــكْنونةٌ تَحــيَّر منهـــا	فى أديم الخَدّين ماء الشـــباب
ثم قالوا : تُحِبُّها ؟ قلتُ : بَهْــرا	عَدَدَ النجم والحصَى والتراب
دميةٌ عند راهب ذى اجتهـــــاد	صوّروها فى جـــانب المِحْراب

قوله : قلت وجدى بها كوجدك بالماء ، معنى صحيح . وقد اعتوره الشعراء وكلُّهم أجاد فيه . وقوله : إذا ما منعت برد الشراب ، يريد عند الحاجة ، وبذلك صح المعنى . ويروى عن على بن أبي طالب رحمه الله أن سائلا سأله فقال : «كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟» فقال : «كان والله أحبّ إلينا من

أموالــنا وأولادنــا وآبائــنا وأمهاتنا ، ومن الماء البارد على الظمأ» وقال آخر ، وأحسبه قيس بن ذَرِيح :

حلفتُ لها بالَمشْعَرَيْنِ وزمـــزم ... وذو العرشِ فوق المقْسِمينَ رقيبُ
لَئِنْ كان بَرْدُ الماءِ حَرّانَ صادِيــا ... إلىَّ حَبيبا إنهـــا لحبيب

والمكــورة : المكتزة . وقوله : قلت بهرا ، يكون على وجهين : أحدهما حُبّا يَــبْهَرَنى بَهْــرا ، أى يملؤنى ؛ والوجــه الآخر أن يكون أراد بَهْرا لــكم ، أى تَبّا لــكم حيث تلوموننى على هذا .

وحُدِّثت أن عمر الوادى قال : أقبلتُ من مكة أريد المدينة ، فجعلت أسير فى صَــرْد [1] مــن الأرض . فســمعت غناء من القَرار لم أسمع مثله . فقلت : «والله لأتوصّلنّ إليه ولو بذهاب نفسى» فانحدرت إليه فإذا عبد أسود . فقلت له : «أَعِدْ علىّ ما سمعت » . فقال لى : «والله لو كان عندى قِرًى أقريك ما فعلت ولــكنى أجعلــه قــراك ، فإنى ربما غنّيت هذا الصوت وأنا جائع فأشبع ، وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط، وربما غنيته وأنا عطشان فأَروَى» . ثم انبرى يغنينى .

وكنتُ إذا مازرتُ سُعْدَى بأرضِها ... أرى الأرض تُطْوَى لى ويدنو بعيدُها
من الخَفِرات البيض وَدَّ جَليسُــها ... إذا ما قضت أحُدوثةً لو تُعيدهــا

فحفظته عنه ثم تغنيت به على الحالات التى وصف ، فإذا هو كما ذكر .

---

[1] الصرد : المكان المرتفع .

وروى أصحابنا أن يزيد بن عبد الملك ، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية وإليها كان يُنْسَب ، قال يوما : «يقال : إن الدنيا لم تَصْفُ لأحد قطّ يوما ، فإذا خلوتُ يومى هذا فاطووا عنى الأخبار، ودعونى ولذّتى ، وما خلوت له» . ثم دعا بَحَبابة فقال : «اسقينى وغنينى» فخَلَوَا فى أطيب عيش . فتناولت حبابة حبة رمّان فوضعتْها فى فِيها فغَصَّت بها فماتت . فجزع يزيد جزعا أذهله ، وَمَنَع من دفنها حتى قال له مشايخ بنى أميّة : «إن هذا عيب لا يستقال ، وإنما هذه جيفة» فأذن فى دفنها وتبع جنازتها . فلما واروها ، قال : «أمسيت والله فيك كما قال كثير :

فإنْ تَسْلُ عنكِ النفسُ أوتَدَعِ الهوى ... فباليأس تسلو عنك لا بالتجلُّدِ
وكلُّ خليل راءَنى فهو قائلٌ ... مِنَ اجلكِ هذا هامةُ اليوم أو غَدِ

فعُدَّ بينهما خمسة عشر يوما . وقوله : راءنى ، يريد رآنى ، ولكنه قلب فأخر الهمزة . وقوله . هذا هامة اليوم أو غد ، يقول : ميّت فى يومه أو فى غده .

وحدثنى عبد الصمد بن المُعَذّل قال: سمعت إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ قال : حججتُ مع أمير المؤمنين الرشيد ، فلما قَفَلْنا فنزلنا المدينة آخيتُ بها رجلا كان له سِنّ ومعرفة وأدب فكان يمتعنى . فإنى ذات ليلة فى منزلى إذا أنا بصوته يستأذن علىّ . فظننت أمرا قد فَدَحه ففزع فيه إلىّ . فأسرعت نحو الباب ، فقلت : «ما جاء لك ؟» فقال: «إذن أخبرك . دعانى صديق لى إلى طعام عتيد [1] وشراب قد التقى طرفاه ، وشواء رَشْراش [2] ، وحديث ممتع ، وغذاء مطرب ، فأجبته .

---

(١) عتيد : معد حاضر .

(٢) رشراش : يقطر دسمه .

وأقمت معه إلى هذا الوقت .فأخذت منى حُمَيّا الكأس مأخذها ثم غُنّيت بقول نصيب :

بزينب ألْمِمْ قبلَ أن يرحل الركب وقُلْ إنْ تَملّينا فما ملّك القلب

فكدت أطير طربا ، ثم وجدت فى الطرب نقصا إذا لم يكن معى من يفهم هذا كما فهمتُه . ففزعت إليك أصف لك هذه الحال ، ثم أرجع إلى صاحبى » . وضرب نعليه مولّيا عنى فقلت : «قف أكلمك» . فقال : «ما بى إلى الوقوف إليك من حاجة» .

وحُدِّثت أن معاوية استمع على يزيد ذات ليلة فسمع من عنده غناء أعجبه . فلما أصبح قال ليزيد : «من كان ملهيك البارحة ؟» فقال له يزيد : «ذاك سائب خاثر» . قال : «إذا فاخثر [1] له من العطاء» .

وحُدِّثت أن معاوية قال لعمرو : «امض بنا إلى هذا الذى قد تشاغل باللهو وسعى فى هدم مروءته حتى ننعى عليه - أى نعيب عليه - فعله» ، يريد عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب . فدخلا إليه ، وعنده سائب خاثر ، وهو يلقى على جَوارٍ لعبد الله فأمر عبد الله بتنحية الجوارى لدخول معاوية . وثبت سائر مكانه ، وتنحى عبد الله عن سريره لمعاوية . فرفع معاوية عَمْرا فأجلسه إلى جانبه ثم قال لعبد الله : «أعِدْ ما كنت فيه». فأمر بالكراسىّ فأُلقيت وأُخرج الجوارى . فتغنى سائب بقول قَيْس بن الخَطيم :

ديارُ التى كادتْ ونحن على مِنًى تَحُلُّ بنا لولا نَجاءُ الرّكائب [2]
ومثلكِ قد أصْبَيْتُ ليست بكَنَّةٍ ولا جارةٍ ولا حليلةِ صاحب [3]

---

(1) أى أجزل له العطاء .

(2) تحل بنا : تجعلنا نحل .

(3) الكنة : امرأة الابن أو الأخ .

وردّده الجــوارى عليه . فحرك معاوية يديه وتحرك فى مجلسه . ثم مدّ رجليه فجعــل يضــرب بهما وجه السرير . فقال له عمرو : «اتّئدْ يا أمير المؤمنين ، فإن الــذى جئت لِتَلْحَاه أحسن منك حالا وأقل حركة» . فقال معاوية : «اسكت لا أبالك ، فإن كل كريم طروب».

وحدثت من غير وجه أن سفيان بن عُيَيْنة قال لجلسائه يوما : «إنى أرى جارنا هذا السَّهْمِى قد أثرى ، وانفسحت له نعمة ، وصار ذا جاه عند الأمراء ، ووافدا إلى الخلفاء ، فمم ذاك ؟» يعنى يحيى بن جامع ، فقال له جلساؤه : «إنه يصير على الخليفة فيتغنى له» . فقال سفيان : «فيقول ماذا ؟» فقال أحد جلسائه : يقول :

أطوفُ نهــارى مع الطائفين ... وأرفعُ من مِئْزَرِى المُسْبَلِ

فقال سفيان : «ما أحسن ما قال !» فقال الرجل : ويقول :

وأسهر ليلى مــع العاكِفين ... وأتلو من المُحْــكم المُنزَل

قال:«حسن والله جميل» .قال: «إنّ بعد هذا شيئا» .قال سفيان: «وما هو ؟» قــــال :

عسى فارجُ الــكَربِ عن يوسف ... يُسخرّ لى رَبَّــةَ المِحْمَلِ

فزوى سفيان وجهه ، وأومأ بيده أنْ كُفَّ ، وقال : «حلالا حلالا» .

وحُدثــت أن الفــرزدق قدم المدينة فترل على الأحوص بن محمد فقــال له الأحــوص : «ألاَ أُسمِعــك غــناء مــن غناء القُرى ؟» فأتاه بمُغَنٍّ فجعل يغنيه ، فــكان مما غَنــاه :

أَتنْسَى إذ تُودِّعنـــــا سليمى   بفَرْع بَشامة سُقِىَ البَشـــام [1]
ولو وجد الحمام كما وجــدنا   بَسَلمائيْن لا كْتأبَ الحمـــــام

فقال الفرزدق : « لمن هذا ؟ » فقالوا : « لجرير » ثم غناه :

أَسْرَى لخالدةَ الخيالُ ولا أرى   شيئا أَلَذَّ من الخيال الطــــارقِ
إنّ البليـــةَ مَنْ تَمَلُّ حديثَـــــه   فانْقَعْ فؤادك من حديث الوامق

فقال : « لمن هذا ؟ » فقيل : « لجرير » ثم غناه :

إنّ الذين غَدَوْا بلُبـــك غادَرُوا   وَشَلا بعَيْنك ما يزال مَعِينــا [2]
غَيّضْنَ من عَبرَاتِهِنّ وقلـــن لى   ماذا لقيتَ من الهــوى ولقِينا

فقـــال : « لمـــن هذا ؟ » فقالوا : « لجرير » فقال الفرزدق : « ما أحوجه مع عفافه إلى خشونة شعرى ، وأحوَجَنى مع فسوقى إلى رقّة شعره » .

وحُدِّثــت أن مدنيـــا كان يصلى منذ طلعتْ الشمس إلى أن قارب النهار أن ينتصف ، ومن ورائه رجل يتغنّى ، وهما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا رجل من الشُّرَط قد قبض على المغنى فقال : « أترفع عَقيرتك بالغناء فى مسجد رســول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » . فأخذه فانْفَتَل المدنىّ من صلاته ، فلم يزل يطـــلب إليه فيه حتى استنْقَذه ، ثم أقبل عليه فقال : « أتدرى لم شَفعتُ فيك ؟ » . قال : « لا ، ولـــكنى أخالك رحمتنى » . قال « إذا فلا رحمنى الله » . قـــــــــال: « فاحســـبك عرفتَ قرابة بيننا » . قال : « إذا فقطعها الله » قال : « فلَيِد تقدمتْ منى إليــك » . قال : « لا والله ولا عرفتُك قبلها » ، قال : « فخَبِّرنى » . قال : « لأنى سمعـــتك غنّيت آنفــــــا فاقمتَ واوات مَعْبد ، أما والله لو أسأت التأدية لـــكنتُ أحد الأعوان عليك » .

---

(١) البشـــــام : شجر طيب الريح يستاك به .

(٢) الوشل : المــاء الكثير . والمعين : الماء الذى لا ينقطع .

الجد والهزل

نذكر فى هذا الباب من كل شيء شيئا لتكون فيه استراحة للقارئ ، وانتقال ينفى الملل ، لحسن موقع الاستطراف ؛ ونخلط ما فيه من الجد بشيء يسير من الهزل ، ليستريح إليه القلب وتسكن إليه النفس .

قال أبو الدَّرْداء رحمه الله : « إنى لأستجم نفسى بالشيء من الباطل ليكون أقوى لها على الحق ». وقال على بن أبى طالب رحمه الله: « القلب إذا أكره عمى » وقال ابن مسعود رحمه الله : « القلوب تَمَل كما تمل الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة » . وقال أردشير بن بابك : « إن للآذان مجة ، وللقلوب مللا ، ففرقوا بين الحكمتين ، يكن ذلك استجماما » . وكان أنو شروان يقول : « القلوب تحتاج إلى أقواتها من الحكمة احتياج الأبدان إلى أقواتها من الغذاء » . وقال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه يوما : « يا أبتِ ، إنك تنام نوم القائلة وذو الحاجة على بابك غير نائم » . فقال له : « يا بنى ، إن نفسى مطيق فإن حملت عليها فى التعب حَسَرْتَها » . تأويل قوله حسرتها : بلغت بها أقصى غاية الإعياء .

ضروب الكلام والكتابة

الكلام يجرى على ضروب : فمنه ما يكون فى الأصل لنفسه ، ومنه ما يُكنى عنه بغيره ، وما يقع مثلا فيكون أبلغ فى الوصف . والكناية تقع على ثلاثة أضرب : أحدها التعمية والتغطية كقول النابغة الجعدى :

obeikandi.com

أكنى بغيراسمها وقــد علم الْــــ ـلَه خَفيّــات كل مــُكتتَم

وقال ذو الرمة استراحــة إلى التصريح من الكــناية :

أحب المــــكان القفر من أجل أننى به أتغنى باسمها غير معجِم [١]

ويكون من الــكناية ، وذاك أحسنها ، الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى مــا يــدل على معنــاه من غيره . قال الله ، وله المثل الأعلى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّــيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ ، وقال : ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ والملامسة فى قول أهل المدينة ، مالك وأصحابه ، غير كناية ، إنما هو اللمس بعينه ، يقولون فى الرجل تقع يده على امرأته أو على جاريته بشهوة : إن وضوءه قد انتقض . وقال الله جل وعــز فى المسيح ابن مريم وأمه صلى الله عليهما : ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ وإنما هو كــناية عن قضاء الحاجة . وقال : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ وإنما هى كناية عن الفروج . وهذا كثير .

والضرب الثالث من الــكناية التفخيم والتعظيم ، ومنه اشتقت الكنية ، وهو أن يعظَّــم الرجل أن يدعى باسمه . ووقعت فى الــكلام على ضربين : وقعت فى الصــبى على جهة التفاؤل بأن يــكون له ولد ويدعى بولده كناية عن اسمه ، وفى الكبير أن ينادى باسم ولده صيانة لاسمه .

---

(١) المعجــــم : المبهــــــم .

حب وغزل

قال مروان بن أبي حفصة :

إن الغوانى طالما قَتَّلننا … بعيونهن ولا يَدين قتيلا
من كل آنسة كأن حجالَها … ضُمِّنّ أحوَر فى الكناس كَحيلا
أرْدين عروةَ والمرقِّش قبله … كلٌّ أصيب وما أطاق ذهولا
ولقد تركن أباذؤيب هائما … ولقد تَبلْن كثيِّرا وجميلا
وتركن لابن أبي ربيعة مَنْطِقا … فيهن أصبح سائرا محمولا
إلاّ أكن ممن قَتلن فإننى … ممن تركن فؤاده مخبولا

يقال : ضمن القبرُ زيدا ، وضمن القبرَ زيد ، كل صحيح فمن قال : ضمن القبر زيدا ، فلإنما أراد جعل القبر ضمين زيد ، ومن قال : ضمن زيدٌ القبر ، فإنما أراد جعل زيد فى ضمن القبر . وقوله : أحور يعنى ظبيا ، وأهل الغريب يذهبون إلى أن الحور فى العين شدة سواد سوادها وشدة بياض بياضها ، والذى عليه العرب إنما هو نقاء البياض ، فعند ذلك يتضح السواد . والكناس : حيث تكنس البقرة والظبية ، وهو أن تتخذ فى الشجرة العادية كالبيت تأوى إليه وتبعر فيه ، فيقال إن رائحته أطيب رائحة لطيب ما ترتعى . فيقول : ضمن ظبيا أحور العين أكحل ، وجعل الحجال كالكناس . وقال ابن عباس فى قول الله عز وجل : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِي الْكُنَّسِ ﴾ . قال : أقسم ببقر الوحش لأنها خنس الأنوف ، والكنس التى تلزم الكناس : وقال غيره : أقسم بالنجوم التى تجرى بالليل وتخنس بالنهار وهو الأكثر . وقوله : أردين : يقول أهلكن ، والردى : الهلاك .

obeikandi.com

وقولـــــه : ولقد تبلن كثيرا وجميلا أصل التبل التِّرة [1] يقال : تبلى عند فلان .
قال حسان بن ثابت :

تبلت فؤادك فى المنـــــام خريدة   تشفى الضجيع ببارد بســـام

وذكـــر الليثى أن رجلا أحب جارية ، ولم يكن يحسن مما يتوصَّل به إلى النساء شيئا إلا أنه كان يحفظ القرآن ، فـكان يتوصل إليها بالآية بعد الآية . فـكان إن وعدتـــه فأخلفـــته تحيَّن وقت مرورها فقال : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَـلُونَ ﴾ . وإن خرجت خرجة ولم يعلم بها فينتظر ، تحيَّنها فى أخرى فتـــلا : ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ ﴾.وإن وشى به واش ، كتب إليها : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ .

وذكروا أن أبا القماقم بن بحر السقاء عشق جارية مدينية ، بعث إليـــــها : « إن إخوانــا لى زارونى فابعـــثى إلىّ برؤوس حتى نأكلها ونصطبح على ذكرك » . ففعلت . فلما كان اليوم الثانى بعث إليها : « إن القوم مقيمون لم نفترق فابعثى إلى بقَلية جَزورية وَبقرية قَدِية حتى نتغذاها ونصطبح على ذكرك » . فلما كان فى اليوم الـــثالث بعث إليها : « إنا لم نفترق ، فابعثى إلى بسَنْبوسَكٍ حتى نصطبح اليوم على ذكـــرك » . فقـــالت لرسوله : « إنى رأيت الحب يحل فى القلب ويفيض إلى الكبد والأحشاء وإن حب صاحبنا هذا ليس يجاوز المعدة » .

ودعـــتْ أبـــا الحـــارث جُمَّيْزَ واحدة كان يحبها ، فجعلت تحادثه ولا تذكر الطعـــام. فلما طال ذلك به ، قال : « جعلنى الله فداك ، لا أسمع للغداء ذكرا! » . فقالت : « أما تستحى ، أما فى وجهى ما يشغلك عن ذا ؟ » قال لها : « جعلنى الله فـــداك ، ولو أن جميلا وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان شيئا لبزق كل واحد منهما فى وجه صاحبه وافترقا » .

---

(1) الترة : الثـــــأر .

صيانة السر

قال عمرو بن العاص : «إذا أنا أفشيت سرى إلى صديقى فأذاعه فهو فى حل» . فقيل له : «وكيف ذاك ؟» قال : «أنا كنت أحق بصيانته» . وقال امرؤ القيس :

إذا المرءُ لم يَخزُن عليه لسانه ... فليس على شيء سواه بخزان

وأحسن ما سُمع فى هذا ما يُعزَى (٢) إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقائل يقول : هو له ، ويقول آخرون : قاله متمثلا ، ولم يُختلف فى أنه كان يكثر إنشاده :

فلا تُفْشِ سرَّك إلا إليك ... فإن لكل نصيح نصيحا

وإنى رأيت غُواةَ الرجال ... لا يتركون أديما صحيحا

وذكر العُتْبى أن معاوية أسرَّ إلى عثمان بن عَنْبَسة بن أبى سفيان حديثا . قال عثمان : فجئت إلى أبى ، فقلت : «إن أمير المؤمنين أسرّ إلى حديثا ، أفأحدثك به ؟» قال : «لا ، إنه من كتم حديثه كان الخيار إليه ، ومن أظهره كان الخيار عليه . فلا تجعل نفسك مملوكا بعد أن كنت مالكا» . فقلت له : «أو يدخل هذا بين الرجل وأبيه ؟» فقال : «لا، ولكنى أكره أن تذلل لسانك بإفشاء السر». قال : فرجعت إلى معاوية فذكرت ذلك له ، فقال معاوية : «أعتقك أخى من رق الخطأ» .

---

(٢) يعزى : ينسب .

وقـــال معاوية : «أُعنت على علىّ رحمه الله بأربع : كنت رجلا أكتم سرى وكـــان رجـــلا ظُهَـــرة ؛ وكنت فى أطوع جند وأصلحه ، وكان فى أخبث جند وأعصـــاه؛ وتركته وأصحاب الجمل ، وقلت : إن ظفروا به كانوا أهون علىّ منه ، فيالك من جامع إلىّ ومُفرِّق عنه ، وعون لى وعون عليـــــه » .

وقال جميـــــل :

ولا يَسْمَعَنْ سرى وسرّك ثالثٌ ... ألا كلُّ سِرٍ جاوز اثنين شائع

وكـــان يقـــال : «أصبر الناس من صبر على كتمان سره ، ولم يُبْدِهِ لصديقه فيوشك أن يصير عدوا فيذيعه» . وقال آخر :

ولى صاحبٌ سِرّى المـكتَّم عنـــده ... مَخاريقُ نيرانٍ بلَيْــــــل تُحرَّقُ
عطفت على أسراره فـكسوتهـــا ... ثيابـــا من الـكتمان لا تتخرق
فمن تكن الأســـرار تطفو بصدره ... فأسرار صدرى بالأحاديث تُغْرَق
فلا تودعنّ الدهـــرَ سرَّك أحمقـــا ... فإنك إنْ أودعتـــهَ منـــــه أحمق
وحَسْبُك فى ستر الأحاديث واعظا ... من القول ما قال الأريب الموفق
إذا ضاق صدرُ المرء عن سر نفسه ... فصدر الذى يُستَوْدعُ السرَّ أضيق

وقيل : «النمائم سهم قاتل» . ويقال للنمام القَتَّات . وفى الحديث : «لايرَاح القـــتات رائحـــة الجنة». وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : «لعن الله المثلِّث » . فقيل : «يا رسول الله ، ومن المثلث ؟» فقال : «الذى يسعى بصاحبه إلى سلطانه فيهلك نفسه وصاحبه وسلطانه» .

وقال معاوية للأحنف بن قيس فى شيء بلغه عنه فانكر ذلك الأحنف. فقال له معاوية : «بلّغنى عنك الثقة» . فقال له الأحنف «يا أمير المؤمنين إن الثقة لا يبلّغ» .

وقال المُهَلّب بن أبي صُفْرة : «أدنى أخلاق الشريف كتمان السر ، وأعلى أخلاقه نسيان ما أُسِرّ إليه » .

باب مختلط

وهذا الباب اشترطنا أن نخرج فيه من حَزْن إلى سهل [1]، ومن جد إلى هزل ليستريح إليه القارئ ، ويدفع عن مستمعه الملال . قال بكر بن النطاح فى كلمة له يمدح فيها مالك بن على الخزاعى :

عَرَضْتُ عليها ما أرادتْ من المُنى ... لترضَى، فقالت قم فجئنا بكوكبِ
فقلت لها هذا التعنت كله ... كمن يتشهى لحم عَنْقاء مُغْرِب
فلو أننى أصبحت فى جود مالكٍ ... وعزته ما نال ذلك مطلبى
فتى شقيت أمواله بسماحه ... كما شقيت قيسٌ بأرماح تَغْلِب

سعيد بن مسلم

قال عبد الصّمد بن المُعَذّل يرثى سعيد بن سلْم :

كم صغيرٍ جَبَرْته بعد يُتْم ... وفقير لَعَشْته بعد عُدْمِ
كلما عضت الحوادثُ نادَى ... رَضِي اللهُ عن سعيد بن سلم

(١) الحزن : المرتفع . والسهل : المنخفض .

وقال سعيد بن سلم : عرض لى أعرابى فمدحنى فبلغ ، فقال :

ألاقُلْ لسارِى الليل لا تَخْشَ ضلةً سعيدُ بن سلم ضوءُ كل بـــلادِ
لنـــا سيد أرْبَى على كــل سيد جوادٌ حثا فى وجه كلِّ جـــواد

قال : فتأخرت عن بره قليلا فهجانى فبلغ ، فقال :

لـــكلِّ أخى مدحٍ ثوابٌ يُعــــدُّه وليس لمدح الباهــــلى ثواب
مدحت ابن سلم والمديـــح مَهَزَّةٌ فــكان كصفْوانٍ عليـــه تـــراب

وكـــان ســعيد بن سلم إذا استقبل السنة التى يستأنف فيها عدد سنيه أعتق نســمة ، وتصدق بعشرة آلاف درهم . فقيل لمدينى : «إن سعيد بن سلم يشترى نفسه من ربه بعشرة آلاف درهم» . فقال : «إذن لا يبيعه » .

البدل والالتفات

لــلحارث بن وَعْلة يقول الأعشى ، وكان قَصده فلم يَحْمده وعَرّج عنه إلى هَــوْذَة بن على ذى التاج ، وهوذة من بنى حنيفة بنِ لجيم ، والحارث بن وعلة من بنى رقاش ، وهى امرأة ، وأبوهم مالك بن شيبان بن بكر بن وائل . فقال الأعشى يذكر الحارث بن وعلة وهوذة بن على :

أتيتُ حُرَيْثــا زائرا عن جَنــــابة فــكان حريثٌ عن عطائىَ جامدا
إذا ما رأى ذا حاجــة فــكأنمــا يرى أســدا فى بيتـــه وأساوِدا

لعَمْرُك ما أَشبهتَ وعلة فى النــدى — شَمــــائلَه ولا أباه مُجـــــالدا
وإن امرءا قد زرتُه قبلَ هــــــذه — بجـــوِ لَخَيْرٌ منك نفســا ووالدا
تضيَّفْتُه يومــا فقــــرب مجلسى — وأصْفَدنى على الزَّمــانة قائــدا
وأمْتَعَنى على العشـــــا بوَليــدة — فأبْتُ بخير منك يا هوذَ حــامدا
فتى لو يُبارى الشمس ألقتْ قناعَها — أو القمرَ السّارى لألقى المقــالدا
يرى جمعَ ما دون الثلاثين قُصْــرة — ويَعْدو على جمع الثلاثين واحــدا

قوله : أتيت حريثا ، يريد الحارث ، وتصغيره على لفظة حُوَيرث ، وهذا التصغير الآخر يقال له تصغير الترخيم ، وهو أن تحذف الزوائد من الاسم ثم تصغر حــروفه الأصــلية فتقول فى تصغير أحمد : حُمَيد ، لأنه من الحمد ، وفى الحارث : حُــرَيْث ، لأنه من الحرث ، وفى غضبان : غُضيب ، لأنه من الغضب ، لأن الألف والــنون زائدتــان . وكذلــك ذوات الأربعة ، تقول فى تصغير قنديل على لفظه قنَيديل، فإن صغرته مرخما حذفت الياء فقلت : قُنَيْدل . فعلى هذا مَجْرَى الباب . وقوله : عن جنابة : يقول عن غربة وبُعد ، يقال رجل جُنُب ، ورجل جانب ، أى غــريب . قــال الله عز وجل : ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ . وقوله : يرى أسدا فى بيته وأساودا : يريد جمع أسود سالخ . وأسود ههنا نعت ، ولكنه غالب . فلذلك جرى ههنا مجرى الأسماء ، لأنه يدل على الحية . وأفعَل إذا كان نعتــا بنفسه فجمعه فُعْل نحــو أحمر وحُمْر وأسود وســود ، وإذا كان نعتــا فأُجرِى مجرى الأسماء فجمعه أفــاعِل نحــو أساوِد وأجادِل وأداهِم إذا أردت القيد لأنه نعت غالب يجرى مجرى الأسماء، وإن أردت أدهم الذى هو نعت محض قلت دُهم. قال الأشهَب بن رُميلة:

أسود شَرًى لاقتْ أسود خَفِيــةٍ — تَساقَوْا على حَرْدٍ دماءَ الأساود

فأجراه مجرى الأسماء نحو الأصاغر والأكابر والأحامد .

وقولـه لعمرك ما أشبهت وعلة فى الندى شمائله ، فإنه جعل شمائله بدلا من وعلة ، والتقدير ما أشبهت شمائل وعلة . والبدل على أربعة أضرب : فواحد منها أن يُبْدَل أحد الاسمين من الآخر إذا رجعا إلى واحد ، ولا تبالى أمعرفتين كانا أم معرفة ونكرة ، وتقول مررت بأخيك زيد ، لأن زيدا هو الأخ ، وكذلك مررت برجل عبد الله . فهذا واحد . وآخر أن يُبدل بعض الشيء منه ، نحو ضربت زيدا رأسه ، لما قلت ضربت زيدا أردت أن تبين موضع الضرب . فمثل الأول قول الله تبارك وتعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ ﴾ . ومثل البدل الثانى قوله ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ . من فى موضع خفض لأنها بدل من «الناس» . والبدل الثالث مثل ما ذكرنا فى البيت، أبدل شمائله منه وهى غيره ، لاشتمال المعنى عليها . ونظير ذلك من القرآن ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ لأن المسألة إنما كانت عن القتال هل يكون فى الشهر الحرام . وبدل رابع لا يكون مثله فى القرآن ولا فى الشعر ، وهو أن يغلط المتكلم فيدرك غلطه أو ينسى فيذكر ، فيرجع إلى حقيقة ما يقصد له وذلك قولك مررت بالمسجد دار زيد ، أراد أن يقول مررت بدار زيد ، فإما نسى وإما غلط، فاستدرك فوضع الذى قصد له فى موضع الذى غلط فيه .

وقوله : بجو : فهى قصبة [1] اليمامة . وقوله : تضيفته يوما : إنما هو تفعلته من الضيافة ، يقال : ضِفْتُ الرجل أى نزلت به ، وأضافنى أى أنزلنى . وقوله : أصفدنى ، يقول : أعطانى وهو الإصفاد ، والصَّفَد الاسم ، والإصفاد المصدر ، ويقال صَفَدت الرجل فهو مصفود من القيد ، ولا يقال فى القيد أصفدت ولكن

(1) القصبة : العاصمة .

صـــفدته صـــفدا ، واسم القيد الصَّفَد . وقوله : فتى لو يبارى الشمس ، يقول : يعارض ، يقال : انبرى لى فلان أى اعترض لى .

وأما قوله :

وأمتعنى على العشـــا بوليـــــدة فأبت بخير منك يا هـــوذ حامد

فإنه كان يتحدث عنه ، ثم أقبل عليه يخاطبه ، وترك تلك المخاطبة ، والعرب تـــترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب . قال الله جـــل وعـــز : ﴿ حَـتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ ،كانت المخاطبة للأمة ثم انصرفت إلى النبى صلى الله عليه وسلم إخبارا عنهم. وقال عنترة:

شَطَّت مزارُ العاشقين فأصبحتْ عَسِرا علىَّ طِلابُك ابنةَ مَخْرَم

فكان يتحدث عنها ثم خاطبها . ومثل ذلك قول جرير :

وترى العواذل يبتدرن ملامتى فإن أردن سوى هواك عُصينـــا

وهذا كثير جدا.

وقوله : يرى جمع ما دون الثلاثين قصرة ، أى قليلا ، من الاقتصار. ويروى يغدو ، ويعدو جميعا .

وكـــان هـــوذة بن على ذا قدر عال ، وكانت له خرزات تنظم فتجعل على رأســـه تشبها بالملوك . وحدثنى التَّوَّزى عن أبى عبيدة قال : «ما تتوج مَعَدى قط إنما كانت التيجان لليمن». قال : فسألته عن قول الأعشى :

من يَرَ هوذة يسجدْ غير مُتَّئب إذا تَعَمّم فوق التاج أو وَضَعـــا

قـــال : «إنمـــا كانت خرزات تنظم له» . وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هوذة كما كتب إلى الملوك ، وكانت بنو حنيفة بن لجيم أصحاب اليمامة. ويقول بعض النسابين إن عبيد بن حنيفة كان أتى اليمامة ، وهى صحراء ، فاختطها فجعـــل يـــركض حواليها ويخط برمحه فى الأرض على ما أصاب من النخل ، وأهم

أكــلوا ما أصابوا تحته من التمر . فلما طلع لهم التمر بعدُ لم يهتدوا لصعود النخل فأقبلوا يجدونه حتى فــكروا فأعدوا له السلالم . فلما عمرت اليمامة جعلت العرب تنتجعهم لموضع التمر فيجــاورون العزيز منهم . وكان يقال لمن دخلها من هؤلاء «السَّــواقط» ممــن كانوا . ويقال إن اليمامة والبحرين والقَرْيتين ومواضع هناك كانت لطسْم وجَديس ، والخبر فى ذلك مشهور بزرقاء اليمامة .

التشبيهات المختارة

هــذا باب طريف نصل به هذا الباب الجامع الذى ذكرناه ، وهو بعض ما مر للعرب من التشبيه المصيب والمحدَثين بعدهم . فأحسن ذلك ما جاء بإجماع الرواة ما مــر لامــرئ القيس فى كلام مختصر ، أى بيت واحد ، من تشبيه شىء فى حالتين مختلفين بشيئين مختلفين ، وهو قوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابســـا　　　لدى وَكْرِها العُنابُ والحَشَفُ البالى[1]

فهــذا مفهوم المعنى . فإن اعترض معترض فقال : فهلا فَصَل فقال كأنه رطبا العــناب وكأنه يابسا الحشف ؟ قيل له : العربى الفصيح الفطن اللِّقن يرمى بالقول مفهومــا ، ويــرى ما بعد ذلك من التــكرير عيا . قال الله جل وعز ، وله المثل الأعــلى ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ علما بأن المخاطبين يعرفون وقت الســكون ووقت الاكتساب . ومن تمثيل امرئ القيس العجيب قوله :

---

(1) العناب : ثمر أحمر حلو شبيه بالزيتون . والحشف : الردىء من التمر .

كأن عيون الوحش حولَ خبائنـا　　وأَرْحُلنا الجَزْعُ الذى لم يُثقَّب [1]

ومن ذلك قوله :

إذا ما الثُّريا فى السماء تعرّضت　　تعرُّضَ أثناء الوشـاح المُفصّـل

وقد أكثر الناس فى الثريا فلم يأتوا بما يقارب هذا المعنى ولا بما يقارب سهولة هذه الألفاظ . ومن أعجب التشبيه قول النابغة :

فإنك شمس والملـوكُ كواكب　　إذا طلعت لم يَبْدُ منهـن كوكب

ومن عجيب التشبيه قول ذى الرمَّة :

وردت اعتسـافا والثريـا كأنـه　　على قمة الرأس ابن مـاءِ مُحلِّق

وقال ذو الرمة فى وصف الماء فقرن بتغييره بُعْدَ مطلبه :

فأدلى غلامى دلوه يبتغى بهـا　　شفاء الصدى والليل أدهـم أبلق

فجاءت بنسج العنـكبوت كأنـه　　على عَصَوَيْها سـابِرىٌّ مُشَبرَق

(1) الجزع : خرز فيـه سـواد وبيـاض .

يريد أن الفجر قد نَجَم فيـــه ، فجاءت يعنى الدلو بنسج العنكبوت كأنه على عصـــويها سابرى مشبرق . والسابرى : الرقيق من الثياب والدروع. والمشبرق : الممزق .

ومن التشبيه المصيب قوله فى صفة روضـــة :

قَرحاءُ حواء أشْراطيـــــة وكَفَت فيها الذّهاب وحَفّتها البراعيـــم

قـــرحاء : يـــريد الأنوار . وقوله : حواء يقول تضرب إلى السواد لشدة ريها وخضرها ، وكذلك المفسرون يقولون فى قول الله جل وعز :﴿ مُدْهَامَّتَـــــانِ ﴾ تضربان إلى الدهمة لشدة خضرهما وريهما . وقوله : أشراطية : ليس مما قصدنا له ولـــكنه مما يجرى فيفسر ، ومعناه أنها مِطرت بنوء الشرطين . وأما قوله : الذهاب: فهى الأمطار اللينة الدائمة ، ويقال إنها أنجع المطر فى النبت ، وكذلك العهاد .

ومن ذلك قول الآخر ، أحسبه تَوْبة بن الحُمَيِّر :

كأن القلب ليلةَ قيـــــل يُغْدَى بليلى العامريــــــة أو يُـــــراحُ
قَطاةٌ عزّهـــــا شَرَكٌ فبـــــاتتْ تعالجُه وقـــد عَلِق الَجنـــــاح

ويـــروى : تجاذبه . فهذا غاية الاضطراب . وقد قال الشعراء قبله وبعده فلم يبلغوا هذا المقـــــدار .

ومن التشبيه المحمود قول الشـــاعر :

طليقُ الله لم يَمْنُنْ عليــــــــه أبو داودَ وابنُ أبى كَثــــــــير
ولا الحَجّاج عَيْنَىْ بنتِ مـــــاءٍ تُقلّب طَرْفهـــــا حَذَرَ الصُّقور

وهذا غاية فى صفة الجبان . ولذى الرمة من التشبيه المصيب قوله :

بيضاءُ فى دَعَج ، صفــراء فى نَعَج　　　كأنها فضّةٌ قد مســــها ذهبُ

وأحسن ما قيل فى صفة الضلوع واشتباكها قول الراعى :

وكأنما انتطحتْ على أثباجهـــا　　　فُدُرٌ بشابةَ قد تمنَ وُعــــولا (١)

الفـــادر : المُسِنّ من الوعول . وذو الرمة أخذ ذلك المعنى من قول المُثقِّب العَبْدى :

إذا مـــا قمتُ أرْحَلُها بليـــلِ　　　تَــأوّهُ آهــةَ الرجل الحزيـــن

ومن التشبيه المستحسن قول علقمة بن عَبَدة :

كأنّ إبريقهم ظبىٌ على شَـــرف　　　مُفدمٌ بسبا الـــكتان ملثــوم (٢)

وقال عُرْوَة بن حزام العذْرىّ :

كأن قَطاةً عُلقت بجناحهـــــا　　　على كبدى من شـــدة الخفقـــان

ومن التشبيه الحسن قول جرير فى صفة الخيل :

يَشتفن للنظر البعيـــــد كأنما　　　إرنانُهـــا ببوائن الأشـــطان (٣)

---

(١) شابة : موضع . والأثباج : جمع ثبج ، وهو وسط كل شيء ومعظمه .

(٢) الشرف : الأرض المرتفعة . ومفدم : وضع على فمه لثــام . وسبا الـــكتان : يريد سبائب ، وهى الشقة من الثياب الرقيقة.

(٣) الأشطان : جمع شطن ، وهو حبل البئر .

الأشطان : أراد شدة صهيلها ، يقول كأنما يصهلن فى آبار واسعة تبين أشطانها عن نواحيها . ونظير ذلك قول النابغة الجعدى :

ويصهل فى مثل جوف الطَّوِىِّ صهيـــلا يبيِّن للْمُعْرِب

المعرب : العالم بالخيل العِراب . ومن حسن التشبيه قول عنترة :

غادرْنَ نَضلة فى مَعْرَك يجر الأسـنة كالمحتطبْ

يقـول : طعـن وغـودرت الرماح فيه فظل يجرها كأنه حامل حطب . ومن التشبيه المتجاوز المفرط قول الخنساء :

وإن صخرا لتأتم الهُداةُ بـه كأنه عَـلَم فى رأسـه نـار

فجعلت المهتدى يأتم به [1] وجعلته كنار فى رأس علم . والعلم : الجبل .

ومـن هـذا الضرب من التشبيه قول العجاج : تَقَضِّىَ البازى إذا البازى كسرْ . والتقضى : الانقضاض ، وإنما أراد سرعتها . والعرب تبدل كثيرا الياء من أحـد التضـعيفين ، فيقولون : تظنيت ، والأصل تظننت ، لأنه تفعّلت من الظن . وكذلـك تقضـيت من الانقضاض أى تقضضت ، وكذلك تَسرّيت . ومثل هذا كثير. ومن تشبيه المحدثين المستطرف قول بشار :

كأن فؤاده كـرة تَنَزَّى حذارَ البين إنْ نفع الحـذارُ [2]

---

[1] يـأتم : يهتـدى .

[2] تـنزى : تثب .

وقال الحسن بن هانئ فى صفة الخمر :

فإذا ما لمستها فهباءً ... تمنع المسَ ما تُبيح العيونا
دَرَس الدهرُ ما تجسم منها ... وتبقّى لُبابُها المكنونا
فى كئوس كأنهن نجوم ... جاريات بُروجها أيدينا
طالعاتٌ مع السُّقاة علينا ... فإذا ما غَرَبْنَ يَغربنَ فينا

فهذه قطعة من التشبيه غاية على سخف كلام المحدثين . وقال الحنفى ، وهو إسحاق بن خلف فى صفة السيف :

ألقى بجانب خَصره ... أمضى من الأجلِ المتاحِ
فكأنما ذَرَّ الهَبا ... ءَ عليه أنفاسُ الرياح

وقال دِعْبل بن على فى صفة مصلوب :

لم أر صَفًا مثلَ صف الزُّطِّ ... تسعين منهم صُلبوا فى خَطّ
من كل عالٍ جذْعه بالشّط ... كأنه فى جذعه المشتطّ
أخو نعاس جَدَّ فى التَّمَطّى ... قد خامر النومَ ولم يغَطَّ

ومن إفراط التشبيه قول أبي خراش الهذلى يصف سرعة ابنه فى العدْو :

كأنهم يسعَون فى إثرِ طائر ... خفيف المُشاش عَظْمه غير ذى نُحض[1]
يُبادر جُنحَ الليل فهو مُهابذ ... يحثُّ الجناحَ بالتبسط والقبض[2]

---

(١) المشاش : جمع مشاشة ، وهى رأس العظم اللين . والنحض : اللحم المكتنز .

(٢) المهابذ : المسرع فى جريه .

واعلم أن للتشبيه حدا . فالأشياء تَشابهُ من وجوه وتبَاينُ من وجوه . فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع . فإذا شبه الوجه بالشمس فإنما يراد الضياء والرونق ، ولا يراد العِظم والإحراق . قال الله عز وجل : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ . والعرب تشبه النساء ببيض النعام تريد نقاءه ونعمة لونه قال الراعى :

كأنّ بيض نعام فى مَلاحِفِها ... إذا اجتلاهن قيظٌ ليلهُ وَمِد

وقيل للأوْسيِة ، وهى امرأة حكيمة من العرب ، بحضرة عمر بن الخطاب رحمه الله : «أى منظر أحسن ؟» فقالت : «قصور بيض فى حدائق خضر» .
وأنشد عمر بن الخطاب لعَدِىّ بن زيد :

كدُمَى العاجِ فى المحاريب أو كالـ ... بَيْضِ فى الروضِ زَهْرُهُ مستنيرُ

وقال جرير :

ما استوصفَ الناسُ عن شىء يروقُهمُ ... إلا رأوا أمَّ نوح فوق ما وَصَفوا
كأنها مُزْنةٌ غَراء رائحة ... أو دُرَّةٌ لا يوارِى لونَها الصَّدف

المزنة : السحابة البيضاء خاصة ، وجمعها مُزْن ، فالمرأة تشبه بالسحابة لتهاديها وسهولة مَرّها . قال الأعشى :

كأنّ مِشيَتَها من بيت ِ جارتها ... مَرُّ السحابةِ لاَ ريْثٌ ولا عَجَلُ

الريث : الإبطاء . فهذا ما تلحقه العين منها . فأما الخفة فهى كأسرع مارّ وإن خفى ذلك على البصر . والعرب تشبه المرأة بالشمس والقمر والغصن والغزال

والبقرة الوحشية والسحابة البيضاء والدرة والبيضة . وإنما تقصد من كل شيء إلى شيء . قال ذو الرمـــــة :

وَمَيــةُ أحسنُ الثَّقَلَين جِيـــــدا ... وسالفةً وأحسنُهم قَـــــذالا
فلم أر مثلها نظرا وعينــــــا ... ولا أمَّ الغزالِ ولا الغـــزالا
تُريك بياضَ غُرّتها ووجهــا ... كقَرنِ الشمس أفْتَـــق ثم زالا
أصاب خَصاصةً فبدا كَليـــلا ... كلا وانغَـلّ سائرهُ انغــلالا [1]

الجيد : العنق . والسالفة : ناحية العنق . والقذالان : ناحيتا القفا من الرأس . وَقولــه : أفتق ثم زالا : يقال أفتق السحاب ، إذا انكشف انكشافة فكانت فيه فــرجة يسيرة بين السحابتين ، تقول العرب : دام علينا الغيم ثم أفتقنا ، وإذا نُظر إلى الشـــمس والقمـــر من فَتْق السحاب فهو أحسن ما يكون وأشـــده استنارة . وقولــه : كــلا ، يريــد فى ســرعة ما بـــــدا ثم غــاب . وقال عز وجل : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ . وقال تبارك وتعالى:﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾.

وقال ذو الرمـــــة :

فيا ظبيةَ الوَعْساء بين جُلاجلٍ ... وبين النقا أأنتِ أم أم سالمِ [2]

وقال ابن أبى ربيعـــــة :

أبصرتُها ليلةً ونسوتَهــــــا ... يَمْشين بين المَقـــام والحجر
يَرْفلْنَ فى الرَّيطِ والمرُوط كما ... تمشى الهوَيْنا سواكنُ البقر [3]

---

(1) الثقلان : الإنس والجن . والخصاصة : كل خلل أو فرج . وانغل : دخل وخفى .

(2) الوعســاء : الرمل الذى يصعب المشى فيه وتغيب فيه الأقــــدام .

(3) يرفلن : يتبخترن ويجررن أذيالهن . والريط : الملاء إذا كانت قطعة واحدة . والمرط : الثوب غير المخيط .

فهذه تشبيهات غريبات مفهومة . وقال أبو عبد الرحمن العَطَوى :

قد رأينا الغزال والغصن والنجـــ ... مين شمس الضحى وبدر الظلام
فَوَحقِّ البيـــان يَعْضُـــده البر ... هان فى مَأقِطِ ألدِّ الخِصـــام
ما رأينا سوى المليحـــة شيئـــا ... جمع الحُسْنَ كلـــه فى نظـــام
فهى تجرى مَجْرَى الأصالة فى الرأ ... ى ومجرى الأرواح فى الأجسام

المـأقط : موضـع الحـرب ، فضربه مثلا لموضع المناظرة والمحاجة . والألد : الشديد الخصومة . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ .

الريـــاح

الـرياح أربع ، وما بين كل ريحين لـكْباء ، فهى ثمان فى المعنى. فما بين مَطْلِع سهيل إلى مطلع الفجر جنوب . وإنما تأتى الجنوب من قِبل اليمن . قال جرير :

وَحبّذا نفَحاتٌ من يمانيـــــة ... تأتيك من قِبَلِ الريّان أحيانـــا

وإذا هـبت مـن تـلقاء الفجر فهى الصبا ، تقابل القبلة ، فالعرب تسميها القَبول قال الشاعر :

إذا قلتُ هذا حين أسـلو يَهيجُنى ... نسيم الصبا من حيث يطّلعُ الفجر

وإذا أتت من قبل الشام فهى شَمال قال الفرزدق :

مُسْتقبِلين شَمالَ الشامِ تضربنـــا ... بحاصِبٍ كنَديفِ القطن منثـــور

وإذا جاءت من دُبُر البيت الحرام فهى الدَّبور ، وهى تهب بشدة ، والعرب تسميها مَحْوَة ، عن أبى زيد ، لأنها تمحو السحاب .

فأما الأصمعى فزعم أن محوة من أسماء الشمال . وأنشدا جميعا :

قد بَكَرتْ محوةُ بالعَجَاج فدمَّرتْ بقية الرَّجَاج [1]

الرجاج : حاشية الإبل وضعافها .

ولهذه الرياح أسماء كثيرة ، وأحكام كثيرة ، وأحكام فى العربية ، لأن بعضهم يجعلها نعوتا وبعضهم يجعلها أسماء ، وكذلك مصادرها تحتاج إلى الشرح والتفسير . يقال جَنت الريحُ جنوبا ، وشَملت شُمولا ، ودبَرت دُبورا ، وصَبت صُبوا ، وسَمَّت سُموما ، وحَرت حُرورا ، مضمومات الأوائل . فإذا أردت الأسماء فتحت أوائلها ، فقلت : جَنوب ، وشَمول ، وسَموم ، ودَبور ، وحَرور . ولم يأت من المصادر شىء مفتوح الأول إلا أشياء يسيرة ، قالوا توضأت وَضوءا حسنا ، وتطهرت طهورا . ويقال الشمال على لغات ست ، يقال : شَمال ، وشأمل ، وشَمْأل، وشَمَل وشَمْل وشامَل غير مهموز . ويقال للشمال الجِرْبِياء .

ويقال للجنوب الأزْيَب ، ويقال للصبا القَبول ، وبعضهم يجعله للجنوب ، وهو فى الصَّبا أشهر بل هو القول الصحيح ، والِهير والأَيِّر والهَيِّرُ . وقال الشاعر :

* مَطاعيم أيسار إذا الهيرُ هَبّتِ *

---

[1] العجاج : الغبار .

فهـــذا يدل على أنه الصبا ، وذاك أنهم يتمدحون بالإطعام فى المَشتاة وشدة الزمان كما قال طَرفة :

نحن فى المَشتاةِ ندعـــــو الجَفَلى لا تـــرى الآدب فِينا يَنْتَـــقِرْ

الجفـــلى : العامـــة . والنَّقَرى : الخاصة . والآدب : صاحب المأدبة ، يقال مأدَبة ومأدُبه للدعوة .

يقـــول أكثر العرب : هذه ريح جنوب ، وريح شمال ، وريح دبور . فتجعل جنوبا وشمالا ودبورا وسائر الرياح نعوتـــا . قال الأعشـــى :

لهـــا زَجَلٌ كحَفيف الحصـــــا دِ صادف بالليل ريحا دبـــورا [1]

وقال جرير : * ريح خَريق شمال أو يمانية * فهذا يكون على النعت أجود لأنه أوضحه بيمانية ولا تـــكون اليمانية إلا نعتـــا لأنها منسوبة . فأما الخريق فهى الشديدة من كل ريح .

والبليل : الباردة من كل الرياح ، وأصل ذلك الشمال . قال جرير يعير بنى مجاشع بخذلانهم الزبير بن العوام فى كلمة يقول فيها :

إنى تُذكِّرنى الزبيرَ حمـــــامـــةٌ تدعو بأعلى الأيْكَتين هَديـــلا
ياهفَ نفسى إذ يَغُرُّك حَبْلُهـــم هلا اتخذتَ على القُيون كَفيـــلا
قالت قريش ما أذلَّ مجاشـــــعا جارا وأكرمَ ذا القتيـــل قتيـــلا

---

(1) الزجـــــل : الصوت .

أفبعدَ مَتْركـــكم خليـــلَ محمد ترجو القيونُ مع الرســول سبيلا ؟
أفتى الندى وفتى الطِّــعان غررتم وأخــا الشمال إذا تهب بليــلا ؟

وكـــان لبيد بن ربيعة شريفا فى الجاهلية والإسلام ، وكان قد نذر أن لا تهب الصـــبا إلا نحـــر وأطعم حتى تنقضى . فهبت بالإسلام وهو بالـــكوفة مقتر مملق . فعـــلم بذلك الوليد بن عقبة . فخطب الناس ، وقال : «إنــكم قد عرفتم نذر أبى عقيل وما وكد على نفسه ، فاعينوا أخاكم » . ثم نزل فبعث إليه بمئة ناقة ، وبعث الناس ، فقضى نذره . ففى ذلك تقول ابنة لبيـــد :

إذا هبت رياح أبى عقيــــل دعونـــا عند هَبَّتهـــا الوليـــدا

وتقـــول فى أكثر الـــكلام : هبت جنوبا ، وهبت شمالا ، فتستغنى عن ذكر الريح . وهذا مما يؤكد أنها نعوت ، لأن الحال إنما بابها أن تقع فيما يكون نعتـــا . قال جرير :

هبت شمالا فذِكرى ماذكرتـــكمُ عند الصَّفاة إلى شرقىِّ حَوْرانـــا

وقـــال أوس بـــن حجر فى شدة البرد وغلبة الشمال يرثى فَضالة بن كَلَدة الأســـــدى :

والحافظ الناسَ فى تَحـــــوطَ لم يُرسلوا تحت عائذ رُبَعـــــا
وعَزَّتِ الشَّمْألُ الرياحَ وقـــــد أمسى كَميعُ الفتـــاة مُلتفعـــا [1]
وكانت الـــكاعب المنعَّمة الـــــ حسناء فى زاد أهلهـــا سَبُعـــا

---

[1] عزت : غلبت . والـــكميع : الضجيع .

تحوط وقحوط وكَحْل وحَجْرة أسماء للسنة المجدبة . والعائذ : الحديثة النتاج فتنحر أولادها فى السنة المجدبة إبقاء على ألبانها وشحومها . والربع : الذى ينتج فى الربيع . والهبع : الذى ينتج فى الصيف . يقال : ماله هبع ولا ربع ، وإنما سمى هبعا لأن الــربع أســن منه فيمشى مع أمهاتها ولا يلحقهن الهبع إلا باجتهاد ، فيستعين بعنقه فى المشى يقال إذا فعل ذلك هبَع يهبَع . ويقال للريح الشمال : نشع ومسْع قال الهذلى :

قد حال دون دريسَيْهِ مُؤَوِّبـــــــةٌ نِسْعٌ لهـــا بعضاهِ الأرض تَهْزيــز

الدريســـان : ثوبان خَلَقان . ومؤوِّبة : مُفَعِّلة من التأويب ، وهو سير النهار لا تعريج فيه. قال أبو عبيدة: هو سير النهار . والإسآد : سير الليل لا تعَرْيس فيه . وإنما يعنى ريحا . وقوله نسع : أى شمال . والعضاه : شجرة ضخمة ، فبعض العرب يقول للواحدة : عضَة ، فيقول فى الجمع : عضَوات وعِضَهات .

ويقال للريح الجنوب النُعامَى . قال أبو ذُؤيب :

مَرَتْه النُّعـــــامَى فلـــــم يعترفْ خلافَ النعامى من الشام ريحـــا

ومعـــنى مـــرته : استدرَّته [(1)] . وفى الحديث : «ماهبت الريح الجنوب إلا أسال الله بها واديا» . وقال رجل يمدح رجلا :

فتى خُلقتْ أخلاقُــــــه مطمئنةً له نفحـــــاتٌ ريحُهُنَّ جنوب

---

(1) أى حلبتـــــــــه .

يــريد أن الجنوب تأتى بالمطر والندى . والعرب تــكره الدبور . وفى الحديث أن رســـول الله صلى الله عليه وسلم قال : «نُصرت بالصَّــبا ، وأهلــكت عــاد بــالدَّبور » . وقلما يكون بالدبور المطر لأنها تجفل السحاب . ويكون فيها الرَّهَج والغبَرة ، ولا تهب إلا أقلّ ذاك إلا بشدة فتــكاد تَقْلع البيوت وتأتى على الزرع . وقال رجل يهجو رجــلا :

لو كنتَ ريحا كانت الدَّبــورا   أو كنت غيما لم تــكن مطيرا
أو كنت ماء لم تــكن طَهورا   أو كنت مُـخـا كنت مخاريرا
أو كنت بردا كنت زمهريرا

الرير : المخ الرقيق ، يقال مخ رير ورار ، فى معنى واحــد .

فأمــا مــا جــاء فى الحديث من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الهــبوب: «الــلهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحــا» فإن العرب تقول : لا تَلْقَح الســحاب إلا من رياح . وتصديق ذلك قول الله عز وجل : ﴿الذى يُرسل الرياح فتُــثير سحابا﴾ . وقول النبى صلى الله عليه وسلم : «إذا هبَّت بحْريَّة ثم تذاءَبَت» . قــال الشــاعر : * تَسُحّ إذا تذاءبت الرياح * يقول إذا تقابلت ، يقال تذاءبت الــرياح وتناوحت أى تقابلت . فإذا خَلَصت الريح عندهم دبورا فهى من جنس الــبوار ، وإذا خلصت شمالا شتوية فهى من آيات الجدب ، ومن ثم تقول العرب : فلان يطعم فى الشمال ، كما تقول يطعم فى المَحْل .

أقبح العيوب

كان زياد يقول ، وهو الغاية فى السياسة : «أوصيكم بثلاثة : بالعلم والشريف ، والشيخ . فوالله لا أوتى بوضيع سب شريفا أو شاب وثب بشيخ أو جاهل امتهن عالما ، إلا عاقبت وبالغت » . وقال عمارة لبنى أسد بن خُزَيْمة :

يا أيها السائلى عمدا لأخبره ... بذات نفسى وأيدى الله فوق يدى
إن تستقم أسدٌ تَرْشُد وإن شَغَبت ... فلا يَلُم لائم إلا بنى أسد
إنى رأيتكمُ يُعْصَى كبيركم ... وتَكْنعون إلى ذى الفجْرة النكد
فباعد الله كلَّ البعد داركمُ ... ولا شفاكم من الأضغان والحسد

فرأى عصيانهم الكبير من أقبح العيب وأدله على ضغن بعضهم لبعض وحسد بعضهم بعضا . والوضيع ينقلب إلى الشريف لأنه يرى مقاولته فخرا ، والاجتراء عليه ربحا ، كما أن مقاولة الشريف للئيم ذل وضعه . وقال الشاعر :

إذا أنتَ قاولت اللئيم فإنما ... يكون عليك العَتْبُ حين تُقاوله
ولست كمن يرضى بما غيرُه الرِّضا ... ويمسح رأس الذئب والذئبُ آكله

وقد امتنع قوم من الجواب تنبلا ومواضعهم تنبىء عن ذلك . وامتنع قوم عيا بلا اعتلال . وامتنع قوم عجزوا واعتلوا بكراهة السفه ، وبعضهم معتل برفعة نفسه عن خصمه ، وبعضهم كان يسبه الرجل الركيك من العشيرة فيعرض ويسب سيد قومه . وكانت الجاهلية ربما فعلته فى الذحول [1] . قال الراجز :

---

(١) الذحول : جمع ذحل ، وهو الثأر .

obeikandl.com

إنّ بَجيلا كلما هجاني | مِلْتُ على الأغْطش أو أبان
أو طلحةِ الخير فتى الفتيان | أولاك قوم شأنهم كشاني
ما نلت من أعراضهم كفاني | وإن سكتُّ عرفوا إحساني

وقال أحد المحدَثين :

أما الهجاء فدَقّ عرضُك دونه | والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت عَتِيق عرضك إنه | عرض عَزَزْتَ به وأنت ذليل

وقال آخر :

نُبِّئتُ كلبا هاب رميى له | ينبحنى من موضع نائى
لو كنتَ من شيء هجوناك أو | لو نلت للشائع والرائى
فَعَجّ عن شتمى فإنى امرؤ | حَلّمنى قلة أكفائى

ووقف رجل عليه مقطّعات [1] على الأحنف بن قيس يسبه ، وكان عمرو بن الأهتم جعل له ألف درهم على أن يسفّه الأحنف فجعل لا يألو [2] أن يسبه سبا يُغضِب ، والأحنف مطرق صامت . فلما رآه لا يكلمه أقبل الرجل يَعَضّ إبهاميه ويقول : «يا سو أتاه ، والله ما يمنعه من جوابى إلا هوانى عليه» .

وفعل ذلك آخر فأمسك عنه الأحنف ، فأكثر الرجل إلى أن أراد الأحنف القيام للغداء . فأقبل على الرجل فقال له «يا هذا ، إن غداءنا قد حضر ، فانهض بنا إليه إن شئت ، فإنك منذ اليوم تحدو بجمل ثقال» والثقال من الإبل : البطىء الثقيل الذى لا يكاد ينبعث .

---

(١) المقطعات : كل ما قطع وخيط من الثياب .

(٢) يألو : يقصر .

وعُدَّت على الأحنف سقطة فى هذا الباب ، وهو أن عمرو بن الأهتم دس إليه رجــلا ليسفهه ، فقال لــه : « أبا بحر ، ما كان أبوك فى قومه ؟ » قال : « كان من أوســطهم ولم يتخلف عنهم » . فرجع إليه ثانية . ففطن الأحنف أنه من قبل عمرو فقــال : « ما كان مال أبيك ؟ » فقال : « كانت له صِرْمة يمنح منها وَيقْرِى ، ولم يك أهتم سلاحــا » .

فأمــا قول الشعبى للرجل ما قال فمن غير هذا الباب ، وإنما مخرجه الديانة . وذاك أن رجــلا سب الشعبى بأمور قبيحة نسبه إليها . فقال الشعبى : « إن كنت كاذبا فغفر الله لك ، وإن كنت صادقا فغفر الله لى » .

وقال رجل لأبى بكر الصــديق رحمه الله : « لأسُبَّنك سبا يدخل معك قبرك ». فقال : « معك والله يدخل لا معى » .

ويتصــل بهذا البــاب ذكر من رغب برجل عن إِرْثِ رجل لا يشاكله وولاية رجل لا يشابهه . قال الشاعر :

بكتْ دارُ بِشْرِ شَجْوَها أَنْ تبدلّتْ　　هلالَ بن قَعْقاعٍ ببشر بــن غالب
وما هى إلا كالعروسِ تنقّــلت　　على رغمها من هاشم فى محارب

التشبيهات المستحسنة

ثم نرجع إلى التشبيه المصيب . قال امرؤ القيس فى طول الليل :

كأنّ الثريا عُلقت فى مَصامّهــــا　　بأمراسِ كتان إلى صُمِّ جَنْــدَلِ

فهـــذا فى ثبات الليـــل وإقامته . والمصام : المقام ، وقيل للممسك عن الطعام صائم لثباته على ذلك . والأمراس : جمع مَرَس وهو الحبل .

وقال فى ثبات الليل :

فيـــالك من ليـــــل كأنّ نجومَـــه بكل مُغارِ الفَتْلِ شُـــدّتْ بيذْبُلِ

المغــــار : الشديد الفتل ، يقال أغَرْت الحبل إذا شددت فتله . ويذبل : جبل بعينه . وقال أيضـــــا :

كأن أبانا فى أفـــــــانين وَدْقِهِ كبيرُ أناس فى بِجـــاد مُزمَّـــــل

أبان : جبل ، وهما أبانان : أبان الأســـود ، وأبان الأبيض . وقوله : فى أفانين ودقـــه : يـــريد ضروبا من ودقه . والودق : المطر . وقوله : كبير أناس فى بجـــاد مزمل: يريد مزملا بثيابه. قال تبارك وتعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ*قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . وهو المُتزمل ، والتاء مدغمة فى الزاى . وإنما وصف امرؤ القيس الغيث، فقال قوم: أراد أن المطر قد خنق الجبل فصار له كاللباس على الشيخ المتزمل ، وقال آخرون: إنما أراد ما كساه المطر من خضرة النبت ، وكلاهما حسن . وذكر الودق لأن تلك الخضرة من عمله .

وقال زهير :

كأن فُتات العِهْنِ فى كـــــل منزل نزلن به حَب الفَنـــا لم يُحطـــمِ

الفـــــــا : شـــجر يثمر ثمرا أحمر ثم يتفرق فى هيئة النبق الصغار . فهذا من أحســـن التشبيه . وإنما وصف مايسقط من أنماطهن إذا نزلن . والعهن : الصوف

الملون فى قول أكثر أهل اللغة ، وأما الأصمعى فقال : كل صوف عهن . وكذلك قال أهل اللغة : الَحنْتم : الخزف الأخضر ، وقال الأصمعى : كل خزف حنتم .

والتشبيه جار كثير فى كلام العرب ، حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم ، لم يبعد . قال الله عز وجل وله المثل الأعلى : ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ وقال : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ . وقد اعترض معترض من الجهلة الملحدين فى هذه الآية ، فقال : «إنما يمثَّل الغائب بالحاضر ، ورؤوس الشياطين لم نرها ، فكيف يقع التمثيل بها ؟» وهؤلاء فى هذا القول كما قال الله عز وجل : ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ وهذه الآية قد جاء تفسيرها فى ضربين : أحدهما أن شجرا يقال له الأستَن منكر الصورة يقال لثمره رؤوس الشياطين ، وهو الذى ذكره النابغة فى قوله : * تَحيد من أستَنٍ سود أسافلهُ * وزعم الأصمعى أن هذا الشجر يسمى الصوم . والقول الآخر ، وهو الذى يسبق إلى القلوب ، أن الله جل ذكره شَنع صورة الشياطين فى قلوب العباد ، وكان ذلك أبلغ من المعاينة . ثم مَثل هذه الشجرة بما تنفِر منه كل نفس .

وحُدثت فى إسناد متصل أن أبا النجم العِجْلى أنشد هشام بن عبد الملك * والشمس قد صارت كعين الأحول * لما ذهب به الرِّوِىُّ عن الفكر فى عين هشام . فأغضبه فأمر بطرده . فأمل أبو النجم رجعته وكان يأوى المساجد . فأرق هشام ليلة فقال لحاجبه : «أبغنى رجلا فصيحا يحادثنى وينشدنى» . فطلب له ما طلب فوقف على أبى النجم فأتى به . فلما دخل به إليه قال : «أين تكون منذ أقصيناك ؟» قال : «بحيث ألفتنى رسلك» . قال : «فمن كان أبا مثواك ؟» قال : «رجلين كلبيا وتغلبيا ، أتغدى عند أحدهما وأتعشى عند الآخر» . فقال له :

«مــالك مــن الولد ؟» قال : «ابنتان» . قال : «أزوجتهما ؟» قال : «زوجت إحداهما» . قال : «فبم أوصيتها» قال : «قلت لها ليلة أهديتُها :

سُبِّى الحمـــاةَ وابْهتِى عليهـــا   وإنْ أَبتْ فازْدلِفى إليهـــــا
ثم اقْرعِى بالوَدْ مِرفَقَيْهـــــا   وجَددى الحِلْف به عليهـــــا
لا تخبرى الدهرَ بذاك ابنيهـــا

قال : «أفأوصيتها بغير هذا ؟» قال : «نعم قلت :

أوصيتُ من بَرَّةَ قلبـا حــــرا   بالــكلب خيرا والحماةِ شــــرا
لا تسأمى لَهْكا لها وضَــــرا   والحىُّ عُمِّيهم بشَرٍّ طــــــرا
وإنْ كَسَـــــوك ذهبـــا ودُرا   حتى يَرَوْا حلو الحيـــاة مــرا

فقـــال هشـــام : «ما هكذا أوصى يعقوب ولده» قال أبو النجم : «ولا أنا كيعقــوب ولابنتى كولده» . قال : «فما حال الأخرى ؟» قال : «قد درجت بــين بيوت الحى ، ونفعتنا فى الرسالة والحاجة» قال : «فما قلت فيها ؟» قال : قلت :

كأن ظَلامةَ أخت شـــــيبان   يتيمةٌ ووالداها حَيــــان
الرأسُ قملٌ كــــله وصِئبان   وليس فى الرجلين إلا خيطـــان
فهى التى يُذعَر منها الشيطان

فقال هشام لحاجبه : «ما فعلت الدنانير المختومة التى أمرتك بقبضها ؟» قال: «هــاهى عندى ووزنها خمسمئة» . قال : «فادفعها إلى أبى النجم ليجعلها فى رجل ظلامــة مــكــان الخيطين» . أفلا تراه قال : * فهى التى يذعر منها الشيطان * وإن لم يره ، لما قُرر فى القلوب من نــكارته وشناعته . وقال آخر :

وفى البقل إن لم يدفع الله شـــره شياطين يعدو بعضهن على بعض

وزعم أهل اللغة أن كل متمرد من جن أو إنس يقال له شيطان ، وأن قولهم : تشـيطن ، إنمـا معـناه تخبَّث وتنـكر . وقد قال الله جل وعز: ﴿ شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ . قال الراجز :

أبصرها تلتهـــــم الثعبانـا شيطانةً تزوجت شـــيطانـا

وقال امرؤ القيس :

أتقتلنى والمَشْرفىُّ مُضـــاجعى ومَسنونة زرق كأنياب أغـوال

والغول لم يخبر صادق قط أنه رآهـــا .

ومن التشبيه المطرد على ألسنة العرب ما ذكروا فى سير الناقة وحركة قوائمها قال الراجـــز :

كأنهـــا ليـــلةَ غِب الأزرَقِ وقـد مَدَدْنـا باعَهـا للُسّوق
خرقاءُ بين السُّلمين ترتقى

قولـــه : ليلة غب الأزرق ، إنما يعنى موضعا ، وأحسبه ماء لأنهم يقولون نطفة زرقاء ، وهى الصافية . وقوله : وقد مددنا باعها للسوق ، يقول استفرغنا ما عندها من السير . يقال : تبوّعت وانباعت ، إذا مدت باعها . وقوله : خرقاء بين السلمين ترتقى ، يقول لـكثرة حركـة الخرقاء وقلة حذقها بالصعود .

وقال الشماخ :

كأن ذراعيها ذراعـــــا مُدلةٍ — بُعيدَ السِّبابِ حـــاولتْ أن تَعَذّرا
من البيض أعطـــــــافا إذا اتصلت دَعَتْ
فراسَ بن غَنْـــــــم أو لقيط بن يَعْمرا
لها شَرَق من زعفـــــران وعنبر — أطارت من الحسن الرداءَ المحَبَّرا
تقول وقد بلّ الدمــوع خِمارَهـــا — أبى عِفتى ومَنْصـــــبى أن أُعَيرا
كأن بذِفراهـــا مناديل فـــــارقتْ — أكُفَّ رجال يَعْصِرون الصَّنَوْبـــرا
كأن ابن آوى مُوثَـــق تحت غَرْضِهـــــا
إذا هـــــــو لم يَـــكْلِم بنابيـــه ظَفَّـــرا

شبه يديها بيدى مدلة بجمال ومنصب قد سابّت وأقبلت تعتذر وتشير بيديها ، فوصـــف جمالهـــا الـــذى به تُدل ومنصبها المتصل بمن ذكرته . وقوله : أطارت من الحســـن الرداء المحبرا ، يقول هى مدلة بجمالها فلا تختمر فتستر شيئا عن الناظر لأنها تبتهج بكل ما فى وجهها ورأسها . وقوله :

كأن بذفراهـــا مناديل فـــــارقت — أكف رجال يعصرون الصنوبـــرا

يقول : لسواد الذفرى وهذا من كرمها . وأما قوله :

كأن ابن آوى موثق تحت غرضهـــا — إذا هو لم يكلم بنابيــــــه ظفرا

يقول : ليست تستقر فـــكأن ابن آوى يَكْلمها بنابيه أو يخلبها بظفره فهى لا تستقر . والغرض والغُرضة : واحد ، وهو حزام الرَّحْل . وقال آخر :

كأن ذراعيها ذراعــا بَذيَّــــــة مفجَّعة لاقتْ خلائل عــــن عُفْر
سمعن لها واستفرغت فى حديثهــا فلا شىء يَفْرِى باليدين كما تفرى

ولــو قيــل : إن هذا من أبلغ ما قيل فى هذا الوصف ، ما كان ذلك بعيدا . وصفها بأنها بذية ، وقد فُجعت بما أُسمعت ونيل منها ، ولقيت خلائلها بعد زمان ، وتلك الشكوى كامنة فيها ، وأصغين إليها يتسمعن . والفرى : الشق .

وقال امرى القيس :

كأن الحصى من خلفها وأمامهـــا إذا نَجلَتْه رجلُهــا خَذْفُ أعسَرا
كأن صليل المرْو حين تُشــــذُّه صليل زُيوف يُنتقَدن بَعبْقَــرا [1]

قوله : خذف أعسرا : يريد أنه يذهب على غير قصد . وقوله : صليل زيوف يقال إن الزيف شديد الصوت صافيه .

وقد أكثروا فى هذا . فمن الإفراط فى السرعة قول ذى الرمــة :

كأنه كوكب فى إثر عِفْرِيــــــة مُسوَّم فى سواد الليل مُنقضِب [2]

يقال : عفريت وعفرية فى معنى واحــــد .

ومن الإفراط قول له :

بأرض ترى فَرْخَ الُحبارى كأنــه بها راكبٌ موفٍ على ظهر قردد [3]

---

(١) نجلته : رمته . والمرو : حجر الصوان . وتشذه : تنحيه وتقصيه . وعبقر : موضع .

(٢) مسوم : معلم . منقضب : متنقل من مكان إلى آخر .

(٣) القردد : ما ارتفع وغلظ من الأرض .

ومن ذلك قوله :

وكادت على الأطواء أطواء ضارجٍ ... تُساقِطني والرّحْلُ من صوتِ هدهد [1]

وقال آخــــر :

مَروحٌ برجليهــا إذا هي هجَّرت ... ويمنعها من أن تطير زمامهــا [2]

وكذلــك الأعرابي الذى يقول * لو ترسل الريح لجئنا قبلها * وأملح ما قيل في هذا المعنى وأجوده قول امرئ القيس :

وقد أغتدِى والطيرُ فى وُكُناتهـــا ... بمُنجرِد قَيْدِ الأوابدِ هيـــكل [3]

فجعله للوحش كالقيد . ومن حلو التشبيه وقريبه وصريح الـكلام قول ذى الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعتُـــــه ... وقد جَلّلته المظلماتُ الحنــادِس

الحِنْدِس : اشتداد الظلمة وهو توكيد لها . وقال الشماخ فى صفة الفرس :

مُفجُّ الحَّوامِي عن نسور كأنهـــا ... لوَى القَسْبِ تَرتْ عن جَرِيم مُلَجْلَج [4]

---

(1) الأطواء : جمع طوى ، وهى البئر المطوية . وضارج : موضع .

(2) هجرت : سارت فى الهاجرة ، وهى حر منتصف النهـــار .

(3) الوكنات : جمع وكنة ، وهى عش الطائر . والمنجرد : القصير الشعر من الخيل . والهيكل : العظيم .

(4) القسب : التمر اليابس . والجريم : المحصود المقطوع .

قولـــه: مفج الحوامى ، يريد مفرق الحوامى . فالحوامى : نواحى الحافر . والنســور واحدهــا نسر ، وهى نكتة فى داخل الحافر ، ويحمد الفرس إذا صلب ذلــك مــنه ، ولذلك شبه بنوى القسب . وترت : سقطت . والجريم : المصروم . والملجــلج : الــذى قد لجلج مضغا فى الفم ثم قذف لصلابته . وقوله مفج ، ليس يــريد الــذى هــو شديد التفرقة ولــكن الانفصال عن النسر ، فإنه إن اتسع واستوى أسفله فذلك الرَّحَح وهو مذموم فى الخيل ، وكذلك إن ضاق وصغر قيل لــه مُصْطَرّ ، وكان عيبا قبيحا. وإنما يحمد الحافر المقعَّب ، وهو الذى هيئته كهيئة القعــب . وإن كان كذلك قيل حافر وَأب . وفى كل حافر حاميتان ، وهما حرفاه عن يمين وشمال . ومقدمه السُّنْبُك ومُؤخَّره الدابرة .

ومن التشبيه الحسن قول الشاعر :

كأن المتن والشَّرْخين منــــــــه ... خلافَ النَّصْلِ سِيــطَ به مَشيج

يــريد سهما رُمِى به فأنفذ الرمية ، وقد اتصل به دمها . والمتن : متن السهم . وشــرخ كل شىء : حدُّه ، فأراد شرخى الفُوق ، وهما حرفاه . والمشيج : اختلاط الدم بالنطفة .

وأنشد بشار بن برد الأعمى قول كثير :

ألاَ إنما ليلى عصــــا خيزرانــة ... إذا غمزوها بالأكـــــف تلين

فقال : «لله أبو صخر جعلها عصا ثم يعتذر لها ، والله لو جعلها عصا من مخ أو زبد لــــكان قد هجنها بالعصــا» . ألا قال كما قلت :

obeikandi.com

وَبيضاءِ المحاجـــــرِ من مَعَد كأنَّ حديثها قِطَع الجِنـــــان
إذا قـــامت لسُبْحَتها تثنت كأن عظامهـــــا من خيزران

والخيزران : كل غصن لين يتثنى .

وقد عاب بعض الناس قول كثير :

فما روضةٌ بالحزْن طيبـــة الثرَى يمج الندَى جَثْجاثها وعَرارُهـــا
بمنخَرقٍ من بطن واد كأنمـــا تلاقتْ بــه عَطارة وتجارهـــا
بأطيبَ من أردان عَزَّةَ مَوْهنـــا وقد أُوقدتْ بالمندل الرَّطب نارها

وحكـى الـزبيريون أن امرأة مدينية عرضت لكثير ، فقالت : «أأنت القائل هذين البيتين ؟» قال : «نعم» . قالت : «فض الله فاك ! أرأيت لو أن زنجية بخرت أردانها بمندل رطب أما كانت تطيب ؟ ألا قلت كما قال امرؤ القيس :

ألم تر أنى كلما جئتُ طارقـــا وجدتُ بها طِيبـــا وإن لم تَطيبِ

الجثجاث : ريحانة طيبة الريح برية من أحرار البقل . والعرار : البهار البرى ، وهــو حسن الصفرة طيب الريح . وقوله : موهنا : يريد بعد هدءٍ ، يقال أتانا بعد هــدء من الليل ، وبعد وهن ، أى بعد دخولنا فى الليل . والمندل : العود ، يقال له المندل والمندلىّ .

قال الراجــز :

كأنها حين تناهَى البـــــاسُ جنيــــةٌ فى رأسهـــا أمْراسُ
بها ســكون وبها شِـــماس [1] يخرج منها الحجر الـكُباس
يمرّ لا يحبســـه حَبّـــاس لا نافـــذ الطعنِ ولا تَرّاس

(1) الشماس : الامتناع والإبـــــاء .

يصف المنجنيق . والأمراس : الحبال ، الواحدة مَرَسة . والكباس : الضخم. والحباس : الذى من شأنه أن يحبس ، يقال : رجل ضارب للذى يضرب ، كثيرا كان منه ذلك أو قليلا . فإذا قلت : ضَراب وقتال ، فإنما يكثر الفعل ولا يكون للقليل .

والعرب تشبه على أربعة أضرب : فتشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه ، وهو أخشن الكلام . فمن التشبيه المفرط المتجاوز قولهم للسخى : هو كالبحر ، وللشجاع : هو كالأسد، وللشريف : سما حتى بلغ النجم ، ثم زادوا فوق ذلك . فمن ذلك قول بعضهم :

له هِمَمٌ لا منتهَى لكبارها ... وهمّتُه الصغرى أجلُّ من الدهر
له راحةٌ لو أن معشار جُودِها ... على البر صار أندى من البحر
ولو أن خَلق اللهِ مَسْك فارس ... وبارَزَه كان الخليَّ من العمر [1]

وقد قيل إن امرأة عمران بن حطان قالت له : «أما زعمت أنك لم تكذب فى شعر قط ؟» قال : «أو فعلت» قالت: أنت القائل :

فهناك مَجزَأةُ بن ثور ... كان أشجعَ من أسامه

أفيكون رجل أشجع من الأسد ؟» ، فقال : «أنا رأيت مجزأة فتح مدينة ، والأسد لا يفتح مدينة» .

---

(١) المسك : الجلد .

ومـن عجيـب التشبيه فى إفراط غير أنه خرج فى كلام جيد ، وعنى به رجل جـليل فخـرج مـن باب الاحتمال إلى باب الاستحسان ، ثم جُعل لجودة ألفاظه وحسـن رصفه واستواء نظمه فى غاية ما يستحسن ، قول النابغة يعنى حِصْن ابن حذيفة :

يقولون حصن ثم تـأبى نفوسُهم وكيف بحصن والجبال جُنـوحُ
ولم تلفِظ الموتى القبورُ ولم تـزل نجومُ السماء والأديم صحيـح
فعَمّا قليلٍ ثم جـاء نَعيـهُ فظل نَدىُّ الحيّ وهو ينـوح

ومن تشبيههم المتجاوز الجيد النظم قول أبى الطَّمَحان :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههـم دجَى الليل حتى نظَّم الجَزْعَ ثاقبُه

ويروى عن الأصمعى أنه رأى رجلا يختال فى أزيِّر فى يوم قُرٍّ فى مشيته ، فقال لـه : «ممن أنت يا مقرور ؟» فقال : «أنا ابن الوحيد ، أمشى الَخَيْزَلَى ويُدفئنى حسبى [(١)] » .

وقيل لآخر فى هذا الحال : «أما يوجعك البرد ؟» فقال : «بلى والله ، ولكنى أذكر حسبى فأدفأ» . وأصوب منهما قول العريان الذى سئل فى يوم قر عما يجد . فقـال : «ما علىَّ منه كبير مؤنة » . وقيل : «وكيف ؟» فقال : «دام بى العرى فاعتاد بدنى ما تعتاده وجوهكم » .

---

(١) أزير : تصغير إزار ، وهى الملحفة . والقر : البرد . والخيزلى : مشية فيها تفـكك وتثاقل .

ومن التشبيه القاصد الصحيح قول النابغـــة :

وَعيدُ أبي قابُوسَ فى غير كُنْهِــه — أتانى ودونى راكسٌ فالضَّـواجعُ
فبِتُّ كأنى ساوَرتْنى ضئيــلةٌ — من الرُّقْش فى أنيابها السم ناقــع
يُسهَّد من نوم العشـاء سليمُهـا — لَحَلْيِ النساءِ فى يديه قعاقِــع
تناذرها الراقون من ســوء سمها — تُطلِّقه طورا وطورا تراجــع [1]

فهذه صفة الخائف المهموم . ومثل ذلك قول الآخر :

تَبيت الهموم الطارقـــات يَعُدْنَنى — كما تعترى الأوصاب رأس المطلق

والمطلق : هو الذى ذكره النابغة فى قوله * تطلقه طورا وطورا تراجع * وذاك أن المنهوش إذا ألح الوجع به تارة وأمسك عنه تارة ، فقد قارب أن يوأس من برئه. وإنمـا ذكـر خوفـه من النعمان وما يعتريه من لوعة فى إثر لوعة والفترة بينهما . والخائف لا ينام إلا غرارا ، فلذلك شبهه بالملدوغ المسهد . وقوله : لحلى النساء فى يديه قعاقع ، لأنهم كانوا يعلقون حلى النساء على الملدوغ ، ويزعمون أن ذلك من أسـباب البرء ، لأنه يسمع تقعقعها فيمنعه النوم ، فلا ينام فيدب فيه السم ويسهد لذلك .

وقال الآخـــر :

كأنَّ فِجاجَ الأرضِ وهى عريضــةٌ — على الخائف المطلوب كُفَّة حابل
يُؤَدَّى إليه أن كل ثنيــــة — تَيمَّمها ترمى إليــه بقاتــل .

---

[1] راكس والضواجع : موضعان . والرقش : جمع رقشاء ، وهى الحية المنقطة بسواد وبياض .

يقال لـــكل مستطيل كَفة ، ويقال لـــكل شيء مستدير كِفة . وكُفة الحابل : يعني صاحب الحبالة التي ينصبها للصيد .

وأما التشبيه البعيد الذي لا يقوم بنفسه فـــكقوله :

بل لو رأتني أختُ جيرانـــــــــا　　　إذ أنا في الدار كـــــــأني حمار

فإنمـــا أراد الصحة . فهذا بعيد لأن السامع إنما يستدل عليه بغيره . وقال الله جـــل وعز ، وهذا البين الواضح : ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ . والسِّفْر : الكتاب . وقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ ﴾ في أنهـــم قـــد تَعامَوْا عنها وأضربوا عن حدودها وأمرها ونهيها، حتى صاروا كالحمار الذي يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها .

والتشـــبيه كما ذكرنا من أكثر كلام الناس . وقد وقع على ألسُن الناس من التشـــبيه المستحســـن عندهم وعن أصل أخذوه أن شبهوا عين المرأة والرجل بعين الظـــبي أو البقرة الوحشية ، والأنف بحد السيف، والفم بالخاتم ، والشعر بالعناقيد، والعنق بإبريق فضة ، والساق بالجُمَّار [1] . فهذا كلام جارٍ على الألسن . وقد قال سراقة بن مالك : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وساقاه باديتان في غَرْزِه كأنهمـــا جُمّارتان ، فأردته فوقعت في مِقْنَب من خيل الأنصار ، فَقرعوني بالرماح ، وقالوا : «أين تريد ؟» .

(1) الجمـــــــار : شحم النخلة .

وقـــال كعب بن مالك الأنصارى : «وكان رســـول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُـــر تبلج وجهه فصار كأنه البدر» . وعين الإنسان مشبَّهة بعين الظبى والبقرة فى كلامهـــم المنـــثور وشـــعرهم المنظوم من جارى ما تكلمت به العرب وكثر فى أشعارها . قال :

فعيناك عيناها وجيدك جيدهـــــا ولـــكن عظم الساق منك دقيق

وقال الآخـــــر :

فلم ترعينى مثل سرب رأيتـــــــه خرجن علينا من زقاق ابن واقف

طلعن بأعناق الظبـــا وأعين الــــ ـــجآذر وامتدت بهن الروادف

ويقـــال للخطيب : كان لسانه مبرد . فهذا الجارى فى الـــكلام . كما يقال لـــلطويل : كأنه رمح ، ويقال للمهتز للـــكرم : كأنه غصن تحت بارح [1]. ومن مليح التشبيه قول القائل :

لعَينيك يومَ البين أسرعُ واكفـــــا من الفَنن المطـــور وهو مَروح

وذاك أن الغصن يقع المطر فى ورقة فيصير منها فى مثل المداهن ، فإذا هبت به الريح لم تُلبِّثه أن تقطّره .

ثم نذكر بعد هذا طوائف من تشبيه المحدَّثين ومَلاحاتهم ، ومن أكثرهم تشبيها لا تســـاعه فى القول ، وكثرة تفننه واتساع مذاهبه الحسن بن هانئ . قال فى مديحه الفضل بن يحيى :

---

(1) البارح : الريح الحارة .

وكنـــا إذا ما الحائنُ الجَد غَرَّهُ   سَنا برقِ غارٍ أو ضَجيجُ رِعــادِ
تردَّى له الفضلُ بن يحيى بن خالد   بماضى الظُّبَى أزهاه طولُ نِجــاد
أمام خَميس أرجُوان كأنـــــه   قميصٌ مَحوكٌ من قنــا وجيــاد
فمــا هو إلا الدهرُ يأتى بصرفه   على كل من يشقى به ويعــادى

قوله : الحائن الجد ، يقال حان الرجل ، إذا دنا موته ، والجد : الحظ . والسنا مــن الضــياء ، مقصور ، قال الله عز وجل : ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ وجمــع الرعد فقال : رعاد ، ، كقولك كلب وكلاب. وقوله : بماضى الظبى ، ظبة كــل شــىء : حده . والنجاد : حمائل السيف . وأزهاه : رفعه وأعلاه ، والرجل يُمدح بالطول ، فلذلك يذكر طول حمائله . والخميس : ههنا الجيش . والأرجوان: الأحمر . ومن تشبيهه الجيد فى هذا الشعر الذى ذكرنا قوله :

ترى الناس أفواجا إلى بــاب داره   كأنهمُ رِجـــلا دَبا وجَــراد [1]
فيومٌ لإلحاق الفقير بـــذى الغنى   ويومُ رقاب بوُكِرت لحصَــــاد

ومن التشبيه الجيد قوله :

فــكأنى بما أُزَيِّن منهــــــــــا   قَعَدِىٌّ يزين التحــــــكيما [2]

وكــان ســبب هذا الشعر أن الخليفة تشدد عليه فى شرب الخمر وحبسه من أجل ذلك حبسا طويلا فقال :

---

(١) الدبــا : الجراد قبل أن يطير .

(٢) القعدى الذى يستحل القعود عن الحرب من الخوارج . والتحكيم : أحد مبادئ الخوارج ، وهو قولهم لا حكم إلا الله .

أيهـــا الرائحان باللوم لُومـــــــا ... لا أذوق المُدام إلا شَـــــميما

نالنى بالمَلام فيهـــا إمـــــــامٌ ... لا أرى لى خلافـــــــه مستقيما

فاصْرِفاها إلى ســــــــواى فإنى ... لستُ إلا على الحديث نَـــديما

كُبْرُ حظى منهـــا إذا هى دارت ... أن أراهــــــا وأن أشَمَّ النسيما

فـكأنى بمــــا أزين منهـــــا ... قعدى يزيـــن التحـــكيما

لم يطق حَمْلَه السلاح إلى الحـــر ... ب فأوْصَى المُطِيقَ ألا يقيـــما

فهذا المعنى لم يسبقه إليه أحد .

وحُدثت أن العُمانى الراجز أنشد الرشيد فى صفة فرس :

كأنَّ أذنيه إذا تشوَّفا ... قادمة أو قلما محرَّفا [1]

فعلم القوم كلهم أنه قد لحن ولم يهتد منهم أحد لإصلاح البيت إلا الرشيد ، فإنـــه قال له : «* تخال أذنيه إذا تشوفا * ». والراجز وإن كان لحن فقد أحسن التشبية .

ويـــروى أن جريرا دخل إلى الوليد وابن الرِّقاع العاملى عنده ينشده القصيدة التى يقول فيها :

غَلبَ المسَاميحَ الوليـــــدُ سماحة ... وكفى قريشَ المعضلات وسادهـــا

---

(1) تشوف : تطلع . والقادمة : الريش الذى فى مقدم الجنـــــاح .

obeikandi.com

قـــال جريـــر : «فحسدته على أبيات منها حتى أنشد فى صفة الظبية * تُزجِى أغَـــنَّ كأنَّ إبرة رَوْقه [1] * فقلت فى نفسى : وقع والله ، ما يقـــــدر أن يقول أو يشـــبه به ، فقال : قلمٌ أصاب من الدواة مدادها ، فما قدرت حسداله أن أقيم حتى انصرفت » .

ومن تشبيهه الحسن الذى نستطرفه قوله :

تُعاطيـــكَها كفٌّ كأن بنانهـــــــا ... إذا اعترضتهْا العينُ صفُّ مَدارِى[2]

ومن التشبيه المليح قوله :

وكان سُعْدَى إذ تودعنـــــــــــا ... وقد اشرأب الدمع أن يـــكفــا
رَشَأ تَواصَيْن القيــــــــانُ بـــه ... حتى عَقَدن بأذْنـــــــــه شُنُفا [3]

وفى هذا الشعر من التشبيه :

خَبِّر فـــــــــؤادك أو ستخبره ... قَسَما لينتهيَنَّ أو حَلِفـــــــا
الحب ظَهرٌ أنت راكبـــــــــه ... فإذا صرفتَ عنانه انصرفــــا

ومن التشبيه الجيد قوله :

إليك رمتْ بالقوم خوصٌ كأنما ... جَماجُمها فوق الحِجاج قبـــور [4]

وله أيضـــــا :

سأرحَلُ من قُودِ المَهارِى شِمِلَّـــةً ... مُسَخَّرة ما تُستَحَثُّ بحـــادِى

---

[1] تزجى : تسوق . وأغن : ولد الظبية ذو الغنة . والروق : القرن .

[2] المدارى : الأمشـــاط .

[3] يكف : يهطل . والرشأ : ولد الظبية الذى مشى . والشنف : القرط .

[4] الخوص : النوق التى غارت عيونها . والحجاج : العظام التى ينبت عليها الحواجب.

مع الريح مـــــــا راحتْ فإن هى أعْصَفَتْ
نَهوزٌ برأسٍ كالعَلاةِ وهـــــــــــادى[1]

العلاة : السَّــــنداان .

وقال الحسن بن هانئ فى صفة السفينة :

بُنيت على قَدَر ولاءم بينهـــــا طَبقانِ من قيرة ومن ألــــواح
فــكأنها والماءُ ينطح صدرهـــا والخيزرانةُ فى يــــــد المَلاح
جَوْنٌ من العِقبان يَبْتَــدر الدُّجى يَهْوِى بصوتٍ واصْطِفاقِ جنــاح

وقال فى شعر آخر يصف الخمر ويذكر صفاءها ورقتها وضياءها وإشراقها :

إذا عَبَّ فيها شاربُ القــومِ خِلْته يُقبِّل فى داجٍ من الليل كوكبـــا

فأما قوله :

بَنَيْنا على كســرى سماءَ مُدامــةٍ جوانبُها محفوفةٌ بنجـــــوم
فلورُدَّ فى كسرى بن ساسان روحُـــه
إذا لا صطفانى دون كـــــــل نديم

(1) القــود : الذليــلة المــنقادة ، والمهارى : جمع مهرية ، وهى إبل لا يعدل بها شىء فى السرعة. والشملة : الناقة السريعة . وأعصفت الريح : اشتدت . والنهوز : التى تمد عنقها ورأسها . والهـــادى : العنق .

فإنما كانت صورة كسرى فى الإناء . وقوله : جوانبها محفوفة بنجوم ، فإنما يريد ما تطوق به من الزبد .

ومن حسن تشبيه المحدثين قول بشار :

وكأنّ تحت لسانها هاروتَ ينفِث فيه سحرا
وتخال ما جمعت عليه بنانُها ذهبا وعطرا

وهذا التشبيه الجامع .

ومن حسن التشبيه من قول المحدثين قول عباس بن الأحنف :

أُحْرَم منكم بما أقول وقد نال به العاشقون من عَشِقوا
صرتُ كأنى ذُبالة نُصِبت تضيء للناس وهى تحترق

فهذا حسن فى هذا جدا .

ومن حسن ما قالوا فى التشبيه قول إسماعيل بن القاسم أبى العتاهية للرشيد:

أمينَ الله أمْنُك خيرُ أمنٍ عليك من التقى فيه لباسُ
تُساس من السماء بكل فضل وأنت به تسوس كما تساس
كأنّ الخَلْق رُكب فيه روح له جسد وأنت عليه رأس

والعرب تختصر فى التشبيه وربما أو مأت به إيماء . قال أحد الرجاز:

بِتْنا بِحسّان ومِعْزاه تَئط ما زلتُ أسعى بينهم وألْتَبِط
حتى إذا كان الظلام يختلط جاءوا بِمَذْقٍ هل رأيتَ الذئب قط

يقول : فى لون الذئب ، واللبن إذا جهد وخلط بالماء ضرب إلى الغبرة .

ومن أحسن التشبيه ومليحه قول رجل يهجو رجلا برثاثة الحال :

يأتيك فى جُبَّةٍ مخرّقة أطولُ أعمار مثلها يومُ
وطيلسان كالآل يلبسه على قميص كأنه غَيْم

والتشـــبيه كثير ، وهو باب كأنه لا آخر له وإنما ذكرنا منه شيئا لئلا يخلو هذا الـــكتاب من شيء من المعانى .

خفة بعد ثقل

كـــان الحجـــاج بن يوسف يستثقل زيادة بن عمرو العتـــكى . فلمـــا أثنت الوفـــود عـــلى الحجاج عند الوليد بن عبد الملك والحجاج حاضر ، قال زيادة بن عمـــرو : «يـــا أمير المؤمنين ، إن الحجاج سيفك الذى لا يَنْبو ، وسهمك الذى لا يطيـــش ، وخادمك الذى لا تأخذه فيك لومة لائم» . فلم يـــكن أحد بعد أخف على قلب الحجاج منه .

البخل والجود

قال أسماء بن خارجه الفزارى : «لا أشاتم رجلا ولا أرد سائلا ، فإنما هو كريم أسُدّ خَلته ، أو لئيم أشترى عرضى منه» .

وقال آخر يذم :

قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهـــــم ... واستوثقوا من رِتاج الباب والدار
لا يَقْبِس الجار منهم فَضْلَ نارهـــم ... ولا تَـــكفّ يد عن حرمة الجـــار

وقـــال زيـــاد : «كفـــى بالبخيل عارا أن اسمه لم يقع فى حمد قط ، وكفى بالجواد مَجْدا أن اسمه لم يقع فى ذم قط » .

وقال آخـــــــر :

ألاَ تَرَيْنَ وقـــــد قَطَّعْتِنى عَذَلا	ماذا من الفَضلْ بين البخل والجود
لا يعدم السائلون الخيرَ أفعـــلُه	إمــا نوالا وإمــا حسنَ مردود
إلا يكن ورق يومــا أراحُ بــــه	للخابطين فإنى لــين العـــود

إلاّ يــكن ورقٌ : يريد المال ، وضربه مثلا . ويقال : أتى فلان فلانا يختبط ما عــنده ، والاختباط ضرب الشجر ليسقط الورق ، فجعل الخابط الطالب، والورق المــال .

ويروى أن ضيفا نزل بالحطيئة ، وهو يرعى غنما له وفى يده عصــا . فقــال الضــيف : «يــاراعى الغنم» . فأومأ إليه الحطيئة بعصــاه . وقال : «عَجْراء من سَلَم » فقال الرجل : «إنى ضيف» . فقال الحطيئة : «للضيفان».

أخبار الخوارج

ذكـــــــر أهل العلم من الصُّفْرِية أن الخوارج لما عزموا على البيعة لعبد الله ابــن وهب الراسِبّى من الأزد تَكرَّه ذلك . فأبوا مَنْ سواه ولم يريدوا غيره . فلما رأى ذلك منهم ، قال : «يا قوم ، استبيتوا الرأى» . أى دعوه يَغِبُّ يقول : دعوا رأيــكم تات عليه ليلة ثم تعقبوه .

وكــان عــبد الله بــن وهب ذا رأى وفهم ولسان وشجاعة ، وإنما لجئوا إليه وخلعوا مَعْدان الإيادى لقول معدان :

سلامٌ على من بايع الله شـــــاريا	وليس على الحزب المقيم ســلام

فبرئت منه الصفرية وقالوا : «خالفتَ لأنك برئت من القَعَد» . والخوارج فى جميع أصنافها تبرأ من الكاذب ، ومن ذى المعصية الظاهرة .

وحُدِّثت أن واصل بن عطاء أبا حذيفة أقبل فى رفقة فأحسوا الخوارج . فقال واصل لأهل الرفقة : «إن هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعونى وإياهم» وكانوا قد أشرفوا على العطب . فقالوا : «شأنك» . فخرج إليهم ، فقالوا : «ما أنت وأصحابك ؟» . قال : «مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده» . فقالوا : «قد أجرناكم» . قال : «فعلمونا» . فجعلوا يعلمونه أحكامهم . وجعل يقول : «قد قبلت أنا ومن معى» . قالوا : «فامضوا مصاحَبين فإنكم إخواننا» . قال : «ليس ذلك لكم ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ فأبلغونا مأمننا» . فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا : «ذاك لكم» فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن .

وذكر أهل العلم من غير وجه أن عليا رضى الله تعالى عنه لما وجه إليهم عبد الله بن عباس رحمة الله عليه ليناظرهم ، قال لهم : «ما الذى نقمتم على أمير المؤمنين ؟» قالوا : «قد كان للمؤمنين أميرا . فلما حكّم فى دين الله خرج من الإيمان . فليتب بعد إقراره بالكفر نَعُد له» . فقال ابن عباس : «لا ينبغى لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر» . قالوا : «إنه قد حكّم» . قال : «إن الله عز وجل قد أمر بالتحكيم فى قتل صيد فقال عز وجل ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ فكيف فى إمامة قد أشكلت على المسلمين ؟». فقالوا : «إنه قد حُكم عليه فلم يرض» فقال : «إن الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما» . فقال بعضهم

لبعض : «لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم ، فإن هذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ » .

ومن طريف أخبار الخوارج قول قطرى بن الفُجاءة المازنى لأبى خالد القَنانى وكان من قَعَد الخوارج :

أبا خالد يا انفِرْ فلستَ بخالد | وما جعل الرحمن عذرا لقاعد
أتزعم أن الخارجى على الهدى | وأنت مقيم بين لص وجاحد

فكتب إليه أبو خالد :

لقد زاد الحياة إلى حبا | بناتى إنهن من الضعاف
أحاذر أنْ يَرَين الفقر بعدى | وأن يشربن رَنقًا بعد صاف
وأن يَعرين إن كُسِى الجوارى | فتَنبو العين عن كرم عجاف
ولولا ذاك قد سَوَّمت مُهرى | وفى الرحمن للضعفاء كاف [1]

وهذا خلاف ما قال عِمران بن حِطّان أحد بنى عمرو بن شيبان . وقد كان رأس القَعَد من الصفرية وخطيبهم وشاعرهم . قال لما قتل أبو بلال ، وهو مرداس بن أدَية :

لقد زاد الحياةَ إلىّ بُغضا | وحُبا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراش | وأرجو الموتَ تحت ذُرا العَوالى
ولو أنى علمتُ بأن حتفى | كحتف أبى بلال لم أبال
فمَن يك هَمُّه الدنيا فإنى | لها والله ربُّ البيت قال

---

(1) الرنق : الماء الكدر . وسومت : علمت .

وكان من حديث عمران بن حطان أنه لما أطرده الحجاج كان ينتقل فى القبائل . فكان إذا نزل فى حى انتسب نسبا يقرُب منه . ففى ذلك يقول :

نزلنا فى بنى سعد بن زيد ... وفى عَك وعامر عَوْبَثان
وفى لَخم وفى أُدَد بن عمرو ... وفى بكر وحىّ بنى العِدان

ثم خرج حتى نزل عند رَوح بن زِنْباع الجُذامى ، وكان يقرى الأضياف وكان مسامرا لعبد الملك بن مروان أثيرا عنده ، فانتمى له من الأزد . وكان روح ابن زنباع لا يسمع شعرا نادرا ولا حديثا غريبا عند عبد الملك ، فيسأل عنه عمران بن حطان إلا عرفه وزاد فيه . فذكر ذلك لعبد الملك فقال : «إن لى جارا من الأزد ما أسمع من أمير المؤمنين خبرا ولا شعرا إلا عرفه وزاد فيه » . فقال : «خَبِّرنى ببعض أخباره ». فخبره وأنشده . فقال : «إن اللغة عدنانية وإنى لأحسبه عمران بن حطان» . حتى تذاكروا ليلة قول عمران بن حطان يمدح ابن ملجم لعنه الله :

ياضربةً من تقى ما أراد بها ... إلا لِيَبْلُغَ من ذى العرش رضوانا
إنى لأذكره حينا فأحِسبُه ... أوْفَى البرية عند الله ميزانا

فلم يدر عبد الملك لمن هو فرجع روح إلى عمران بن حطان فسأله عنه . فقال عمران : «هذا يقوله عمران بن حطان يمدح بهِ عبد الرحمن بن ملجم قاتل على ابن أبى طالب » . فرجع روح إلى عبد الملك فأخبره . فقال له عبد الملك : «ضيفك عمران بن حطان ، اذهب فجئنى به» . فرجع إليه فقال : «إن أمير المؤمنين قد أحب أن يراك» . قال عمران : «قد أردت أن أسألك ذلك فاستحييت

منك ، فامض فإنى بالأثر » . فرجع روح إلى عبد الملك فأخبره . فقال عبد الملك : « أما إنك سترجع فلا تجده ». فرجع وقد ارتحل عمران ، وخلف رقعة فيها :

ياروحُ كم من أخى مَثْوًى نزلتُ به ... قد ظنّ ظنَّك من لخمٍ وغسان
حتى إذا خِفْتُه فارقتُ منزله ... من بعد ما قيل عمران بن حطان
قد كنت جارَك حَوْلًا ما تُروِّعنى ... فيه روائعُ من إنس ومن جان
حتى أردتَ بِىَ العُظْمَى فأدركنى ... ما أدرك الناسَ من خوف ابن مروان

ثم ارتحل حتى نزل بزُفَر بن الحارث الكلابى أحد بنى عمرو بن كلاب، فانتسب له أوزاعيا . وكان عمران يطيل الصلاة ، وكان غلمان من بنى عامر يضحكون منه . فأتاه رجل يوما ممن رآه عند روح بن زنباع فسلم عليه . فدعاه زفر فقال : « من هذا ؟ » فقال : « رجل من الأزد رأيته ضيفا لروح بن زنباع » فقال له زفر : « يا هذا ، أزد يا مرة وأوزاعيا مرة ؟ إن كنت خائفا آمناك ؛ وإن كنت فقيرا جبرناك » . فلما أمسى هرب وخلف فى منزله رقعة فيها :

إن التى أصبحتْ يعْيى بها زفرٌ ... أعيتْ عَياءً على روح بن زنباع
ما زال يسألنى حولا لأخبرَه ... والناس من بين مخدوع وخداع
حتى إذا انقطعت عنى وسائله ... كفَّ السؤالَ ولم يُولَع بإهلاع
فاكفف كما كف عنى إننى رجل ... إما صَمِيمٌ وإما فَقْعة القاع

ثم ارتحل حتى أتى عُمان فوجدهم يعظمون أمر أبى بلال ويُظهرونه ، فأظهر أمره فيهم . فبلغ ذلك الحجاج ، فكتب إلى أهل عمان . فارتحل عمران هاربا حتى أتى قوما من الأزد فلم يزل فيهم حتى مات . وفى نزوله بهم يقول :

نزلنـــــا بحمد الله فى خير منزل   نسَرُّ بما فيــه من الأُنْس والْخفَرْ
نزلنـــــا بقوم يجمع الله شَمْلَهم   وليس لهم عُودٌ سوى المجدِ يُعْتَصَر
من الأزد إنّ الأزد أكرم معشـــرٍ   يمانيةٍ طـــابوا إذا نسب البشر
فأصبحت فيهم آمنـــا لا كمعشر   أتونى فقالـــوا من ربيعةَ أو مُضَر

يقـــال : هذا أبو مثواى ، والأنثى هذه أم مثواى ، ومنزل الضيافة وما أشبهها المثوى . وكذلك قال المفسرون فى الله عز وجل : ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أى إضافته . ويقـــال مـــن هـــذا : ثَـــوَى يثوِى ثُوِيًا . وقوله : ولم يولع باهلاعى ، أى بإفزاعى وتـــرويعى ، والهلع من الجبن عند ملاقاة الأقران . وقوله : * إما صميم وإما فقعة القاع * الصميم : الخالص من كل شىء . وقوله : وإما فقعة القاع : يقال لمن لا أصل له : هو فقعة بقاع ، وذلك لأن الفقعة لا عروق لهـــا ولا أغصان . والفقعة : الـــكمأة البيضاء .

ويقال فيما يروى من الأخبار إن أول من حَـــكّم عُرْوَة بن أدَيَّة . وقال قوم : بـــل أول من حـــكم رجل يقال له سعيد من بنى محارب بن خَصَفة . ولم يختلفوا فى إجماعهم على عبد الله بن وهب الرّاسبىّ ، وأنه امتنع عليهم ، وأوما إلى غيره ، فلم يقنعوا إلا به . فـــكان إمام القوم ، وكان يوصف بالرأى . فأما أول سيف سُلّ من ســـيوف الخوارج فسيف عروة بن أدية ؛ وذلك أنه أقبل على الأشعث فقـــــال : «مـــا هـــذه الدنيئة يا أشعث ؟ وما هذا التحكيم ؟ أشَرْطٌ أوثق من شرط الله عز وجـــل؟» . ثم شـــهر عليه السيف والأشعثُ مولّ فضرب به عجز البغلة، فشبت البغـــلة . فنفرت اليمانية ، وكانوا جلَّ أصحاب علىّ صلوات الله عليه . فلما رأى ذلـــك الأحنف قصد هو وجارية بن قدامة ، ومسعود بن فدَكىّ ، وشبث بن ربعى الرياحى إلى الأشعث . فسألوه الصفح ففعل . وكان عروة بن أدية نجـــا من حربِ

النهروان . فلم يزل باقيا مدة من خلافة معاوية . ثم أتى به زياد ومعه مولى . فسأله عن أبي بكر وعمر فقال خيرا . ثم سأله فقال : «ما تقول فى أمير المؤمنين عثمان بن عفان وأبي تراب على بن أبي طالب ؟» . فتولى عثمان ست سنين من خلافته ثم شهد عليه بالكفر ، وفعل فى أمر على مثل ذلك إلى أن حكم ، ثم شهد عليه بالكفر. ثم سأله عن معاوية ، فسبه سبا قبيحا . ثم سأله عن نفسه فقال : «أولك لِزْنية وآخرك لدعوة ، وأنت بعدُ عاصٍ لربك» . ثم أمر به فضُربت عنقه . ثم دعا مولاه فقال : «صف لى أموره» . فقال : «أأطنب أم أختصر ؟» فقال : «بل اختصر» . فقال : «ما أتيته بطعام بنهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط» .

وكان سبب تسميتهم الحرورية أن عليا لما ناظرهم بعد مناظرة ابن عباس رحمه الله إياهم ، فكان مما قال لهم : «ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف قلت لكم : إن هذه مكيدة ووهن ، وأنهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف لم يأتونى ثم سالونى التحكيم ، أفعلمتم أنه كان منكم أحد أكره لذلك منى ؟» . قالوا : «اللهم نعم» . قال : «فهل علمتم أنكم استكرهتمونى على ذلك حتى أجبتكم إليه ، فاشترطت أن حكمهما نافذ ما حكما بحكم الله عز وجل ، فإن خالفاه فأنا وأنتم من ذلك برآء ؟ أو أنتم تعلمون أن حكم الله لا يعدونى ؟» . قالوا : «اللهم نعم» . فقالوا : «حكمت فى دين الله برأينا ونحن مُقرون بأنا قد كفرنا ونحن تائبون ، فاقرر بمثل ما أقررنا وتب ننهض معك إلى الشام» . فقال : «أما تعلمون أن الله عز وجل ثناؤه قد أمر بالتحكيم فى شقاق بين رجل وامرأة ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ ، وفى صيد أصيب فى الحرم كأرنب يساوى ربع دينار ، فقال عز وجل : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ؟ ﴾ » . فقالوا : «إن عمرا لما أبى عليك أن تقول فى

كتابك : هذا ما كتبه عبد الله على أمير المؤمنين ، محوت اسمك من الخلافة وكتبت. علـى بن أبي طالب ؟» . فقال لهم رضى الله عنه : «لى برسول الله صلى الله عليه وسـلم أسوة ، حيث أبى عليه سهيل بن عمرو أن يكتب : هذا كتاب كتبه محمد رسـول الله وسـهيل بن عمرو ، فقال : لو أقررنا بأنك رسول الله ما خالفناك ، ولـكن أقدمك لفضلك . ثم قال اكتب : محمد بن عبد الله ، فقال لى : يا على امح رسول الله ، فقلت : يارسول الله لا تسخو نفسي بمحو اسمك من النبوة . فقال عليه السلام : قفنى عليه . فمحاه بيده صلى الله عليه وسلم . ثم قال : اكتب محمد ابن عبد الله . ثم تبسم إلىّ فقال : يا على ، أما إنك ستسام مثلها فتعطى» . فرجع معـه منهم ألفان من حَروراء ، وقد كانوا تجمعوا بها . فقال لهم على صلوات الله عليه : «ما نسميكم ؟» ثم قال : «أنتم الحرورية لاجتماعكم بحروراء» . وقال الصَّلتان العبدى فى كلمة له :

أرى أمة شَهرتْ سيفَهـا ... وقد زِيد فى سوْطها الأصبحىّ
بنجـدية وحروريـة ... وأزْرق يـدعـو إلى أزرقى
فملتنا أننـا المسـلمون ... على ديـن صِديقنـا والنبى

قوله : وقد زيد فى سوطها الأصبحى ، فإنه تسمى هذه السياط التى يعاقب بها السـلطان الأصبحية ، وتنسب إلى ذى أصبح الحميرى ، وكان ملـكا من ملوك حمـير ، وهـو أول مـن اتخذهـا ، وهو جد مالك بن أنس الفقيه رضى الله عنه. والـنجدية : تنسـب إلى نجدة بن عويمر ، وهو عامر الحنفى ، وكان رأسا ذا مقالة مـنفردة من مقالات الخوارج . وقد بقى من أهلها قوم كثير . وكان نجدة يصلى بمكـة بحـذاء عبد الله بن الزبير فى جَمْعه فى كل جمعة ، وعبد الله يطلب الخلافة ، فيمسكان عن القتال من أجل الحرم . قال الراعى يخاطب عبد الملك:

إنى حلفتُ علـــى يمين بَرَّةٍ لا أكـذبُ اليومَ الخليفةَ قِيلا
ما إن أتيت أبا خُبيب وافـدا يومـا أريد ببيعتى تبـديلا
ولا أتيت نجيـدة بن عـويمر أبغى الهـدى فيزيدنى تضليلا
من نعمة الرحمن لا مـن حيلتى إنـى أعـد له على فضـولا
أخذوا العريف فقطعوا حيزومـه بالأصبحية قائمـا معـلولا

قوله : وأزرق يدعو إلى أزرقى : يريد من كان من أصحاب نافع بن الأزرق الحنفى، وكان نافع شجاعا مقدما فى فقه الخوارج ، وله ولعبد الله بن عباس مسائل كـثيرة . وأصـحاب نافع بن الأزرق هم ذوو الْحَد والجد ، وهم الذين أحاطوا بالبصـرة حـتى ترحّل أكثر أهلها منها . وكان الباقون على الترحل فقلّد المهلب حربهم فهزمهم إلى الفرات ، ثم هزمهم إلى الأهواز ، ثم أخرجهم عنها إلى فارس ثم أخـرجهم إلى كِـرْمان . وفى ذلك يقول شاعر منهم فى هذه الحرب التى صاحبها صاحب الزنج بالبصرة يرثى البلد ، ويذكر المنقبة التى كانت لهم :

سَقىالله مِصرا خَفَّ أهلوه من مصر وما الذى يبقى على عُقَبِ الدهر
ولو كنتُ فيه إذ أُبيح حَريمـه لمتُّ كريما أو صدَرت على عـذر
أُبيح فلم أملك له غـير عَـبْرة تُهيب بها أن حارَدَتْ لوعةُ الصّدر
ونحن رددنا أهلها إذ ترحلـوا وقد نُظمت خيـل الأزارق بالجَسرْ
ومَنْ يَخش أطراف المنـايا فإننـا لبسنا لهن السابغات من الصـبر
فإن كريه الموت عـذبٌ مذاقـه إذا ما مزجناه بطيبٍ من الذكر
وما رُزق الإنسان مثـل منيـةٍ أراحت من الدنيا ولم تخزِ فى القبر[1]

---

(1) حاردت : قلت أو انقطعت . والسابغات : الواسعة الطويلة .

وكان مقدار من أصاب عليّ صلوات الله عليه منهم بالنهروان ألفين وثماني مئة في أصح الأقاويل . وكان عددهم ستة آلاف . وكان منهم بالكوفة زهاء ألفين ممن يُسِرّ أمره ولم يشهد الحرب . فخرج منهم رجل بعد أن قال على رضوان الله عليه : «ارجعوا وادفعوا إلينا قاتل عبد الله بن خباب» . فقالوا : «كلنا قَتله وشَرِك في دمه» . ثم حمل منهم رجل على صف على ، وقد قال على : «لا تبدءوهم بقتال» . فقتل من أصحاب على ثلاثة ، وهو يقول :

أقتلهم ولا أرى عليا ... ولو بدا أوجَرته الخَطيا [1]

فخرج إليه على صلوات الله عليه فقتله . فلما خالطه السيف قال : «حبذا الرّوْحة إلى الجنة» . فقال عبد الله بن وهب : «ما أدرى إلى الجنة أم إلى النار ؟» . فقال رجل من سعد : «إنما حضرت اغترارا بهذا ، وأراه قد شك» . فانخزل بجماعة من أصحابه . ومال ألف إلى ناحية أبي أيوب الأنصارى ، وكان رحمه الله على ميمنة على . وجعل الناس يتسللون . ثم خرج إليهم على في أصحابه وقد قال لهم : «إنه والله ما يقتل منكم عشرة ولا يفلت منهم عشرة» . فقتل من أصحابه تسعة وأفلت منهم ثمانية .

وقيل : أول من حكّم ولفظ بالحكومة ولم يشد بها رجل من بنى سعد بن زيد مناة يقال له الحجّاج بن عبد الله ويعرَف بالبرك ، وهو الذى ضرب معاوية على أليته ؛ فإنه لما سمع بذكر الحكمين ، قال : «أيحكم في دين الله ؟ لا حكم إلا الله» . فسمعه سامع فقال : «طَعَن والله فأنفذ» . وأول من حكم بين الصفين

---

[1] أوجرته : طعنته فى فمه . والخطى : الرمح الجيد المنسوب إلى الخط .

رجل من بنى يَشكر بن بكر ، فإنه كان فى أصحاب على ، فحمل على رجل منهم فقتله غِيلة ، ثم مرَق بين الصفين فحكّم . وحمل على أصحاب معاوية فَكَثَروه فرجع إلى ناحية علىّ صلوات الله عليه . فحمل على رجل منهم . فخرج إليه رجل من هَمدان فقتله .

وجاء فى الحديث أن عليا رضى الله عنه تُلى بحضرته : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ . فقال على : «أهل حَروراء منهم» .

وروى عن على صلوات الله عليه أنه خرج فى غداة يوقظ الناس للصلاة فى المسجد . فمر بجماعة تتحدث فسلم وسلموا عليه . فقال ، وقبض على لحيته : «ظننت أن فيكم أشقاها الذى يخضب هذه من هذه» . وأومأ بيده إلى هامته ولحيته.

ومن شعر على بن أبى طالب الذى لا اختلاف فيه أنه قال : وأنه كان يردده ، أنهم لما ساموه أن يقر بالكفر ويتوب حتى يسيروا معه إلى الشام ، فقال : «أبعْدَ صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفقه فى الدين أرجع كافرا ؟ .

يا شاهدَ الله علىَّ فاشهدِ   أنى على دين النبى أحمدِ
مَنْ شك فى الله فإنى مهتدى»

ويروى * تولّيت ولىَّ أحمد *

فلما قتل على أهل النهروان ، وكان بالكوفة زهاء ألفين من الخوارج ممن لم يخرج مع عبد الله بن وهب ، وقوم ممن استأمن إلى أبى أيوب الأنصارى تجمعوا

وأمَّـــروا عليهم رجلا من طيىء . فوجه إليهم على صلوات الله عليه رجلا ، وهم بالنُّخيــلة . فدعـــاهم وَرفق بهم فأبَو ْا . فعاوَدَهم فأبوا . فقُتلوا جميعا . فخرجت طائفــة مـــنهم نحــو مكة . فوجه معاوية من يقيم للناس حجَّهم ، فناوشه هؤلاء الخوارج . فبلغ ذلك معاوية فوجه بُسْر بن أرْطاة أحد بنى عامر بن لؤَى . فتواقفوا وتراضوْا بعد الحرب بأن يصلى بالناس رجل من بنى شَيْبة لئلا يفوت النّاس الحج . فلمـــا انقضى ، نظرت الخوارج فى أمرها ، فقالوا : «إن عليـــا ومعاوية قد أفسدا أمر هذه الأمة ، لو قاتلناهم لعاد الأمر إلى حقه» . وقال رجل من أشجع : «والله ما عمرو دونهما ، وإنه لأصل هذا الفساد» . فقــــــال عبد الرحمن بن مُلْجَم : «أنــا أقــتل عــليــا» . فقــالوا : «وكيف لك به ؟» . قال : «أغْتاله». فقال الحجــاج بـــن عبد الله الصَّريمى وهو البُرَك : «وأنا أقتل معاوية» . وقال زاذَوَيْه مولى بنى العنبر بن عمرو بن تميم : «وأنا أقتل عمرا» . فأجمع رأيهم على أن يكون قتلهم فى ليلة واحدة ، فجعلوا تلك الليلة ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان . فخـــرج كل واحد منهم إلى ناحية فأتى ابن ملجم الــكوفة فأخفى نفسه . وتزوج امــرأة يقـــال لهـــا قَطام بنت علقمة من تَيْم الرِّباب ، وكانت ترى رأى الخوارج. والأحاديث تختلف ، وإنما يُؤْثَر صحيحها . ويروى فى بعض الأحاديث أنها قالت : «لا أقـــنع منك إلا بصداق أسميه لك ، وهو ثلاثة آلاف درهم وعبد وأمة ، وأن تقـــتل عليـــــا» . فقــــال لهــــا : «لك ما سألت ، فـــكيف لى به ؟» قالت : «تـــروم ذلك غيلة ، فإن سلمت أرحت الناس من شر ، وأقمت مع أهلك ، وإن أصبت سرت إلى الجنة ونعيم لا يزول» . فأنعم لهــــا . وفى ذلك يقول :

ثلاثة آلافٍ وعبـــد وَقَينـــــةٌ وضَرْب عليٍّ بالحســـام المصمّم
فلا مهرَ أغلى من على وإنْ غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

وقـــد ذكروا أن القاصد إلى معاوية يزيد بن ملجم ، والقاصد إلى عمرو آخر مـــن بنى ملجم ، وأن أباهم نهاهم ، فلما عصوه قال : « استعدوا للموت » ؛ وأن أمهـــم حضتهم على ذلك . والخبر الصحيح ما ذكرت لك أول مرة . فأقـــــام ابـــن ملجم ، فيقال إن امرأته قطام لامته وقالت : « ألا تمضى لما قصدت ! لشـــدّ مـــا أحببت أهلك ! » قال : « إنى قد وعدت صاحبىّ وقتا بعينه » وكان هنالك رجـــل من أشجع يقال له شبيب فواطأه عبد الرحمن . ويروى أن الأشعث نظر إلى عـــبد الرحمن متقلدا سيفا فى بنى كندة فقال : « يا عبد الرحمن أرنى سيفك » فأراه فرأى سيفا حديدا . فقال « ما تقلدك السيف وليس بأوان حرب ؟ » فقـــــال : « إنى أردت أن أنحـــر بهَ جَزور [1] القرية » . فركب الأشعث بغلته وأتى عليـــا صـــلوات الله عـــليه فخَبَّره ، وقال له : « فقد عرفت بسالة ابن ملجم وفتـــكه » فقال على : « ما قتلنى بعد » . ويروى أن عليـــا رضوان الله عليه كان يخطب مرة ويذكـــر أصـــحابه ، وابن ملجم تِلْقاء المنبر ، فسُمِع وهو يقول : « والله لأريحنهم مـــنك » فلما انصرف على صلوات الله عليه إلى بيته أُتى به مُلَبَّـــا [2] . فأشرف عـــليهم فقال : « ما تريدون ؟ » فخبروه بما سمعوا ، فقال : « ما قتلنى بعد فخلوا عنه » . ويروى أن عليـــا كان يتمثل إذا رآه ببيت عمرو بن مَعْدِى كَرِب فى قيس ابن مكشوح المُـــرادى :

أريـــد حباءه ويريد قتـــــــلى عذيرك من خليلك من مـــراد [3]

---

(١) الجزور : مايجزر أى يذبح .

(٢) ملبا : ماخوذ من لببه ، وهو صدر ردائـــــه .

(٣) الحباء : العطاء . والعذير : العاذر .

فينتفى من ذلك حتى أكثر عليه . فقال له المرادى : «إن قضى شىء كان» . فقيل لعلى : «كأنك قد عرفته وعرفت ما يريد بك ، أفلا تقتله» . فقال : «كيف أقتل قاتلى ؟» . فلما كان ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان خرج ابن ملجم وشبيب الأشجعى . فاعتورا [1] الباب الذى يدخل منه على رضى الله عنه ، وكان يخرج مغلّسا ، ويوقظ الناس للصلاة . فخرج كما كان يفعل ، فضربه شبيب فأخطأه وأصاب سيفه الباب ، وضربه ابن ملجم على صلعته فقال على : «فُزت [2] ورب الكعبة ، شأنكم بالرجل ». فيروى عن بعض من كان بالمسجد من الأنصار قال : «سمعت كلمة على ورأيت بريق السيف» فأما ابن ملجم فحمل على الناس بسيفه ، فأفرجوا له . وتلقاه المغيرة أيّدا [3] ،فقعد على صدره . وأما شبيب فانتزع السيف منه رجل من حضرموت ، وصرعه ، وقعد على صدره. وكثر الناس، فجعلوا يصيحون : «عليكم صاحب السيف». فخاف الحضرمى أن يُكبوا عليه ولا يسمعوا عذره ، فرمى بالسيف . وانسل شبيب بين الناس فدُخل بابن ملجم على علىّ رضوان الله عليه فأومر فيه . فاختلف الناس فى جوابه ، فقال على : «إنْ أعش فالأمر إلى ، وإن أُصَب فالأمر لكم ، فإن آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة ، وإن تعفوا أقرب للتقوى» . وقال قوم : بل قال: «وإن أصبت فاضربوه ضربة فى مقتله» . فأقام على يومين . فسمع ابن ملجم الرنّة من الدار. فقال له من حضره: «أى عدو الله ، إنه لا بأس على أمير المؤمنين» فقال : «عَلَى من تبكى أم كلثوم ؟ أَعَلَىّ ؟ أما والله لقد اشتريت سيفى بألف درهم ، وما زلت أعرضه فما يعيبه أحد إلا أصلحت ذلك العيب. ولقد أسقيته

---

(١) اعتورا : تداولا .
(٢) فزت : قطع رأسى من منتصفه .
(٣) الأيد : القوى .

السم حتى لَفَظه . ولقد ضربته ضربة لو قُسِمت على من بالمشرق لأتتْ عليهم» . ومات على صلوات الله ورضوانه عليه ورحمته فى آخر اليوم الثالث . فدعا به الحسن رضى الله عنه ، فقال : «إن لك عندى سرا» فقال الحسن رضوان الله عليه : «أتدرون ما يريد ؟ أن يَقرُب من وجهى فيَعَض أذنى فيقطعها» . فقال : «أما والله لو أمكننى منها لاقتلعتها من أصلها» . فقال الحسن : «كلا والله لأضربنك ضربة تؤديك إلى النار» . فقال : «لو علمت أن هذا فى يديك ما اتخذت إلها غيرك» . فقال عبد الله بن جعفر : «يا أبا محمد . ادفعه إلى أشْفِ نفسى منه» . فاختلفوا فى قتله . فقال قوم : أحْمَى له مِيلْين [1] وكَحَله بهما . فجعل يقول : «إنك يا ابن أخى لَتَكْحَلُ عمك بمَلْمُولَيْن مَضاضين [2]» . وقال قوم : بل قطع يديه ورجليه . وقال قوم : بل قطع رجليه ، وهو فى ذلك يذكر الله عز وجل . ثم عمد إلى لسانه فشق ذلك عليه ، فقيل له : «لم تجزع من قطع يديك ورجليك ، وتُراك قد جزعت من قطع لسانك» فقال : «أحببت أن لا يزال فمى بذكر الله رطبا» . ثم قتله .

ويروى أن عليا رضى الله عنه أُتى بابن ملجم ، وقيل له : «إنا قد سمعنا من هذا كلاما فلا نأمن قتله لك» . فقال : «ما أصنع به ؟» ثم قال على رضوان الله عليه :

اشْدُدْ حَيازِيمَك للموت [3] ... فإن الموتَ لاقِيكا
ولا تجزع من الموت ... إذا حلّ بواديكا

---

(١) الميل : القطعة الطويلة من الحديد .

(٢) الملمول : المرود الذى يكتحل به .

(٣) الحيازيم : جمع حيزوم ، وهو وسط الصدر .

والشعر إنما يصح بأن تحذف «اشدد» فتقول :

حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكا

ولكن الفصحاء من العرب يزيدون ما عليه المعنى ولا يعتدون به فى الوزن ويحذفون من الوزن ، علما بأن المخاطب يعلم ما يزيدونه ، فهو إذا قال حيازيمك للموت فقد أضمر «اشدد» فأظهره ولم يعتد به .

وأما الحجاج بن عبد الله الصَّريمى ، وهو البُرَك ، فإنه ضرب معاوية مصليا، فأصاب مَأكَمته ، وكان معاوية عظيم الأوراك . فقطع منه عرقا يقال له عرق النِّكاح . فلم يولد لمعاوية بعد ذلك ولد . فلما أُخذ قال : «الأمان والبشارة ، قُتل على فى هذه الصَّبيحة» فاستُوْثِق به حتى جاء الخبر . فقطع معاوية يده ورجله. فأقام بالبصرة . فبلغ زيادا أنه قد وُلد له . فقال : «أيولد له وأمير المؤمنين لا يولد له ؟» . فقتله . هذا أحد الخبرين . ويروى أن معاوية قطع يديه ورجليه ، وأمر باتخاذ المقصورة . فقيل لابن عباس بعد ذلك : «ما تأويل المقصورة ؟» . فقال : «يخافون أن يَبْهَظَهم الناس» .

وأما زَاذَوَيهِ فإنه أَرْصَد لعمرو ، واشتكى عمرو بطنه فلم يخرج للصلاة . وخرج خارجة ، وهو رجل من بنى سهم بن عمرو ، فضربه زاذويه فقتله . فلما دُخلَ به على عمرو فرآهم يخاطبونه بالإمرة ، قال: «أو ما قتلت عمرا ؟» قيل : «لا إنما قتلت خارجة» . فقال : «أردت عمرا والله أراد خارجة» . وقال أبو زُبَيد الطائى يرثى على بن أبى طالب صلوات الله عليه :

إن الـــكرامَ على ما كان من خُلُقٍ رهطُ امرئٍ خارَهُ للدين مُختـــار

طَبٌّ بصير بأضْغان الرجـــال ولم يُعْدَل بحَبْر رســـول الله أحْبـــار

وقطرةٌ قطَرَتْ إذ حان موعدُهـــا وكلٌّ شيء له وقت ومقـــــدار

حتى تَنَصَّلهـــــــا فى مسجد طُهُر على إمام هُدى إنْ معشرٌ جاروا

حُمَّتْ ليدخل جنَاتِ أبـــو حسنٍ وأوجِبَتْ بعـــــده للقاتل النـــار

خاره : إنما اختاره . وبصير بأضغان الرجال : فهى أسرارها ومخبآتها . الحبر : العـــالم . ويروى أن عليـــا رضوان الله عليه مر بيهودى يسأل مسلما عن شيء من أمـــر الدين . فقال له على : «اسألنى ودع الرجل» . فقال له : «يا أمير المؤمنين أنـــت حبر» . أى عالم . قال على : «إنْ تســـأل عالما أَجْدَى لك» . وقوله : حتى تنصلها : يريد استخرجها . وحمت : قُدِّرت .

ولمـــا سمـــع على صلوات الله عليه نداءهم «لا حكم إلا الله» قال : «كلمة عادلة يراد بها جَوْر ، إنما يقولون لا إمارة ولا بد من إمارة برة أو فاجرة» .

ويـــروى أن عـــليـــا فى أول خـــروج القوم عليه دعا صَعْصَعه بن صُوحان العَبْدى، وقد كان وجهه إليهم ، وزياد بن النَّضْر الحارثى، مع عبد الله بن العباس . فقـــال لصعصـــعة : «بـــأى القوم رأيتَهم أشد إطافة ؟» فقال : «بيزيد بن قيس الأرْحَـــبِى» فركب على إلى حروراء . فجعل يتخللهم حتى صار إلى مضرب يزيد ابن قيس فصلى فيه ركعتين . ثم خرج فاتكأ على قوسه . وأقبل على الناس ثم قال: «هذا مقام مَنْ فَلَجَ [1] فيه فلج يوم القيامة، أنشدُكم الله أعلمتم أحد ا منكم كان

---

[1] فلـــج : فـــاز .

أكره للحكومة منى ؟» قالوا : «اللهم نعم» . قال : «أفعلمتم أنكم أكرهتمونى حتى قبلتها ؟» قالوا : «اللهم نعم» قال : «فعَلاَم خالفتمونى ونابذتمونى؟» قالوا : «إنا أتينا ذنبا عظيما فتبنا إلى الله . فتب إلى الله منه واستغفره نَعُدْ لك» . فقال على : «إنى أستغفر الله من كل ذنب». فرجعوا معه وهم ستة آلاف . فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن عليا رجع عن التحكيم ورآه ضلالا . وقالوا : «إنما ينتظر أمير المؤمنين ، أن يَسْمَن الكُراع [1] ويَجْبى المال ، فينهض إلى الشام» فأتى الأشعث بن قيس عليا عليه السلام ، فقال : «يا أمير المؤمنين ، إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلالا ، والإقامة عليها كفر» فخطب على الناس فقال : «من زعم أنى رجعت عن الحكومة فقد كذب، ومن رآها ضلالا فهو أضل» . فخرجت الخوارج من المسجد فحكَّمت فقيل لعلى : «إنهم خارجون عليك» . فقال : «لا أقاتلهم حتى يقاتلونى ، وسيفعلون» . فوجه إليهم عبد الله بن العباس فلما صار إليهم رحبوا به وأكرموه . فرأى جِباها قَرِحة [2] لطول السجود ، وأيْدِيا كثَفِنات [3] الإبل ، عليهم قمُص مُرحَّضة [4] ، وهم مشمرون . فقالوا : «ما جاء بك يا أبا العباس ؟» فقال : «جئتكم من عند صهْر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عمه وأعْلَمِنا بربه وسنة نبيه ، ومن عند المهاجرين والأنصار» . قالوا : «إنا أتَيْنا عظيما حين حَكَّمنا الرجال فى دين الله ، فإن تاب كما تبنا ونهض لمجاهدة عدونا رجعنا». فقال ابن عباس : «نشَدْتُكم الله إلا ما صَدَقتم أنفسكم ، أما علمتم أن الله أمر بتحكيم الرجال فى أرنب تساوى

---

(١) الكراع : الخيل والبغال والحمير .

(٢) قرحة : مجرحة .

(٣) الثفنة : مايستقر على الأرض من أعضاء الناقة حين تبرك .

(٤) مرحضة : مغسولة .

ربــع درهم تُصاد فى الحَرم ، وفى شِقاق رجل وامرأته ؟» . فقالوا : «اللهم نعم» فقـــال : «فأنْشدكم الله هل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عن القتال للهدنة بينه وبين أهل الحدَيبية ؟» . قالوا : «نعم ، ولــكن عليا محــا نفسه مــن إمارة المسلمين» . قال ابن عباس : «ليس ذلك بمُزيلها عنه ، وقد محا رسول الله صـــلى الله عـــليه وســـلم اسمه من النبوة . وقد أخذ على على الحكمين أن لا يجـــورا. وإن يَجوروا فعليّ أولى من معاوية وغيره » . قالوا : «إن معـــاوية يدّعى مثل دعوى على» . قال : «فأيهما رأيتموه أولى فولوه» . قالوا : «صدقت» . قـــال ابـــن عباس : «ومتى جار الحاكمان فلا طاعة لهما ولا قبول لقولهمـــا» . فاتبعه ألفـــــان وبقى أربعة آلاف فصلى بهم صلواتهم ابنُ الـــكَواء ، وقـــــال : «مـــتى كانت حرب فرئيسكم شَبَت بن رِبْعِى الرّياحى» . فلم يزالوا على ذلك يومـــين حـــتى أجمعـــوا على البيعة لعبد الله بن وهب الرّاسِبى . ومضى القوم إلى النهروان ، وكانوا أرادوا المضى إلى المدائن .

فمـــن طريف أخبارهم أنهم أصابوا مسلما ونصرانيا . فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصرانى فقالوا : «احفظوا ذمة نبيكم» .

ولقيهـــم عبد الله بن خَباب ، وفى عنقه مصحف ، ومعه امرأته وهى حامل . فقـــالوا : «إن هذا الذى فى عنقك ليأمرنا أن نقتلك» . قال : «ما أحيا القرآنُ فـــأحيوُه ، ومـــا أماتـــه فأمِيتوه» . فوثب رجل منهم على رُطَبة فوضعها فى فيه ، فصـــاحوا به ، فلفظها تورعا . وعرض لرجل منهم خنزير ، فضر به الرجل فقتله، فقـــالوا : «هذا فساد فى الأرض» . فقال عبد الله بن خباب : «ما علىَّ منـــكم بأس، إنى لَمُسلم» . قالوا : «حَدِّثنا عن أبيك» . قال : «سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تـــكون فتنة يموت فيها الرجل كما يموت

بدنـــه : يمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، فـــكن عبد الله المقتول ولا تـــكن القاتل» .
قـــالوا : «فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟» . فأثنى خيرا . فقالوا : «فما تقول فى على قبل التحكيم ، وفى عثمان ست سنين ؟» . فأثنى خيرا . قالوا : «فما تقول فى الحـــكومة والتحكيم ؟» . قال : «أقول إن عليا أعلم بكتاب الله منـــكم ، وأشد توقّيـــا عـــلى ديـــنه ، وأنفذ بصيرة» . قالوا : «إنك لست تتبع الهدى ، إنما تتبع الـــرجال على أسمائها» . ثم قربوه إلى شاطىء النهر فذبحوه . فأمْذَقَرّ دمـــه ، أى جرى مستطيلا على دقـــة .

وســـاموا رجلا نصرانيا بنخلة له ، فقال : «هى لـــكم» . فقالوا : «ما كنا لـــنأخذها إلا بثمن» . قال : «ما أعجب هذا ! أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون منا جَنى نخلة ؟» .

ومـــن طـــريف أخبارهم أن غَيْلان بن خَرَشة الضَّبى سَمرَ ليلة عند زياد ومعه جماعـــة . فذُكر أمر الخوارج . فألحى عليهم غيلان ثم انصرف بعد ليل إلى منزله . فلقيه أبو بلال مرداس بن أُدَيّة ، فقال له : «يا غيلان قد بلغنى ما كان منك الليلة عـــند هـــذا الفاسق من ذكر هؤلاء القوم الذين شَرَوْا أنفسهم ، وابتاعوا آخرتهم بدنياهم ، ما يُؤَمنكُ أن يلقاك رجل منهم أحرص والله على الموت منك على الحياة، فيُـــنْفذ حضْنَيك برُمْحه ؟» . فقال غيلان : «لن يبلغك أنى ذكرتهم بعد الليلة» . ومـــرداس تنـــتحله جماعة من أهل الأهواء لقَشفه [1] ، وبصيرته ، وصحة عبادته ، وظهـــور ديانته وبيانه ، تنتحله المعتزلة وتزعم أنه خرج منـــكرا لجور السلطان ، داعيا إلى الحق . وتحتج له بقوله لزياد حيث قال على المنبر : «والله لآخُذنّ المحسن

[1] القشف : الزهـــد وخشونة العيش .

منكم بالمسيء ، والحاضر منكم بالغائب ، والصحيح بالسقيم» .فقام إليه مرداس فقال : «قد سمعنا ما قلت أيها الإنسان ، وما هكذا ذكر الله عز وجل عن نبيه إبراهيم عليه السلام ، إذ يقول ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ ، وأنت تزعم أنك تأخذ المطيع بالعاصي» . ثم خرج فى عقب هذا اليوم . والشِّيَع تنتحله . وتزعم أنه كتب إلى الحسين بن على صلوات الله عليه : «إنى لست أرى رأى الخوارج . وما أنا إلا على دين أبيك» .

وهذا رأى قد استهوى جماعة من الأشراف . يروى أن المُنْذِر بن الجارُود كان يرى رأى الخوارج . وكان يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف يراه. وكان صالح بن عبد الرحمن صاحب العراق يراه . وكان عدة من الفقهاء يُنسَبون إليه ، منهم عِكرِمة مولى ابن عباس . وكان يقال ذلك فى مالك بن أنس . ويروى الزبيريون أن مالك بن أنس المَدِينى كان يذكر عثمان وعليا وطلحة والزبير فيقول : «والله ما اقتتلوا إلا على الثَّريد الأعفَر [1]» . فأما أبو سعيد الحسن البصرى فإنه كان ينكر الحكومة ولا يرى رأيهم . وكان إذا جلس فتمكن فى مجلسه ؛ ذكر عثمان فترحم عليه ثلاثا ولعن قتلته ثلاثا ، ويقول : «لو لم نلعنهم للعُنّا» . ثم يذكر عليا ، فيقول : «لم يزل أمير المؤمنين على رحمه الله يتعرّفه النصر ويساعده الظفر حتى حكم ، فلِمَ تحكّم والحق معك ؟ ألاَ تمضى قدما لا أبالك وأنت على الحق ؟» .

---

(1) الثريد : ما نسميه اليوم الفتة .

وكان فى جملة الخوارج لدد [1] واحتجاج على كثرة خطبائهم وشعرائهم ، ونفاذ بصيرتهم ، وتوطيد أنفسهم على الموت. فمنهم الذى طُعن فأنفَذه الرمح ، فجعل يسعى فيه إلى قاتله ، وهو يقول : «وعَجِلْتُ إليك رَبِّ لِترْضَى» .

ويروى عن النبى صل الله عليه وسلم أنه لما وصفهم قال : «سيماهم التَّحْليق، يقرؤون القرآن لايجاوز تراقِيَهم ؛ وعلامتهم رجل مُخْدج اليد [2]». وفى حديث عبد الله بن عمر : «رجل يقال له عمرو ذو الخُوَيصِرة أو الخُنَيْصرة» .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نظر إلى رجل ساجد إلى أن صلى النبى عليه السلام ؛ فقال : «ألا رجل يقتله ؟» . فحَسَر أبو بكر عن ذراعه وانتضى السيف وصَمَد نحوه ثم رجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : «أأقتل رجلا يقول لا إله إلا الله ؟» . فقال النبى صلى الله عليه وسلم:«ألا رجل يفعل ؟» ففعل عمر مثل ذلك . فلما كان فى الثالثة قصد له على بن أبى طالب عليه السلام فلم يره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لو قُتل لكان أول فتنة وآخرها».

ويروى عن أبى مريم عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه ذكر المخْدَج عند النبى عليه السلام . فقال أبو مريم : والله إن كان معنا لفى المسجد ، وكان يحضر طعام على إذا وضعه للمسلمين . ولقد كسوته برنسا لى . فلما خرج القوم إلى حروراء ، قلت : والله لأنظرن إلى عسكرهم . فجعلت أتخللهم حتى صرت إلى ابن الكَواء وشبث بن ربعى ورسل على تناشدهم ؛ حتى وثب رجل من الخوارج على رسول لعلى ؛ فضرب دابته بالسيف فحمل الرجل سرجه وهو يقول :

---

[1] اللدد : الخصومة الشديدة .

[2] مخدج اليد : يده ناقصة الخلق .

﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ثم انصرف القوم إلى الكوفة . فجعلت انظر إلى كثرهم كأنما ينصرفون من عيد . فرأيت المخدج ، وكان منى قريبا . فقلت : «أكنت مع القوم ؟» فقال: «أخذت سلاحى أريدهم ، فإذا بجماعة من الصبيان قد عرضوا لى ، فأخذوا سلاحى وجعلوا يتلاعبون بى» . فلما كان يوم النهر قال على : «اطلبوا المخدج» . فطلبوه فلم يجدوه حتى ساء ذلك عليا ، وحتى قال رجل : «لا والله يا أمير المؤمنين ما هو فيهم» . فقال على : «والله ما كَذبت ولا كُذبت» . فجاء رجل فقال : «قد أصبناه يا أمير المؤمنين» . فخر على ساجدا ؛ وكان إذا أتاه ما يُسَرُّ به من الفتوح سجد . وقال : «لو أعلم شيئا أفضل منه لفعلته» . ثم قال : «سيماه أن يده كالثَّدْى عليها شعرات كشارب السنور[1] ايتونى بيده المخدجة » . فأتوه بها فنصبها .

ويروى عن أبي الجلد أنه نظر إلى نافع بن الأزرق الحنفى ، وإلى نظره وتوغله وتعمقه فقال : «إنى لأجد لجهنم سبعة أبواب ، وإن أشدها حرا للخوارج فاحذر أن تكون منهم » .

وذكرت الرواة أن الحجاج أُتى بامرأة من الخوارج ، وبحضرته يزيد بن أبي مسلم مولاه ، وكان يَسْتَسِر برأى الخوارج . فكلم الحجاج المرأة فأعرضت عنه فقال لها يزيد بن أبي مسلم : «الأمير ويلك يكلمك» . فقالت : «بل الويل والله لك يا فاسقُ الرِّدِّىّ» . والردى عند الخوارج هو الذى يعلم الحق من قولهم ويكتمه .

---

(1) السنور : القط .

وذكـــروا أن عبد الملك بن مروان أتى برجل منهم . فبحثه فرأى منه ما شاء فهمـــا وعلما . ثم بحثه فرأى ما شاء أَرَبا ودَهْيا . فرغب فيه واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه فرآه مستبصرا محقّقا . فزاده فى الاستدعاء فقال له : «لتُغنِك الأولى عن الثانية ، وقد قلتَ فسمعتُ فاسمع أَقُلْ» . قال له : «قل» فجعل يبسط له من قول الخـــوارج ويزيـــن له من مذهبهم بلسان طَلْق ، وألفاظ بيِّنة ، ومعان قريبة . فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته : «لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خُلقت لهم وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ما ثبَّت الله علىّ من الحُجة وقرر فى قلبى من الحـــق . فقلت له : لله الآخرة والدنيا . وقد سلّطنى الله فى الدنيا ومكّن لنا فيها ، وأراك لست تجيب بالقول . والله لأقتلنك إن لم تطـــع ، فأنا فى ذلك إذ دُخِل علىّ بابنى مروان أخى يزيد لأمه وكان أبيا عزيز النفس . فدُخِل به فى هذا الوقت على عـــبد المـــلك باكيا لضرب المؤدب إياه» . فشق ذلك على عبد الملك فأقبل عليه الخـــارجى فقال له : «دعه يَبـْكى فإنه أرْحبُ لِشدْقِه ، وأصح لدماغه ، وأذهب لصـــوته ، وأحـــرى أن لا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبرتها» . فـــأعجب ذلـــك من قوله عبد الملك . فقال له متعجبا : «أمَا يشغلك ما أنت فيه وبعَرضـــهِ عن هذا ؟» فقال : «ما ينبغى أن يشغل المؤمن عن قول الحق شىء » . فأمـــر عـــبد الملك بحبسه وصفح عن قتله . وقال بعدُ يعتذر إليه : «لولا أن تفسد بألفـــاظك أكثر رعيتى ما حبستك» . ثم قال عبد الملك : «من شكـــكنى ووهمنى حتى مالت بى عصمة الله فغير بعيد أن يستهوى من بعدى» . وكان عبد الملك من الرأى والعلم بموضع .

وكـــان أهل النخَيلة جماعة بعد أهل النهروان ، ممن فارق عبد الله بن وهب ، وممـــن لجـــأ إلى راية أبى أيوب ، وممن أقام بالـــكوفة ، فقال : «لا أقاتل معه » .

فتواصـــوا وتعاضدوا وتأسفوا على خذلانهم أصحابهم . فقام منهم قائم يقال لـــه المُسْـــتَورِد من بنى سعد بن زيد مَناة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد ثم قال : «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانا بالعدل تخفِق راياته ، معْلِنا مقالته ، مبُلغـــا عن ربه ، ناصحا لأمته ، حتى قبضه الله مخيَّرًا مختارا . ثم قام الصديق فصَدَق عـــن نـــبيه ، وقـــاتل من ارتد عن دين ربه ، وذكر أن الله عز وجل قرن الصلاة بالزكاة، فرأى أن تعطيل إحداهما طَعْن على الأخرى لا بل على جميع منازل الدين ثم قبضه الله إليه مرفورا ثم قام الفاروق ففرق بين الحق والباطل ، مُسوِّيا بين الناس فى إعطائه لا مؤثرا لأقاربه ولا محكّما فى دين ربه . وها أنتم تعلمون ما حدث والله يقول : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ » . فـــكلٌ أجاب وبايع . فوجه إليهم على بن أبى طالب عبد الله بن العباس داعيا فأَبَوْا . فسار إليهم فقـــال له عفيف بن قيس : «يا أمير المؤمنين ، لا تخرج فى هذه الساعة فإنها ساعة نحس ، لعدوك عليك». فقال له على : «توكلت على الله وحده ، وعصيت رأى كـــل مـــتـــكهّن ، أنـــت تزعم أنك تعرف وقت الظفر من وقت الخذلان ؟ ! إنِى توكـــلت عـــلى الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها ، إن ربى على صـــراط مســـتقيم » . ثم سار إليهم فطحَنهم جميعا لم يفلت منهم إلا خمسة ، منهم المســـتورد وابـــن جُوَيْن الطائى وفَرْوة بن شَريك الأشْجَعى ، وهم الذين ذكرهم الحســـن البصـــرى فقـــال : «دعـــاهم إلى دين الله ، فجعلوا أصابعهم فى آذانهم واسْتَغْشَـــوْا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . فسار إليهم أبو حسن فطحنهم طحنا » . وفيهم يقول عمران بن حِطّان :

إنى أدِين بما دان الشُّراةُ بـــــه ... يوم النُّخَيلةِ عند الجوْسَقِ الخرِب [1]

---

(1) الجوسق : القصـــر .

وقال الحِمْيَرِيّ يعارض هذا المذهب :

إنى أدين بمـا دان الوَصِيُّ بـــه   يوم النُّخيلة من قتل المُحِلينـــا
وبالذى دان يوم النهرِ دِنْتُ بـــه   وشـاركتْ كفَّه كفى بصِفينـا
تلك الدماءُ معـا ياربِّ فى عنقى   ومثلَها فاسْقِنى آمينَ آمينـــا

وكان أصحاب النخيلة قالوا لابن عباس : « إذ كان علىّ على حق لم يشكك فيه وحكَّم مضطرا ، فما باله حيث ظفر لم يسْبِ ؟ » . فقال لهم ابن عبـــاس : « قـد سمعتم الجواب فى التحكيم ، فأما قولـكم فى السباء أَفَـكُنْتُم سابِين أمكم عائشـة ؟ » . فوضعوا أصابعهم فى آذانهم ، وقالوا : « أمسك عنا غَرب لسانك يا ابـن عـباس ، فإنه طُلَقٌ ذُلَق غواص على موضع الحجة » . ثم خرج المستورد بعد ذلك بمدة على المغيرة بن شعبة ، وهو والى الـكوفة . فوجـه إليه مَعْقِل بن قيس الرياحى فدعاه المستورد إلى المبارزة ، وقال له : « علامَ يُقتل الناس بينى وبينك ؟ » فقال لـه معقل : « النَّصفَ سألت » فأقسم عليه أصحابُه فقال : « ما كنتُ لآبى عـليه » فخرج إليه فاختلفا ضربتين فخرّ كل واحد منهما ميتا . وكان المستورد كثير الصلاة شديد الاجتهاد ، وله آداب يوصى بها ، وهى محفوظة عنه .

وخـرجت الخـوارج واتصل خروجها ، وإنمـا نذكر منهم من كان ذا خبر طـريف ، واتصلت به حِكَم من كلام وأشعار . فأول من خرج بعد قتل على عليه السلام حَوْثَرة الأسَدى فإنه كان مُتنحِّيا بالبَنْدَ نِيجَيْن ، فـكتب إلى حابس الطائى يسأله أن يتولى أمر الخوارج حتى يسير إليه بجمعه ، فيتعاضدا على مجاهدة معاوية ، فأجابــه فرجعا إلى موضع أصحاب النُّخيلة ، ومعاوية بالـكوفة حيث دخلها مع الحســن بــن على صلوات الله عليه بعد أن بايعه الحسن والحسين عليهما السلام

وقيس بن عبادة . ثم خرج الحسن يريد المدينة ، فوجه إليه معاوية وقد تجاوز طريقه يسأله أن يكون المتولى لمحاربتهم . فقال الحسن : «والله لقد كففت عنك لَحقْنِ دماء المسلمين ، وما أحسب ذلك يَسَعُنى . أفاقاتل عنك قوما أنت والله أولى بالقتال منهم ؟» .فلما رجع الجواب إليه ، وجه إليهم جيشا أكثرهم من أهل الكوفة . ثم قال لأبيه أبي حوثرة : «اكفنى أمر ابنك» . فصار إليه أبوه فدعاه إلى الرجوع فأبى . فأداره فصمم . فقال له : «يابنى ، أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن إليه ؟» . فقال : «يا أبت أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشْوَقُ منى إلى ابنى» . فرجع إلى معاوية فأخبره فقال : «يا أبا حوثرة ، عَتَا هذا جدا» . فلما نظر حوثرة إلى أهل الكوفة قال : «يا أعداء الله ، أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدّوا سلطانه ، واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدوا سلطانه !» . فخرج إليه أبوه فدعاه إلى البراز فقال : «يا أبت لك فى غيرى مندوحة ، ولى فى غيرك عنك مذهب» . ثم حمل على القوم وهو يقول :

اكْرُرْ على هَذِى الجموعِ حوثرهْ فعن قليل ما تنال المغْفِرهْ

فحمل عليه رجل من طيىء فقتله ، فرأى أثر السجود قد لَوّح جبهته ، فندم على قتله ثم انهزم القوم جميعا .

ويروى من حديث محمد بن كَعْب القُرَظِى قال : قال عمار بن ياسر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة ذات العُشَيرة فلما قَفلْنا نزلنا منزلا فخرجتُ أنا وعلى بن أبي طالب صلوات الله عليه ننظر إلى قوم يعتملون فنَعَسنا فنمنا فسفتْ علينا الريح التراب فما نبّهَنا إلا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لعلى: «يا أبا تراب» لما عليه من التراب «أتعلم من أشقى الناس ؟»

قال : «خبِّرنى يا رسول الله» . فقال : «أشقى الناس اثنان : أحمر ثمود الذى عقر الناقة ، وأشقاها الذى يخضب هذه – ووضع يده على لحيته – من هذا – ووضع يده على قرنه» .

وخرج قُرَيب بن مُرّة وزَحّاف الطائى ، وكانا مجتهدين بالبصرة فى أيام زياد اختلف الناس فى أمورهما أيهما كان الرئيس . فاعترضا الناس ، فلقيا شيخا ناسكا من بنى ضُبَيعة بن نزار فقتلاه ، وكان يقال له رُؤْبَة الضُّبعى . وتنادى الناس ، فخرج رجل من بنى قُطَيعة من الأزد ، وفى يده السيف . فناداه الناس من ظهور البيوت : «الحَرورية ، الحرورية الْجِ بنفسك» فناداهم : «لسنا حرورية ، نحن الشُّرط» فوقف فقتلوه . وبلغ أبا بلال خبرهما ، فقال : «قريب لا قَرّبه الله من الخير ، وزحّاف لا عفا الله عنه ، ركباها عَشْواء مظلمة» . يريد اعتراضهما الناس. ثم جعلا لا يمران بقبيلة إلا قتلا من وجدا حتى مرا ببنى على بن سُود من الأزد ، وكانوا رماة ، وكان فيهم مئة يجيدون الرمى . فرموهم رميا شديدا فصاحوا : «يابنى على ، البُقيا لارِماءَ بيننا» . فقال رجل من بنى على :

لا شيء للقوم سِوى السهام مشحوذةً فى غَلَس الظلام

فعَرّد [1] عنهم الخوارج . وخافوا الطلب فاشتقوا مقبرة بنى يشكر حتى نفذوا إلى مزينة ينتظرون من يلحق بهم من مُضر وغيرها ، فجاءهم ثمانون . وخرجت إليهم بنو طاحية بن سُود وقبائل مزينة وغيرها . فاستقتَل الخوارج فقُتلوا عن آخرهم. ثم غدا الناس إلى زياد فقال : «ألاَ ينهى كل قوم سفهاءهم

---

(١) عرد : تنحى .

يا معشر الأزد ، لولا أنكم أطفأتم هذه النار لقلت إنكم أَرَّثتمُوها [1] » . فكانت القبائل إذا أحست بخارجية فيهم شدتهم وأتت بهم زيادا . فكان هذا أحد ما يذكر من صحة تدبيره . وله أخرى فى الخوارج : أخرجوا معهم امرأة ، فظفر بها فقتلها ثم عراها ، فلم تخرج النساء بعد على زياد . وكن إذا دُعِين إلى الخروج ، قلن : «لولا التعرية لسارعنا » .

وكانت الخوارج أيام ابن عامر أخرجوا معهم امرأتين يقال لإحداهما كُحَيلة والأخرى قَطام . فجعل أصحاب عامر يُعَيِّرونهم ، ويصيحون بهم : يا أصحاب كحيلة وقطام ، يعرضون لهم بالفجور . فتناديهم الخوارج بالدفع والرَّدع ، ويقول قائلهم : « لا تَقْفُ [2] ماليس لك به علم » .

وكان مرداس بن حُدَير أبو بلال ، وهو أحد بنى ربيعة بن حنَظْلة ، تُعْظِمه الخوارج ، وكان مجتهدا كثير الصواب فى لفظه . فلقيه غيلان بن خَرَشه الضَّبى فقال: «يا أبا بلال ، إنى سمعت الأمير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البلجاء ، وأحسبها ستُؤخَذ» . فمضى إليها أبو بلال فقال لها : «إن الله قد وسّع على المؤمنين فى التقية فاستترى ، فإن هذا المسرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك» . فقالت :«إن يأخذنى فهو أَشْقَى بى، فأما أنا فما أحب أن يعُنَّت إنسان بسببى». فوجه إليها عبيد الله بن زياد فأتى بها . فقطع يديها ورجليها ، ورمى بها فى السوق فمر أبو بلال والناس مجتمعون فقال : «ما هذا ؟» . فقالوا : «البلجاء» فعرّج إليها فنظر ثم عض لحيته ، وقال لنفسه : «لَهذِه أطيب نفسا عن بقية الدنيا منك

(١) أرثتموها : أوقدتموها .

(٢) تقفو : تتبع .

يامـــرداس» ثم إن عبيد الله تتبع الخوارج فحبسهم وحبس مرداسا . فرأى صاحب السجن شدة اجتهاده وحلاوة منطقة ، فقال له : «إنى أرى لك مذهبا حسنا ، وإنى لأحب أن أوليك معروفا، أفرأيت إن تركتك تنصرف قليلا إلى بيتك أتدَّلج إلى ؟». قـــال : «نعـــم» فـــكان يفعل ذلك به . ولج عبيد الله فى حبس الخوارج وقتلهم فكُـــلِّم فى بعـــض الخـــوارج فلج وأبى ، قال : «أقمع النفاق قبل أن ينَجُمَ[1] ، لـــكلامُ هؤلاء أسرع على القلوب من النار إلى اليَراع [2] ». فلما كان ذات يوم قـــتل رجل من الخوارج رجلا من الشرط . فقال ابن زياد : «ما أدرى ما أصنع بهـــؤلاء ؟ كلما أمرت رجلا بقتل رجل منهم فتـــكوا بقاتله . لأقتلـــن من حُبس مـــنهم» . فأخرج السجان مرداسا إلى منزله كما كان يفعل وأتى مرداسا الخبر . فـــلما كـــان السحر هّيأ للرجوع ، فقال له أهله : «اتق الله فى نفسك ، فإنك إنْ رجعـــت قتُلت» . فقال : «إنى ما كنت لألْقَى الله غادرا » . فرجع إلى السجان ، فقال : «إنى قد علمت ما عزم عليه صاحبك» . فقال: «أعلمت ورجعت ؟ !».

ويروى أن مرداسا مر بأعرابى يَهْنَأ [3] بعيرا له فهَرِج البعير . فسقط مرداس مغشيا عليه . فظن الأعرابى أنه قد صُرِع فقرأ فى أذنه . فلما أفاق قال له الأعرابى : «قـــرأت فى أذنك» . فقال له مرداس : «ليس بى ما خفته على ، ولـــكنى رأيت بعيرك هرج من القطران فذكرت به قطـــــــــران جهنم فأصابنى ما رأيت» فقال: «لا جَرَم والله لا فارقتك أبدا» .

---

[1] ينجـــــم : يظهر .

[2] اليراع : القصب .

[3] يهنأ البعير : يطليه بالقطران .

وكـــان مـــرداس قد شهد صفين مع على بن أبي طالب صلوات الله عليه ، وأنكـــر التحكـــيم ، وشهد النهر ، ونجا فيمن نجا . فلما خرج من حبس ابن زياد ورأى جـــده فى طلب الشراة ، عزم على الخروج ، فقال لأصحابه : «إنه والله ما يَسَعُنا المقام بين هؤلاء الظالمين ، تجرى علينا أحكامهم مجانبين للعدل مفارقين للفصل . والله إن الصـــبر عـــلى هـــذا لعظيم ، وإن تجريد السيف وإخافة السبيل لعظيم ولـــكنـــا نَنْتَـــبِذ عـــنهم ولا نجرد سيفا ولا نقاتل إلا من قاتلنا» . فاجتمع إليه أصـــحابه زهاء ثلاثين رجلا ، منهم حُرَيث بن حَجْل وكَهْمَس بن طَلْق الصَّرِيمى . فـــأرادوا أن يولوا أمرهم حريثا فأبى . فولوا أمرهم مرداسا . فلما مضى بأصحابه لقيه عبد الله بن رَباح الأنصارى، وكان له صديقا. فقال له:«أين تريد ؟» قال : « أريد أن أهرب بدينى وأديان أصحابى من أحـــكام هؤلاء الجَوَرة» قـــال : «أعلم بكم أحد ؟» . قال : «لا» . قال : «فارجع» . قال : «أتخاف علىّ مكروها» . قال : «نعم وأن يؤْتَى بك» . قال : «فلا تخف فإنى لا أجرد سيفا ولا أخيف أحدا ولا أقاتل إلا من قاتلنى». ثم مضى حتى نزل آسَك ، وهو ما بين رامهَرمُز وأرَّجان. فمـــر بـــه مال يُحْمَل لابن زياد ، وقد قارب أصحابه الأربعين . فحطّ ذلك المال، فـــأخذ منه عطاءه وأعطيات أصحابه ، ورد الباقى على الرســـل . وقال : «قولوا لصـــاحبكم إنما قبضنا أعطياتنـــا» . فقال بعض أصحابه : «فعلامَ تدع الباقى ؟» فقال : «إنهم يقسمون هذا الفَيْء ، كما يقيمون الصلاة فلا نقاتلهم» . ولأبى بلال أشعار فى الخروج اخترت منها قوله :

أبَعْدَ ابن وَهْب ذى النزاهة والتقى ... ومن خاض فى تلك الحروب المهَالكا
أحِبُّ بقاءً أو أرَجّى سلامـــــــة ... وقد قَتلوا زيد بن حِصْنٍ ومالـــــكا
فيـــــارب سَلم نيتى وبَصيرتى ... وهَبْ لى التقى حتى ألاقى أولئـــكا

ويروى أن رجلا من أصحاب ابن زياد قال : خرجنا فى جيش نريد خراسان، فمررنا بآسك ، فإذا نحن بهم ستة وثلاثين رجلا . فصاح بنا أبو بلال : «أقاصدون لقتالنا أنتم ؟» . وكنت أنا وأخى قد دخلنا زربا فوقف أخى ببابه . فقال : «السلام عليكم» فقال مرداس : «وعليكم السلام» فقال لأخى: «أجئتم لقتالنا ؟» فقال له : «لا إنما نريد خراسان» .قال : «فأَبْلِغوا من لقيكم أنا لم نخرج لنفسد فى الأرض ، ولا لنروِّع أحدا ولكن هربا من الظلم ، ولسنا نقاتل إلا من يقاتلنا ، ولا نأخذ من الفىء إلا أعطياتنا» . ثم قال : «أَنُدِب إلينا أحد» . قلنا : «نعم ، أسْلَم بن زُرْعة الكلابى». قال : «فمتى ترونه يصل إلينا ؟» قال : «يوم كذا وكذا» . فقال أبو بلال : «حَسْبُنا الله ونعم الوكيل» .

وجهّز عبيد الله أسلم بن زرعة فى أسرع وقت ، ووجهه إليهم فى ألفين ، وقد تَتامّ أصحاب مرداس أربعين رجلا . فلما صار إليهم أسلم ، صاح به أبو بلال : «اتقِ الله يا أسلم ، فإنا لا نريد قتالا ولا نحتجن [1] فيئا ، فما الذى تريد ؟» قال: «أريد أن أردكم إلى ابن زياد». قال مرداس : «إذًا يقتلنا» . قال : «وإنْ قتلكم ؟» قال : «تَشْرَكُه فى دمائنا» . قال : «إنى أدين بأنهُ مِحقَ وأنكم مبطلون» فصاح به حرَيث بن حجل : «أهو محق وهو يطيع الفَجَرة ، وهو أحدهم ، ويقتل بالظِّنة ، ويخُصُّ بالفىء ، ويَجُور فى الحكم ، أما علمت أنه قتل بابن سعاد أربعة بُرآء وأنا أحد قتلته . ولقد وضعت فى بطنه دراهم كانت معه» . ثم حملوا عليه حملة رجل واحد ، فانهزم هو وأصحابه من غير قتال. وكان مَعْبَد أحد الخوارج قد كاد يأخذه . فلما ورد على ابن زياد غضب عليه غضبا شديدا ، وقال : «وَيْلك ، أتمضى فى ألفين فتنهزم لحملة أربعين ؟» . وكان أسلم يقول :

---

(١) نحتجن : نختص أنفسنا .

«لأنْ يَذُمَّــنى ابــن زياد حيا أحب إلىّ من أن يمدحنى ميتا» . وكان إذا خرج إلى السوق أومر بصبيان صاحوا بـــه : «أبو بلال وراءك» . وربما صاحوا بـــه : «يـــا معبد ، خذه » . حتى شـــكا ذلك إلى ابن زياد ، فأمر ابن زياد الشرط أن يكفوا الناس عنه .

ففى ذلك يقول عيسى بن فاتك من بنى تَيْم اللات بن ثعلبة فى كلمة له :

فلما أصبحوا صَلّوا وقامـــوا إلى الجرد العتـــاق مُسوَّمينا [1]
فلما استجمعوا حملوا عليهـــم فظل ذوو الجعَائل يُقْتِلونـــا [2]
بقيةَ يومهم حتى أتاهـــــم بأن القوم وَلّوا هاربينـــــا
أألْفا مؤمنٍ فيمـــــا زعمتمُ ويَهزمُهم بآسَكَ أربعونـــــا
كذبتم ليس ذاك كمـــا زعمتم ولـــكنّ الخوارجَ مؤمنونـــا
هم الفئةُ القليلة غيرَ شـــــكٍ على الفئةِ الـــكثيرةِ ينُصرونـــا

ثم ندب لهم عبيد الله بن زياد الناس ، فاختار عَبّاد بن أخضر فوجهه فى أربعة آلاف . فنَهَد [3] لهم . ويزعم أهل العلم أن القوم قد كانوا تنحَّوْا عن دَرابَجِرْد من أرض فـــارس ، فصار إليهم عباد . وكان التقاؤهم فى يوم جمعة . فناداه أبو بلال : «اخـــرج إلىّ يـــا عبـــاد ، فإنى أريد أن أحاورك». فخرج إليه فقال : «ما الذى تـــبغى ؟» . قـــال : «أن آخذ بأقفائـــكم فأردكم إلى الأمير عبيد الله بن زياد» . قـــال: «أو غـــير ذلك» . قال : «وما هو ؟» . قال : «أن ترجع فإنا لا نخيف سبيلا ، ولا نَذْعَــر مسلما ، ولا نحارب إلا من حاربنا ، ولا نجبى إلا ما حمينا » .

---

(1) الجرد : الخيل القصيرة الشعر . والعتاق : الكريمة . والمسوم : المعلم .

(2) الجعائل : جمع جعيلة ، وهى الأجر ، يصفهم بأنهم ماجورون .

(3) نهـــد : بـــرز .

فقال له عباد : «الأمر ما قلت لك» . فقال لهُ حريَث بن حَجْل : «أتحاول أن ترد فـئة من المسلمين إلى جبار عنيد ؟» قال لهم : «أنتم أوْلَى بالضلال منه . وما من ذاك بـد !» . وقدم القعْقاع بن عطية الباهلى من خراسان يريد الحج . فلما رأى الجَمْعَـين ، قال : «ما هذا ؟» قالوا : «الشُّراة». فحمل عليهم ونَشِبت الحرب . فـأُخذ القعقـاع أسيرا فأُتِى به أبو بلال . فقال : «ما أنت ؟» قال : «لست من أعدائـك ، وإنما قدمت للحج فجهلت وغُررت» . فأطلقه فرجع إلى عباد فأصلح من شأنه . ثم حمل عليهم ثانية وهو يقول :

أقاتلهـم وليس علىّ بَعْثٌ ... نشاطا ليس هـذا بالنشاط
أكُرُّ على الحروريين مُهْـرى ... لأَحْمِلَهم على وَضَح الصـراط

فحمل عليه حريث بن حجل السَّدُوسى وكَهْمَس بن طَلْق الصريمى ، فأسراه فقتلاه ولم يأتيا به أبا بلال . فلم يزل القوم يجتلدون حتى جاء وقت صلاة الجمعة . فـناداهم أبو بلال : «يا قوم هذا وقت الصلاة ، فوادِعونا حتى نصلى وتصلوا» . قالوا : «لك ذاك» .فرمى القوم أجمعون أسلحتهم وعمدوا للصلاة . فأسرع عباد ومن معه ، والحرورية مبطئون . فهم من بين راكع وقائم وساجد فى الصلاة وقاعد، حـتى مال عليهم عباد ومن معه فقتلوهم جميعا . فلما فرغ من أولئك الجماعة أقبل بهـم . فصُـلبت رؤوسـهم وفيهم داود بن شَبَث وكان ناسـكا، وفيهم حبيبة النَّضْرى من قيس وكان مجتهدا .

فيُروى عن عمران بن حِطّان أنه قال . قال لى حبيبة : لما عزمت على الخروج فـكـرت فى بـناتى فقلت ذات ليلة : «لأُمْسِكَنَّ عن تفقدهن حتى أنظر» .فلما كـان فى جـوف الـليل استسقت بنية لى فقالت : «يا أبت اسقنى» . فلم أجبها

فأعـــادت . فقـــامت أخيَّـــة لها أسَنّ منها فسقتها . فعلمت أن الله عز وجل غير مضيِّعهن فأتممت عزمي . وكان فى القوم كهمس ، وكان من أبرِّ الناس بأمه . فقال لهـــا : «يـــا أُمَّه لولا مـــكانك لخرجت» . فقالت : «يابنى قد وهبتك لله». ففى ذلك يقول عيسى بن فاتك الحَبَطىّ :

ألا فى الله لا فى النـــــاس شالتْ بداود وإخوتـــــــه الجُذوع
مَضَوا قتلا وتمزيقا وصلبـــــــا تحومُ عليهمُ طير وُقـــوع
إذا ما الليل أ ظْلَمَ كابــــــدوه فيُسْفرُ عنهمُ وهمُ ركـــوع
أطار الخوفُ نومهمُ فقامـــــوا وأهلُ الأمن فى الدنيا هُجوع [1]

وقال عمران بن حطان :

يا عين بَكّى لمرداسٍ ومصرعـــــه يارببٌ مرداسٍ اجعلنى كمرداس
تركتَنى هائما أبـــــــكى لمَرْزَئَتى فى منزلٍ موحشٍ من بعد إيناس
أنكرتُ بعدك من قد كنتُ أعرفه ما الناس بعدك يامرداس بالناس
إما شربتَ بـــكأسٍ دار أوَّلهـــــا على القرونِ فذاقوا جُرْعة الكاس
فـــكل من لم يَذُقها شاربٌ عجِلا منها بأنفاس وِرْدِ بعد أنفـــــاس

ثم إن عباد بن أخضر المازنى لبث دهرا فى المصر محمودا موصوفا بما كان منه فـلم يـزل عـلى ذلك حتى ائتمر به جماعة من الخوارج أن يفتكوا به . فذَمَر [2] بعضـــهم بعضا على ذلك . فجلسوا فى يوم جمعة ، وقد أقبل على بغلة لـــه وابنه

---

(١) شالت به : ارتفعت . ويسفر : يظهر ضوء نهاره .

(٢) ذمـــــر : حض .

رَدِيفه. فقام إليه رجل منهم فقال : «أســألك عن مسألة» قال : «قُل» . قال : «أرأيت رجلا قتل رجلا بغير حق ، وللقاتل جاهٌ وقَدْر وناحية من السلطان : ألوَلِيّ ذلك المقتول أن يفتك به إن قَدَر عليه ؟». قال : «بل يرفعه إلى السلطان» . قال: «إن السلطان لا يُعْدِى [1] عليه لمــكانه منه وعظيم جاهه عنده» . قـــال : «أخــاف عليه إنْ فتك به فتك به السلطان». قال : «دَعْ ما تخــافه من ناحيــة الســلطان ، أتلحقه تبعة فيما بينه وبين الله» . قال : «لا» .فحَكّم هو وأصحابه وخــبطوه بأســيافهم . ورمى عباد ابنه فنجا . وتنادَى الناس : «قُتِل عبــاد» . فاجتمع الناس فأخذوا أفواه الطرق . وكان مقتل عباد فى سكة بنى مازن . فصاحوا بالــناس : «دَعُونا وثأرنا» . فأحجم الناس وتقدم المازنيون فحاربوا الخوارج حتى قتــلوهم جميعــا لم يفلت منهم أحد إلا عبيدة بن هلال ، فإنه خرق خُصا [2] ونفذ منه. ففى ذلك يقول الفرزدق :

لقد أدرك الأوتارَ غـــــيرَ ذميمةٍ ... إذا ذُمَّ طُلاب التراتِ الأخاضر
هُم جَرَّدُوا الأسْيافَ يوم ابنِ أخضر ... فنالوا التى ما فوقهــا نال ثائر
أقادوا به أُســدا لها فى اقتحامهــا ... إذا برزتْ نحو الحروب بصائر[3]

وقال معبد بن أخضر :

ساحمى دماء الأخضريين إنــــــه ... أبى الناسُ إلاأن يقولوا ابنُ أخضرا

---

(1) يعدى عليــه : يعاقبه .

(2) خص : بيت من شجر .

(3) الأوتـــار : الثارات . وكذلك التراث .

وكـان مقـتل عباد ، وعبيد الله بن زياد بالـكوفة ، وخليفته على البصرة عـبيد الله بـن أبي بَكْرة فكتب إليه يأمره أن لا يدع أحدا يُعرف بهذا الرأى إلا حبسـه وجَـدَّ فى طلـبه ممـن تغيب منهم . فجعل عبيد الله بن أبي بكرة يتتبعهم فيـأخذهم . فـإذا شُفع إليه فى أحد كَفَلَه إلى أنَ يقْدَم ابن زياد حتى أتِي بعروة بن أُديَّـة فاطلقه وقال : «أنا كَفيلك» فلما قدم عبيد الله بن زياد أخذ من فى السجن مـنهم فقتـلهم جميعـا . وطلب الـكفلاء بمن كفلوا به منهم . فـكل من جاءه بصـاحبه أطلقه وقتل الخارجي . ومن لم يأت بمن كفل به منهم قتله . ثم قـال لعبيد الله بن أبي بكرة : «هاتِ عروة بن أدية» . قال : «لا أقدر عليه» . قـال : «إذن والله أقتـلك فإنك كفيله». فلم يزل يطلبه حتى دُلَّ عليه فى سَرَب العلاء بن سُـوَية المِنْقَرى . فـكتب بذلك إلى عبيد الله بن زياد . فقرأ عليه الـكاتب : «إنـا أصبناه فى شَرْب» . فقال للـكاتب «صحفت والله ولَؤُمت ، إنما هو فى سرب العلاء بن سوية . ولَوَدِدْتُ أنه كان ممن يشرب النبيذ» . فلما أقيم عروة بن أدية بين يديه حاوره . وقد اختلف الناس فى خبره . وأصحُّه عندى أنه قـال له : «جهـزت أخـاك عليّ» . فقال : «والله لقد كنت به ضَنينا وكان لى عزا . ولقد أردت له مـا أريـده لنفسى فعزم عزما فمضى عليه ، وما أحب لنفسى إلا المقام وتـرك الخروج» . قال له : «أفأنت على رأيه ؟» قال : «كلنا نعبد ربا واحدا» قـال : «أمَـا لأمَثّلَن بك» . قال : «اختر لنفسك من القصاص [1] ما شئت » . فامـر بـه فقطعوا يديه ورجليه ثم قال : «كيف ترى ؟» قال : «أفسدتَ على دنياى وأفسدتُ عليك آخرتك» . فقُتل ثم صُلب على باب داره .

(١) القصـاص : العقـاب .

وكان عبيد الله لا يُلَبث الخوارج : يحبسهم تارة ويقتلهم تارة ، وأكثر ذلك يقتلهم ولا يتغافل عن أحد منهم . وسبب ذلك أنه كان أطلقهم من حبس زياد لما ولى بعده فخرجوا عليه . فأما زياد فكان يقتل المعُلنِ ويستصلح المُسرِ ، ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة .

ووَجَّه يوما بُحَينة بن كَبَيش الأعرجى إلى رجل من بنى سعد يرى رأى الخوارج . فجاءه بُحينة فأخذه . فقال : «إنى أريد أن أُحدث وضوءا للصلاة ، فدعنى أدخل إلى منزلى» . قال : «ومن لى بخروجك ؟» . قال : «الله عز وجل». فتركه فدخل . فأحدث وضوءا ثم خرج . فأتى به بحينة زيادا . فلما مثل بين يديه ذكر الله زيادٌ ثم صلى على نبيه ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بخير ثم قال : «قعدتَ عنى فأنكرت ذلك». فذكر الرجل ربه فحمده ووحده ثم ذكر النبى عليه السلام ثم ذكر أبا بكر وعمر بخير ولم يذكر عثمان ثم أقبل على زياد فقال : «إنك قد قلتَ قولا فصدِّقْهُ بفعلك . وكان من قولك : ومن قعد عنا لم نَهِجْهُ ، فقعدت » . فأمر له بصلة وكسوة وحُمْلان . فخرج الرجل من عند زياد . وتلقاه الناس يسألونه فقال : «ما كلكم أستطيع أن أخبره ، ولكنى دخلت على رجل لا يملك ضرا ولا نفعا لنفسه ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فرزق الله منه ما ترون» . وكان زياد يبعث إلى الجماعة منهم فيقول : «ما أحسِب الذى يمنعكم من إتيانى إلا الرُّجْلة [1] » . فيقولون : «أجل» . فيحملهم ويقول : «اغشَوْنى الآن واسْمُروا عندى» . فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز فقال : «قاتل الله زيادا ، جمع لهم كما تجمع الذّرة [2] ، وحاطهم كما تحوط الأم البَرة ، وأصلح العراق

---

(1) الرجلة : عدم امتلاك الرجل ما يركبه .

(2) الذرة : النملة الصغيرة .

بأهل العراق ، وترك أهل الشام فى شأمهم ، وجبى العراق مئة ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف » .

وبلغ زيادا عن رجل يُكنَى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه يرى رأى الخوارج . فدعاه فولاه جُنْدَى سابور وما يليها ، ورزقه أربعة آلاف درهم فى كل شهر ، وجعل عمالته [1] فى كل سنة مئة ألف . فكان أبو الخير يقول : « ما رأيت شيئا خيرا من لزوم الطاعة والتقلب بين أَظْهُر الجماعة » . فلم يزل واليا حتى أنكر منه زياد شيئا . فتنمر لزياد فحبسه . فلم يخرج من حبسه حتى مات .

وقال الرُّهَين ، وكان رجلا من مراد ، وكان لا يرى القعود عن الحرب وكان فى الدهاء والمعرفة والشعر والفقه بقول الخوارج بمنزلة عمران بن حطان ، وكان عمران بن حطان فى وقته شاعر قَعَد الصُّفْرِية ورئيسهم ومفتيهم . قال المرادى :

يا نفس قد طال فى الدنيا مراوغتى	لا تأمَنَنَّ لصَرْف الدهر تنغيصا
إنى لَبائعُ ما يَفْنَى لباقيةٍ	إنْ لم يَعُقْنى رجاءُ العيش تَرْبيصا
وأسأل الله بيعَ النفس مُحتسِبا	حتى ألاقىَ فى الفردوس حُرْقوصا
وابنَ المَنيح ومرداسا وإخوته	إذ فارقوا زَهْرة الدنيا مَخاميصا [2]

وهذه كلمة له . وله أشعار كثيرة فى مذاهبهم . وكان زياد ولى شيبان بن عبد الله الأشعَرى صاحب مقبرة بنى شيبان باب عثمان وما يليه . فجد فى طلب الخوارج وأخافهم وكانوا كثُروا . فلم يزل كذلك حتى أتاه ليلة ، وهو متكىء

---

(١) العمالة : الأجر .

(٢) التربيص : التوقف والتمهل . والمخاميص : الجوعى .

بـــباب داره ، رجلان من الخوارج . فضرباه بأسيافهما فقتلاه . وخرج بنون لـــه للإغاثـــة فقُتلوا . ثم قتلهما الناس . فأُتى زياد بعد ذلك برجل من الخوارج فقال : « اقتلوه متكئا كما قُتل شيبان متكئا ». فصاح الخارجى : « ياعَدْلاه ! » يهزأ به .

وذُكر لعبيد الله بن زياد رجل من بنى سَدوس ، يقال له خالد بن عباد أو ابن عــبادة ، وكان من نساكهم . فوجه إليه فأخذه . فأتاه رجل من آل ثور فــكذب عنه ، وقال : « هو صهرى وهو فى ضِمْنى » . فخلى عنه . فلم يزل الرجل يتفقده حتى تغيب . فأتى ابن زَياد فأخبره . فبعث إلى خالد بن عباد فأُخذ . فقال عبيد الله ابـــن زياد : « أين كنت فى غيبتك هذه ؟ » . قال : « كنت عند قوم يذكرون الله ، ويذكـــرون أئمـــة الجَوْر فيتبرؤون منهم » . قال : « دُلّنى عليهم » . قال : « إذن يسعدوا وتشقى ، ولم أكن لأُرَوعهم » . قال : « فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ » . قال : « خيرا » . قال : « فما تقول فى أمير المؤمنين عثمان : أتتولاه ، وأمير المؤمنين معاوية ؟ » .قال : « إن كانا وليَّين لله فلستُ أعاديهما » . فأراغه مرات فلم يرجع. فعـــزم عـــلى قـــتله فأمر بإخراجه إلى رحبة تعرف برحبة الزّيْنَبى . فجعل الشُّرَط يتفادَوْن من قتله ، ويروغون عنه توقيا ، لأنه كان شاسفا [1] عليه أثر العبادة حتى أتـــى المُثَلّم بن مسروح الباهلى ، وكان من الشرط ، فتقدم فقتله . فائتمر بـــه الخوارج ليقتلوه ، وكان مغرما باللقاح [2] يتتبعها ، فيشتريها من مَظانّها [3] وهم فى تَفَقُّـــده . فدسوا إليه رجلا فى هيئة الفتيان عليه رَدْع [4] زعفران . فلقيه بالمرْبَد ،

---

(1) الشاسف : الضامر الهزيل .

(2) اللقـــاح : جمع لقحة ، وهى الناقة الحلوب .

(3) مظانها : الأماكن التى يظن أنها موجودة فيهـــا .

(4) الردع : الأثـــر .

وهو يسأل عن لَقْحة صَفِي [١] . فقال له الفتى : « إن كنت تبلُغ فعندى ما يُغنيك عـن غيره ، فامض معى » . فمضى المثلم على فرسه والفتى أمامه حتى أتى به بنى سعد . فدخل دارا وقال له : « ادخل على فرسك » . فلما دخل وتوغل فى الدار ، أغـلق الباب . وثارت به الخوارج فاعْتَوَرَه [٢] حُرَيث بن حَجْل وكَهْمَس بن طَلْق الصَّـريمى فقـتلاه . وجعـلا دراهم كانت معه فى بطنه ، ودَفناه فى ناحية الدار ، وحـكا آثار الدم ، وخليا فرسه فى الليل فأُصيب من الغد فى المربد . وتحسس عنه الباهـليون فـلم يروا له أثرا . فاتهموا به بنى سَدُوس فاستَعْدَوا عليهم السلطان . وجعل السدوسيون يحلفون . فتحامل ابن زياد مع الباهليين ، فأخذ من السدوسيين أربع ديات ، وقال : « ما أدرى ما أصنع بهؤلاء الخوارج ؟ كلما أمرت بقتل رجل مـنهم اغـتالوا قاتله » . فلم يُعلم بمـكانه حتى خرج مرداس . فلما واقفهم ابن زُرْعـة الـكلابى صاح بهم حريث بن حجل : « أهاهنا من باهلة أحد ؟ » . قالوا : « نعـم ». قـال : « يا أعداء الله ، أخذتم بالمثلم أربع ديات وأنا قاتله ، وجعلت دراهـم كانت معه فى بطنه ، وهو فى موضع كذا مدفون ! » . فلما انهزموا صاروا إلى الدار فأصابوا أشلاءه والدراهم ، ففى ذلك يقول أبو الأسود الدُّؤَلى :

آلَيْتُ لا أغدو إلى رَب لقْحَـــةٍ أُساومه حتى يعود المثـــــلم [٣]

ثم خـرجت خـوارج لا ذكر لهم كلهم قُتل حتى انتهى الأمر إلى الأزارقة . ومـن هاهـنا افـترقت الخوارج ، فصارت على أربعة أضْرُب : الإِباضية ، وهم

(١) الصفى : الغزيرة اللبن .
(٢) اعتـــوره : تبادله .
(٣) آليت : أقسمت .

أصحاب عبد الله بن إباض : والصُّفْرية ، واختلفوا فى تسميتهم ، فقال قوم : سموا بابن صَفار ، وقال آخرون وأكثر المتكلمين عليه : هم قوم نهكَتْهم العبادة فاصفرت وجوهم ؛ ومنهم البَيْهَسِية ، وهم أصحاب أبى بَيْهَس ؛ ومنهم الأزارقة، وهم أصحاب نافع بن الأزرق الحَنفى . وكانوا قبلُ على رأى واحد لا يختلفون إلا فى الشىء الشاذ من الفروع ، كما قال صخر بن عروة : « إنى كرهت قتال على ابن أبى طالب رضى الله عنه لسابقته وقرابته . فأما الآن فلا يسعنى إلا الخروج » . وكان اعتزل عبد الله بن وهب يوم النهر . فضللته الخوارج بامتناعه من قتال على.

فكان أول أمرهم الذى نستاقه أن جماعة من الخوارج منهم نَجْدة بن عامر الحَنَفى عزموا على أن يقصدوا مكة لما توجه مسلم بن عُقْبة يريد المدينة لوقعة الحَرة. فقالوا : « هذا ينصرف عن المدينة إلى مكة ، ويجب علينا أن نمنع حرم الله منه ، ونمتحن ابن الزبير ، فإنْ كان على رأينا بايعناه » . فمضوا لذلك فكان أول أمرهم أن أبا الوازع الراسبى ، وكان من مجتهدى الخوارج ، كان يَذمُر نفسه ويلومها على القعود ، وكان شاعرا ، وكان يفعل ذلك بأصحابه . فأتى نافعَ ابن الأزرق ، وهو فى جماعة من أصحابه يصف لهم جور السلطان ، وكان ذا لسان عَضْب واحتجاج وصبر على المنازعة . فأتاه أبو الوازع فقال : « يا نافع ، لقد أعطيت لسانا صارما وقلبا كَليلا ، فَلَوَدِدْتُ أن صرامة لسانك كانت لقلبك وكلال قلبك كان للسانك ، أتحض على الحق وتقعد عنه ، وتقبح الباطل وتقيم عليه ؟ » . فقال : « إلى أن تجمع من أصحابك من تنكى به عدوك » . فقال أبو الوازع :

لسانُك لا تنْكى به القومَ إنما ... تَنال بكفيك النجاةَ من الكرْب
فجاهدْ أناسا حاربوا واصطبر ... عسى الله أن يُخزىَ غَوِىَّ بنى حرب[1]

---

[1] الغوى : الضال ، يريد معاوية بن أبى سفيان .

ثم قال : «والله لا ألومك ونفسى ألوم ، ولأَغْدُوَنَّ غدوة لا أنثنى بعدها أبدا» . ثم مضى فاشترى سيفا وأتى صَيْقَلا كان يذم الخوارج ويدل على عوراتهم فشاوره فى السيف فحمده . فقال : «اشْحَذْه» . فشحَذَه حتى إذا رضيه حَكم وخبط به الصيقل . وحمل على الناس فتهاربوا منه حتى مقبرة بنى يشكر . فدفع عليه رجل حائطَ السُّتْرة . فكرهت ذلك بنو يشكر خوفا أن تجعل الخوارج قبره مهاجَرا .

فلما رأى ذلك نافع وأصحابه جَدُّوا ، وخرج فى ذلك جماعة . فكان ممن خرج عيسى بن فاتك الشاعر الخَطّى من تَيْم اللات بن ثعلبة ، ومقتله بعد خروج الأزارقة .

فمضى نافع وأصحابه من الحرورية قبل الاختلاف إلى مكة ليمنعوا الحرم من جيش مسلم بن عقبة فلما صاروا إلى ابن الزبير عَرّفوه أنفسهم . فأظهر لهم أنه على رأيهم حتى أتاهم مسلم بن عقبة وأهل الشام . فدافعوهم إلى أن يأتى رأى يزيد بن معاوية ولم يبايعوا ابن الزبير . ثم تناظروا فيما بينهم فقالوا : «ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده ، فإن قدم أبا بكر وعمر ، وبرئ من عثمان وعلى ، وكَفّر أباه وطلحة بايعناه . وإن تكن الأخرى ظهر لنا ما عنده فتشاغلنا بما يُجدِى علينا» . فدخلوا على ابن الزبير وهو متبذل [1] وأصحابه متفرّقون عنه . فقالوا : «إنا جئناك لتخبرنا رأيك ، فإن كنت على الصواب بايعناك ، وإن كنت على غيره دعوناك إلى الحق . ما تقول فى الشيخين ؟» . قال : «خيرا» . قالوا : «فما تقول فى عثمان الذى أَحْمَى الحِمَى ، وآوَى الطَّريد ، وأظهر لأهل مصر شيئا

---

[1] متبذل : فى لباسه وهيئته المنزلية دون تكلف .

وكــتب بخلافه ، وأوطأ آل أبي مُعَيط رقاب الناس ، وآثرهم بَفْيْء المسلمين ، وفى الذى بعده الذى حكم فى دين الله الرجال ، وأقام على ذلك غير تائب ، ولا نادم ، وفى أبيــك وصــاحبه، وقد بايعا عليا وهو إمام عادل مرضيّ لم يظهر منه كفر ثم نــكثا بعَرَض من أعراض الدنيا ، وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يَقِــرْنَ فى بيوتهن وكان لك فى ذلك ما يدعوك إلى التوبة . فإن أنت قلت كما نقــول فــلك الزُّلْفَة [1] عند الله والنصر على أيدينا ونسأل الله لك التوفيق . وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه ، والتحقيق بعثمان والتولى فى السنين الست التى أحلت دمه وأفسدت إمامته ، خذلك الله وانتصر منك بأيدينا »

فقــال ابن الزبير : « إن الله أمر وله العزة والقدرة فى مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العتاة بأرأف من هذا القول ، فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما وسلم : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ ، وقال رسول الله صلى الله عليه وســـلم : « لا تؤذوا الأحياء بسب الموتى » ، فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه ، وأبــو جهل عدو الله ، وعدو الرسول ، والمقيم على الشرك ، والجاد فى المحاربة ، والمتــبغِّض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، والمحارب لــه بعدها ، وكفــى بالشرك ذنبا . وقد كان يُغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة وأبى أن تقولــوا : أتبرأ من الظالمين . فإن كانا منهم دخلا فى غمار الناس ، وإن لم يكونا مــنهم لم تُحفظــون [2] بسب أبى وصاحبه . وأنتم تعلمون أن الله عز وجل قال لــلمؤمن فى أبويــه : ﴿ وَإِنْ جَــاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ . وقال جل ثناؤه : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ وهــذا الذى دعوتم إليه أمر لــه ما بعده ، وليس يُقْنِعكم إلا التوقيف والتصريح .

---

[1] الزلفة : القربى والحظوة .

[2] تحفظون : تغضبون .

obeikandi.com

ولعَمْــرى إن ذلك لأحْرى بقطع الحُجَج ، وأوضح لمنهـــــــاج الحق ، وأوْلَى بأن يعــرف كلٌ صاحبه من عدوه . فرُوحوا إلىّ من عَشيِّتــكم هذه ، أكشف لــكم ما أنا عليه إن شاء الله » .

فلما كان العشى راحوا إليه فخرج إليهم وقد لبس سلاحه . فلما رأى ذلك نجــدة قال : « هذا خروج مُنابِذ لـــكم[1] » . فجلس على رَفْعٍ[2] من الأرض فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم ذكر أبا بكر وعمر أحســن ذكر ثم ذكر عثمان فى السنين الأوائل من خلافته ثم وَصَلهن بالسنين التى أنــكــروا ســيرته فيها فجعلها كالماضية ، وخبَّر أنه آوى الحَــكَم بن أبى العاص بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الحِمَى وما كان فيه من الصلاح ، وأن القـــوم استَعْتَبُوه من أمور وكان له أن يفعلها أوَّلا مصيبا ثم أعْتَبهم[3] بعدُ محسنا ، وأن أهــل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه بعد أن ضَمِن لهم العُتْــبَى ، ثم كُتِب لهم ذلك الــكتاب بقتلهم ، فدفعوا الــكتاب إليه . فحلف أنه لم يكتبه ! ولم يأمر به . وقــد أُمر بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته ، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومــكانه من الإمامة ، وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنمــا كانت بسببه . وعثمان الرجل الذى لزمته يمين لو حلف عليهــا لَحَلف على حق ، فافتداها بمئة ألف ولم يحلف . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : « مــن حلف بالله فَلْيَصْدُق ، ومن حُلِف لــه بالله فَلْيَرْضَ » . فعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه ، وأنا ولىّ وليه وعدو عدوه ، وأبى وصاحبه صاحبا رسول الله صلى الله

(1) المنابذ : المخالف المفارق عن عــداوة .

(2) الرفع : المرتفع .

(3) أعتبهم : أرضاهـــم .

عليه وسلم . ورسول الله يقول عن الله تعالى يوم أحد ، لما قُطعت إصبع طلحة : «سبقته إلى الجنة». وقال : «أَوْجَبَ طلحة [1] » . وكان الصِّديق إذا ذكر يوم أحد قال : «ذاك يوم كله أو جُلُّه لطلحة» . والزبير حَوارىّ رسول الله وصفوته . وقد ذكر أنهما فى الجنة . وقال عز وجل : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ . وما أخبرنا بعدُ أنه سخط عليهم . فإنْ يكن ما سَعَوا فيه حقا فأَهْلُ ذلك هم . وإنْ يكن زلة ففى عفو الله تمحيصها ، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم . ومهما ذكرتموهما به ، فقد بدأتم بأمكم عائشة رضى الله عنها . فإن أبى آب أن تكون له أما نبذ اسم الإيمان عنه . قال جل ذكره وقوله الحق : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا عنه .

وكان سبب وضع الحرب بين ابن الزبير وبين أهل الشام بعد أن كان حصين ابن نمير قد حصر ابن الزبير أنه أتاهم موت يزيد بن معاوية فتوادع الناس وكان أهل الشام ضَجِروا من المقام على الزبير وحَنِقت الخوارج فى قتالهم.

فتفرقت الخوارج على ابن الزبير لما تولى عثمان . فصارت طائفة إلى البصرة ، وصارت طائفة إلى اليمامة . وكان رجاء النميرى هو الذى كان جمعهم للمدافعة عن الحرم . فكان فيمن صار إلى البصرة نافع بن الأزرق الحنفى ، وبنو الماحوز السَّليطيون ، ورئيسهم حسان بن بَحْزج . فلما صاروا إلى البصرة نظروا فى أمورهم فأمَّروا عليهم نافعا . ويروى أن أبا الجَلْد اليشْكرى قال لنافع يوما : «يا نافع إن لجهنم سبعة أبواب ، وإن أشدها حرا الباب الذى أُعِد للخوارج .

---

(1) أوجب طلحة : وجبت له الجنة .

فإنْ قدرت أن لا تكون منهم فافعل» . فأجمع القوم على الخروج . فمضى بهم نافع إلى الأهواز فى سنة أربع وستين . فأقاموا بها لا يهيجون أحدا ويناظرهم الناس. وكان سبب خروجهم أنه لما مات يزيد ، بايع أهل البصرة عبيد الله بن زياد ، وكان فى السجن يومئذ أربعمئة رجل من الخوارج . وضعف أمر ابن زياد فكُلِّم فيهم فأطلقهم ، فأفسدوا البيعة عليه وفشوا فى الناس يدعون إلى محاربة السلطان ، ويُظهرون ما هم عليه حتى اضطرب على عبيد الله أمره . فتحول عن دار الإمارة إلى الأزد . ونشأت الحرب بسببه بين الأزد وربيعة وبين بنى تميم . فاعتزلهم الخوارج إلا نفرا منهم من بنى تميم معهم عَبْس بن طَلق الصَّريمى أخو كهمس ، فإنهم أعانوا قومهم .

فلما قتل مسعود بن عمرو المَعْنِىّ وتكافّ الناس ، أقام نافع بن الأزرق بموضعه بالأهواز ، ولم يعد إلى البصرة . وطردوا عُمَّال السلطان عنها ، وجبوا الفىء . ولم يزالوا على رأى واحد يتولّون أهل النهر ومرداسا ومن خرج معه ، حتى جاء مولى لبنى هاشم إلى نافع ، فقال له : «إن أطفال المشركين فى النار ، وإن من خالفنا مشرك ، فدماء هؤلاء الأطفال لنا حلال» . قال له نافع : «كفرتَ وأذْلَلْتَ بنفسك» . قال له : «إن لم آتك بهذا من كتاب الله فاقتلنى . ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا* إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾. فهذا أمر الكافرين وأمر أطفالهم» . فشهد نافع أنهم جميعا فى النار ورأى قتلهم وقال : «الدار دار كفر إلا من أظهر إيمانه ، ولا يحل أكل ذبائحهم ولا تناكُحهم ولا توارثهم . ومتى جاء منهم جاءٍ فعلينا أن نمتحنه . وهم ككفار العرب لا نقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقَعَد بمنزلتهم . والتقية لا تحل ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ

خَشْـيَةً ﴾». وقال عز وجل فيمن كان على خلافهم : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ .

فـتفر جماعة من الخوارج عنهم منهم نجدة بن عامر ، واحتج عليه بقوله عز وجل :﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ ، وبقوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ ، فالقَعَد منا والجهاد إذا أمـكن أفضل ، لقوله عز وجـل : ﴿ وَفَضَّـلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . ثم مضى نجدة بأصحابه إلى اليمامة ، وتفرقوا فى البلدان . فلما تتايع[1] نافع فى رأيه وخالف أصحابه وكان أبو طالوت سالم بن مطر بالخَضارم فى جماعة قد بايعوه ، فلما انخزل نجدة خلعوا أبا طـالوت ، وصـاروا إلى نجـدة فبايعوه . ولقى نجدة وأصحابه قوما من الخوارج بالعرمة. فقال لهم أصحاب نجدة «إن نافعا قد كفَّر القَعَد ، ورأى الاستعراض[2] وقتل الأطفال» . فانصرفوا مع نجدة .

وكـتب نافع إلى من بالبصرة من المُحَـكمة : «بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . والله إنـكم لَتعلمون أن الشريعة واحدة والدين واحد ، ففيمَ المُقام بين أظهر الـكفار، ترون الظلم ليلا ونهارا ، وقد نَدَبـكم الله إلى الجهاد، فقال : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَـا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ . ولم يجعل لـكم فى التخلف عذرا فى حال من الأحوال، فقـــال : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ . فلا تغتروا ولا تطمئنوا إلى الدنيا ، فإنها غرَّارة مكَّارة ، لذتها نافدة ، ونعمتها بائدة ، حُفت بالشهوات اغترارا ، وأظهرت حَبْرَة ،

---

(١) تتايع : أسـرع .

(٢) الاستعراض : القتـل دون سؤال .

وأضـــمرت عِبْرة . فليس آكلٌ منها أكلة تسره ، ولا شارب شربة تؤنقه ، إلا دَنا بها درجة إلى أجله ، وتباعد بها مسافة من أمله . وإنما جعلها الله دارا لمن تزود منها إلى النعيم المقيم والعيش السليم . فلن يرضى بها حازم دارا ولا حليم بها قـــرارا . ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

والسلام على من اتبع الهـــــدى» .

فـــورد كتابه عليهم ، وفى القوم يومئذ أبو بَيْهَس هَيْصَم بن جابر الضَبَعى ، وعـــبد الله بـــن إباض المُرِّى من بنى مرة بن عبيد فأقبل أبو بيهس على ابن إباض فقـــال: «إن نافعـــا غلا فـــكفر ، وإنك قَصَّرت فـــكفرت . تزعم أن من خالفنا ليـــس بمشرك ، وإنما هم كفار النِّعَم لتمسكهم بالــــكتاب وإقرارهم بالرسول . وتـــزعم أن مَناكحهم ومواريثهم والإقامة فيهم حِل طِلْق . وأنا أقول : إن أعداءنا كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم تحل لنا الإقامة فيهم كما فعل المسلمون فى إقامتهم بمكة ، وأحكام المشركين تجرى فيها . وأزعم أن مناكحهم ومواريثهم تجوز لأنهم منافقون يُظهرون الإسلام ، وأن حكمهم عند الله حـــكم المشركين » .

فصاروا فى هذا الوقت على ثلاثة أقاويل : قول نافع فى البراءة والاستعراض واستحلال الأمانة وقتل الأطفال ، وقول أبى بيهس الذى ذكرناه . وقول عبد الله ابن إباض وهو أقرب الأقاويل إلى السُّنة من أقاويل . وقالت الصُّفرية ألْيَنَ من هذا القـــول فى أمر القَعَد حتى صار عامتهم قعدا . وقال أبو بيهس : الدار دار كفر ، والاستعراض فيها جائز وإن أُصيب من الأطفال فلا حرج .

وتفــرقت الخوارج على الأضْرُب الأربعة التى ذكرنا . وأقام نافع بالأهواز يعترض الناس ويقتل الأطفال . فإذا أُجيب إلى المقالة جبى الخراج . وفشا عماله فى السواد [1] فارتاع لذلك أهل البصرة . فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس فشكوا ذلك إليــه ، قالوا : «ليس بيننا وبين العــدو إلا ليلتان ، وسيرهم ما ترى !». فقال الأحــنف : «إن فعلهم فى مِصْركم إن ظَفِروا به كِفعْلهم فى سَوادكم . فَجِدُّوا فى جهاد عدوكم» . فاجتمع إليه عشرة آلاف . فأتى عبد الله بن الحارث وهو بَبَّةُ ، فسأله أن يُؤمِّر عليهم . فاختار لهم ابن عُبَيس بن كُرَيز ، وكان ديِّنا شجاعا . فأمَّره عــليهم وشــيعه . فــلما نفذ من جسر البصرة ، أقبل على الناس فقال : «إنى ما خــرجت لا متيار ذهب ولا فضة ، وإنى لأحارب قوما إنْ ظفرتُ بهم فما وراءهم إلا ســيوفهم ورمــاحهم . فمن كان شأنه الجهاد فلينهض ، ومن أحب الحيـــاة فليرجع» . فرجع نفر يسير ومضى الباقون معه .فلما صاروا بدُولاب خرج إليهم نــافع فاقتتلوا قتالا شديدا حتى تــكسرتّ الرماح وعُقِرت الخيل وكثرت الجراح والقــتل . وتضــاربوا بالســيوف والعَمَد ، فقُتل فى المعركة ابن عبيس ونافع بن الأزرق. وكان ابن عبيس تقدم إلى أصحابه فقال : «إن أصبت فأميركم الربيع بن عمرو الأجذم الغُدانى» . فلما أصيب ابن عبيس أخذ الربيع الراية . وكان نافع قد اســتخلف عــبيد الله بن بَشير بن الماحُوز السَّليطى . فــكان الرئيسان من بنى يَرْبوع : رئيس المسلمين من بنى غُدانة بن يربوع ، ورئيس الخوارج من بنى سَليط ابن يربوع . فاقتتلوا قتالا شديدا .

فلم يزل الربيع يقاتلهم نَيِّفا وعشرين يوما ، حتى قال يوما : «أنا مقتول لا محالــة». قالوا : «وكيف ؟» قال : «لأنى رأيت البارحة كأنّ يدى التى أصيبت

---

[1] الســـواد : الريفُ .

بكـــابُل المحطـــت من السماء فاسْتَشْلَتْنى [1] » . فلما كان الغد قاتل إلى الليل . ثم غاداهم فقُتل . فتدافع أهلُ البصرة الرايةَ حتى خافوا العطب [2]، إذ لم يـــكن لهم رئيـــس . ثم أجمعوا على الحَجّاج بن باب الحِمْيَرى فأباها . فقيل له : «ألا ترى أن رؤســاء العـــرب بالحضـــرة ، وقد اختاروك من بينهم ؟» . فقال : «مشئومةٌ ما يأخذها أحد إلا قُتل !» ثم أخذها فلم يزل يقاتل الخوارج بدولاب ، والخوارجُ أعدُّ بـــالآلات والدروع والجواشن [3] . فالتقى الحجاج بن باب وعمران بن الحارث الراسى ، وذلك بعد أن اقتتلوا زهاء شهر . فاختلفا ضربتين فسقطا ميتين .

والأزارقة لا تـــكفّر أحدا من أهل مقالتها فى دار الهجـــرة إلا القاتل رجلا مسلما فإنهم يقولون : «المسلم حُجة الله والقاتل قَصدَ لقطع الحجة» . ويروى أن نافعا مر بمالك بن مِسْمَع فى الحرب التى كانت بين الأزد وربيعة وبنى تميم ، ونافع متقـــلد سيفا . فقام إليه مالك فضرب بيده إلى حَمالة سيفه وقال : «ألا تنصرنا فى حربـــنا هــــذه ؟» . فقـــال : «لا يحـــل لى» . قال : «فما بال مؤمنى بنى تميم ينصرون كفارهم فى هذه الحرب ؟ !» . فأمسك عنه . وخرج بعد ذلك بأيام إلى الأهواز .

فلما قُتل من قُتِل ممن بحازر من الخوارج فى أيام ابن الماحوز ، كره ببة القتال. وأقام حارثة بن بدر الغُدانى بإزاء الخوارج يُناوشهم على غير ولاية ، وكان يقول : «مـــا عذرنا عند إخواننا من أهل البصرة إن وصل إليهم الخوارج ونحن دونهم » .

---

(1) استشلتنى : استنقذته .

(2) العطب : الهـــلاك والفســـاد .

(3) الجواشن : الدروع .

فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير يخبّرونه بقعود ببة ويسألونه أن يولى واليا . فكتب إلى أنس بن مالك أن يصلى بالناس ، فصلى بهم أربعين يوما . وكتب إلى عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر فولاه البصرة . فلقيه الكتاب ، وهو يريد الحج وهو فى بعض الطريق ، فرجع . فأقام بالبصرة . وولى أخاه عثمان محاربة الأزارقة فخرج إليهم فى اثنى عشر ألفا . ولقيه حارثة فيمن كان معه ، وعبيد الله بن الماحوز فى الخوارج بسوق الأهواز . فلما عَبرَوا إليهم دُجَيلا نهض إليهم الخوارج ، وذلك قبيل الظهر . فقال عثمان بن عبيد الله لحارثة بن بدر : «أمَا الخوارج إلا ما أرى ؟ ! » . فقال له حارثة : «حَسْبُك بهؤلاء» . فقال : «لا جَرَم والله لا أتغدى حتى أناجزهم» . فقال له حارثة : «إن هؤلاء لا يُقاتَلون بالتعسف ، فأبقِ على نفسك وجندك» . فقال : «أبيتم أهل العراق إلا جبنا ! وأنت يا حارثة ما علمك بالحرب ؟ أنت والله بغير هذا أعلم » . يُعرّض له بالشّراب. فغضب حارثة فاعتزل . وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس . فأجْلت الحرب عنه قتيلا وانهزم الناس وأخذ حارثة الراية وصاح بالناس : «أنا حارثة بن بدر» . فثاب[1] إليه قوم فعبر بهم دُجيلا . وبلغ فَلّ[2] عثمان البصرة وخاف الناس الخوارج خوفا شديدا . وعزل ابن الزبير عمر بن عبيد وولى الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المعروف بالقُباع أحد بنى مخزوم . فقدم البصرة فكتب إليه حارثة بن بدر يسأله الولاية والمدد . فأراد أن يوليه فقال له رجل من بكر بن وائل : «إن حارثة ليس بذلك إنما هو صاحب شراب» . فكتب إليه القباع : «تُكفَى حربهم إن شاء الله» فاقام حارثة يدافعهم .

---

(١) ثاب : رجع .

(٢) فل الجيش : ما بقى وتشرد منه بعد انهزامه .

ثم إن حارثة لما تفرق الناس عنه أقام بنهر تِيرَى . فعبرت إليه الخوارج فهرب وأصحابه يركض حتى أتى دجيلا . فجلس فى سفينة واتبعه جماعة من أصحابه فكانوا معه . وأتاه رجل من بنى تميم وعليه سلاحه والخوارج وراءه ، وقد توسط حارثة . فصاح به : « يا حارث ليس مثلى ضُيع » . فقال للملاح : « قَرِّب » . فقرب إلى جُرُف ولا فُرضة [1] هناك . فطفَر بسلاحه فى السفينة فساخت بالقوم جميعا .

وأقام ابن الماحوز يجبى كُوَر [2] الأهواز ثلاثة أشهر . ثم وجه الزبير بن على نحو البصرة فضج الناس إلى الأحنف . فأتى القباع فقال : « أصلح الله الأمير ، إن هذا العدو قد غلبنا على سَوادنا وفيئنا فلم يبق إلا أن يحصرنا فى بلدنا حتى نموت هَزْلا » . قال : « فسموا رجلا » . فقال الأحنف : « الرأى لا يخيل [3] ، ما أرى لها إلا المهَلَّب بن أبى صُفْرَة » . فقال : « أوَ هذا رأى جميع أهل البصرة ؟ اجتمعوا إلى فى غد » . وجاء الزبير حتى نزل الفرات وعقد الجسر ليعبر إلى ناحية البصرة . فخرج أكثر أهل البصرة إليه ، وقد اجتمع للخوارج أهل الأهواز وكُورها رغبة ورهبة . فأتاه البصريون فى السفن وعلى الدواب ورِجَّالة [4]. فاسودت بهم الأرض. فقال الزبير لما رآهم: « أبى قومُنا إلا كفرا » .فقطعوا الجسر. وأقام الخوارج بالفرات بإزائهم . واجتمع الناس عند القباع وخافوا الخوارج خوفا شديدا . وكانوا ثلاثة فرق : فسمى قوم المهلب ، وسمى قوم مالك بن مِسْمَع،

---

(١) الفرضة : المرسى .
(٢) الكورة : المدينة .
(٣) يخيل : يشكل ويغمض .
(٤) الرجالة : المشاة .

وسمى قوم زياد بن عمرو بن الأشرف العَتَكى ، فصرفهم . ثم اختبر ما عند مالك وزياد فوجدهما متثاقلين عن ذاك . وعاد إليه من أشار بهما ، وقالوا : «قد رجعنا عن رأينا . ما نرى لها إلا المهلب» . فوجه الحارث إليه . فأتاه فقال له : «يا أبا سعيد ، قد ترى ما رَهِقنا من هذا العدو وقد اجتمع أهل مِصْرك عليك» . وقال الأحنف : «يا أبا سعيد ، إنا والله ما آثرناك بها ولكنا لم نر من يقوم مقامك» . فقال له الحارث ، وأومأ إلى الأحنف : «إن هذا الشيخ لم يسمِّك إلا إيثارا للدين . وكل من فى مصرك مادٌّ عينه إليك راجٍ أن يكشف الله عز وجل هذه الغمة بك» . فقال المهلب : «لا حول ولا قوة إلا بالله ، إنى عند نفسى لدون ما وصفتم ، ولست آبِيا ما دعوتم إليه ، على شروط أشترطها» . قال الأحنف : «قُل» . قال : «على أن أنتخب من أحببت» . قال : «ذاك لك» . قال : «ولى إمرة كل بلد أغلب عليه» . قال : «وذاك لك» . قال : «ولى فَىْء كل بلد أظفر به» . قال الأحنف : «ليس ذاك لك ولا لنا ، إنما هو فىء المسلمين ، فإنْ سلبتَهم إياه كنت عليهم كعدوهمَ . ولكن لك أن تعطى أصحابك من فىء كل بلد تغلب عليه ما شئت، وتنفق على محاربة عدوك . فما فضل عنك كان للمسلمين» . قال المهلب : «فمن لى بذلك ؟» . قال الأحنف : «نحن وأميرك وجماعة أهل مِصْرك» . قال : «قد قبلت». فكتبوا بذلك كتابا ، ووُضِع على يدى الصَّلْت بن حُرَيث بن جابر الحنفى .

وانتخب المهلب من جميع الأخماس ، فبلغت نُخبَته اثنى عشر ألفا . ونظروا ما فى بيت المال فلم يكن إلا مئتى ألف درهم فعجزتْ . فبعث المهلب إلى التجار : إن تجارتكم مذ حول قد كسَدت عليكم بانقطاع مواد الأهواز وفارس عنكم ، فهَلُمَّ فبايعونى واخرجوا معى أوفِّكم إن شاء الله حقوقكم . فتاجروه

فأخذ من المال ما يصلح به عسكره ، واتخذ لأصحابه الخَفاتين والرانات المحشوة بالصوف . ثم نهض وأكثر أصحابه رجالة حتى إذا صار بحِذاء القوم ، أمر بسفن فأحضرت وأصلحت . فما ارتفع النهار حتى فرغ منها . ثم أمر الناس بالعبور إلى الفرات ، وأمَّر عليهم ابنه المغيرة . فخرج الناس . فلما قاربوا الشاطىء خاضت إليهم الخوارج . فحاربهم المغيرة ونضَحهم بالسهام حتى تنحوا . فصار هو وأصحابه على الشاطىء . فحاربوهم فكشفوهم وشغلوهم حتى عقد المهلب الجسر وعبر، والخوارج منهزمون ، فنهى الناس عن اتباعهم .

فأقام المهلب أربعين يوما يجبى الخراج بكُور دجلة ، والخوارج بنهرِ تيرى، والزبير بن على منفرد بعسكره عن عسكر ابن الماحوز . فقضى المهلب التجار وأعطى أصحابه . فأسرع إليه الناس رغبة فى مجاهدة الخوارج ولما فى الغنائم وللتجارات . فكان فيمن أتاه محمد بن واسع الأزدى ، وعبد الله بن رياح ، ومعاوية بن قرة المُزَنى ، وكان يقول – يعنى معاوية – : «لو جاء الدَّيلم من هاهنا ، والحرورية من هاهنا ، لحاربتُ الحرورية» . وأبو عمران الجَوْنى ، وكان يقول : كان كعب يقول : «قتيل الحرورية يفضُل قتيل غيرهم بعشرة أنوار» .

ثم نهض المهلب إليهم على نهر تِيرَى ، فتنحَّوا عنه إلى الأهواز . وأقام المهلب يجبى ما حواليه من الكور ، وقد دس الجواسيس إلى عسكر الخوارج ، فأتوه بأخبارهم ومن فى عسكرهم ، فإذا حُشْوةٌ ما بين قَصَّار وَصَبّاغ وداعر وحداد [1] . فخطب المهلب الناس فذكر من هناك ، وقال للناس : «أمثلُ هؤلاء يغلبونكم على فَيئكم ؟» . فلم يزل مقيما حتى فهمهم ، وأحكم أمره ، وقَوَّى

---

[1] الحشوة : أَرذل القوم . والقصار : الصباغ .

أصحابه ، وكثرت الفرسان فى عسكره ، وتتامَّ إليه زُهاء عشرين ألفا . ثم مضى يَـؤم [(١)] سوق الأهواز . فاستخلف أخاه المُعارك بن أبى صفرة على نهر تِيرَى ، وفى مقدمته المغيرة بن المهلب ، حتى قارَبَهم المغيرة فناوشوه فانكشف عنه بعض أصحابه، وثبت المغيرة بقية يومه وليلته يوقد النيران ، ثم غاداهم القتال فإذا القوم أوقدوا النيران فى ثِقْلَة متاعهم ، وارتحلوا عن سوق الأهواز . فدخلها المغيرة وقد جاءت أوائل خيل المهلب ، فأقام بسوق الأهواز .

وكان المهلب يبث الأحراس [(٢)] فى الأمن كما يبثهم فى الخوف ، ويُذْكى العُيون [(٣)] فى الأمصار كما يُذكيها فى الصحارى ، ويأمر أصحابه بالتحرز ، ويخوفهم البيات وإنْ بَعُد منهم العدو ، ويقول : «احذروا أن تُكادُوا كما تكيدون ، ولا تقولوا هَزمْنا وغلبنا فإن القوم خائفون وجِلون، والضرورة تفتح باب الحيلة» .

ثم سار يريدهم وهم بمَناذر الصغرى . فوجه عبيد الله بن بشير بن الماحوز رئيس الخوارج رجلا يقال له واقد مولى لآل أبي صفرة من سَبْى الجاهلية فى خمسين رجلا فيهم صالح بن مِخْراق إلى نهر تيرى ، وبها المعارك بن أبي صفرة فقتلوه وصلبوه . فنمى [(٤)] الخبر إلى المهلب . فوجه ابنه المغيرة فدخل نهر تيرى وقد خرج واقد منها . فاستنزله ودفنه ، وسكن الناس ، واستخلف بها . ورجع إلى أبيه وقد حل بسولاف والخوارج بها ، فواقعهم . وجعل على بنى تميم الحريش بن هلال. فخرج رجل من أصحاب المهلب يقال له عبد الرحمن الإسكاف فجعل

---

(١) يؤم : يقصد .

(٢) الأحراس : الحرس .

(٣) يذكى : يرسل . والعيون : الجواسيس .

(٤) نمى الخبر : وصل .

الناس ويهوّن أمر الخوارج ، ويختال بين الصفين . فقال رجل من الخوارج لأصحابه : «يا معشر المهاجرين ، هل لكم فى فتكة فيها أرْيحيّة» فحمل جماعة منهم على الإسكاف فقاتلهم وحده فارسا ثم كبا به فرسه فقاتلهم راجلا قائما وباركا ثم كثرت به الجراحات فذّبب [1] بسيفه وجعل يحثو التراب فى وجوهم ، والمهلب غير حاضر ، ثم قتل رحمه الله . وحضر المهلب فأُخبر فقال للحريش وعطية العَنْبرى : «أأسلتما سيد أهل العسكر ؟ لم تعيناه ولم تستنقذاه حسدا له لأنه رجل من الموالى». ووبخهما . وحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحابه فقتله ، فحمل عليه المهلب فطعنه وقتله .

ومال الخوارج بأجمعهم على العسكر فانهزم الناس وقتلوا سبعين رجلا . وثبت المهلب ، وأبلى المغيرة يومئذ ، وعُرف مكانه . ويقال : حاص المهلب يومئذ حَيْصة ، وتقول الأزد : بل كان يرد المنهزمة ويحمى أدبارهم . فبات المهلب فى ألفين . فلما أصبح رجع بعض المنهزمة فصار فى أربعة آلاف فخطب أصحابه ، فقال : «والله ما بكم من قلة وما ذهب عنكم إلا أهل الجبن والضعف والطمع والطّبَع [2] ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾ فسيروا إلى عدوكم على بركة الله » . فقام إليه الحريش بن هلال فقال : «أنشُدك الله أيها الأمير أن تقاتلهم إلا أن يقاتلوك ، فإن بالقوم جِراحا وقد أثْخَنْتهم هذه الجولة» . فقبل منه . ومضى المهلب فى عشرة ، فأشرف على عسكر الخوارج فلم ير منهم أحدا يتحرك فقال له الحريش : «ارتحل عن هذا الموضع». فارتحل فعبر دجيلا وصار إلى عاقول لا يؤْتى إلا من وجهٍ واحد . فأقام به واستراح الناس ثلاثا .

---

(١) ذبب : دافع .

(٢) الطبع : الحرص الشديد .

فأقام المهلب فى ذلك العاقول ثلاثة أيام . ثم ارتحل والخوارج بِسلّى وسِلّيْرى فنزل قريبا منهم . فقال ابن الماحوز لأصحابه : «ماتنتظرون بعدوكم وقد هزمتموهم بالأمس وكسرتم حدهم ؟» . فقال له واقد مولى أبى صفرة : «يا أمير المؤمنين ، إنما تفرق عنهم أهل الضعف والجبن وبقى أهل النجدة والقوة ، فإن أصبتهم لم يكن ظَفَرا هينا لأنى أراهم لا يُصابون حتى يصيبوا . فإنْ غَلَبوا ذهب الدين» . فقال أصحابه . «نافق واقد» . فقال ابن الماحوز : «لا تعجلوا على أخيكم ، فإنه إنما قال هذا نظرا لكم». ثم توجه الزبير بن على إلى عسكر المهلب لينظر ما حالهم . فأتاهم فى مئتين فحزرهم ورجع وأمر المهلب أصحابه بالتحارس حتى إذا أصبح ركب إليهم على تعبئة صحيحة . فالتقوا بسلى وسليرى فتصافُّوا . فخرج من الخوارج مئة فارس فركَزوا رماحهم بين الصفين واتكئوا عليها . وأخرج إليهم المهلب عِداذَهم ففعلوا مثل ما فعلوا لا يرِيمون [1] إلا لصلاة ، حتى أمسوا . فرجع كل قوم إلى معسكرهم . ففعلوا هذا ثلاثة أيام . ثم إن الخوارج تطاردوا لهم فى اليوم الثالث فحمل عليهم هؤلاءِ الفرسان يجولون ساعة ، ثم إن رجلا من الخوارج حمل على رجل فطعنه . فحمل عليه المهلب فطعنه . فحمل الخوارج بأجمعهم كما صنعوا يوم سُولاف . فضعضعوا الناس ، وفُقِد المهلب وثبت المغيرة فى جمع أكثرُهم أهل عمان . ثم نَجَم [2] المهلب فى مئة فارس ، وقد انغمست كفاه فى الدم ، وعلى رأسه قلنسوة مربعة فوق المِغْفَرة محشوة قَزا [3] ، وقد تمزقت وإنّ حشوها لَيتطاير ، وهو يلهث ، وذلك فى وقت الظهيرة . فلم يزل يحاربهم إلى الليل حتى كثر القتلى فى الفريقين .

---

(١) يريمون : يتحركون .

(٢) نجم : ظهر .

(٣) المغفر : زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة . والقز : الحرير .

فلما كان الغد غاداهم وقد تفرق أكثر الناس فغاداهم المهلب فى ثلاثة آلاف، وقال لأصحابه : «ما بكم من قلة ، أيعجز أحدكم أن يرمى برمحه ثم يتقدم فيأخذه ؟» . ففعل ذلك رجل من كندة يقال له عياش . وقال المهلب لأصحابه : «أعِدُّوا مَخالِى فيها حجارة ، وارموا بها فى وقت الغفلة فإنها تصد الفارس وتصرع الراجل» . ففعلوا ثم أمر مناديا ينادى فى أصحابه يأمرهم بالجد والصبر ويطمعهم فى العدو . ثم حمل المهلب وحملوا فاقتتلوا قتالا شديدا . فجُهِد الخوارج فنادى مناديهم: «ألا إن المهلب قد قُتِل» . فركب المهلب بِرْذَوْنا [1] قصيرا أشهب ، وأقبل يركضُ بين الصفين ، وإن إحدى يديه لَفِي القَباء وما يشعر بها وهو يصيح : «أنا المهلب» . فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنوا أن أميرهم قد قُتِل وكَلَّ الناس مع العصر . فصاح المهلب بابنه المغيرة : «تقدم» ففعل وصاح بذَكْوان مولاه: «قدم رايتك». ففعل فقال له رجل من ولده: «إنك تُغرِّر بنفسك» فذَمَره [2] ثم صاح : «يابنى تميم ، آمركم فتعصونى !» فتقدم وتقدم الناس ، واجتلدوا أشد جلاد حتى إذا كان مع المساء قُتِل ابن الماجوز ، وانصرف الخوارج ولم يشعر المهلب بقتله ، فقال لأصحابه : «ابغونى رجلا جَلدْا يطوف فى القتلى» فأشاروا عليه برجل من جَرْم ، وقالوا : «إنا لم نر رجلا قط أشد منه» فطَوَّف ومعه النيران ، فجعل إذا مر بجريح من الخوارج ، قال : «كافر ورب الكعبة» فأجهز عليه ، وإذا مر بجريح من المسلمين أمر بسقيه وحمله . وأقام المهلب فى عسكره يأمرهم بالاحتراس حتى إذا كان نصف الليل وجَّه رجلا من اليَحْمَد فى عشرة فصاروا إلى عسكر الخوارج ، فإذا القوم قد تحملوا إلى أرَّجان فرجع إلى

---

[1] البرذون : الفرس غير العربية .

[2] ذمره : حضه.

المهلب فأعلمه فقال لـــه : «أنا لهـــم الساعة أشد خوفا فاحذروا البيات» . فلما أصبح المهلب غدا على القتلى فأصاب ابن الماحوز فيهم .

وقـــال رجـــل من موالى المهلب : «لقد صرعتُ يومئذ بحجر واحد ثلاثة : رميت به رجلا فأصبت أصل أذنه فصرعته ، ثم أخذت الحجر فضربت به آخر على هامته فصرعته ، ثم صرعت به ثالثا».

واجـــتمعت الخـــوارج بأرَّجان فبايعوا الزبير بن على وهو من بنى سَليط بن يربوع من رهط ابن الماحوز ، فرأى فيهم انـــكسارا شديدا وضعفا ثم تحمل لمحاربة المهـــلب فَنفَحهم المهلب نفحة فرجعوا . فأكْمَن للمهلب فى غَمْضٍ [1] من غموض الأرض يقرب من عسكره مئة فارس ليغتالوه . فسار المهلب يوما يطوف بعسكره ويـــتفقد ســـواده . فوقـــف عـــلى جبل فقال : «إن من التدبير لهـــذه المارقة أن تـــكون قـــد أكمنت فى سفح هذا الجبل كمينا». فبعث عشرة فوارس فاطلعوا عـــلى المئة فلما علموا أنهم قد علموا بهم قطعوا القنطرة ونجوا. وكَسفت الشمس فصاحوا بهم : «يا أعداء الله لو قامت القيامة لجَدَدْنا فى جهادكم» ثم يئس الزبير مـــن ناحية المهلب فضرب إلى ناحية أصبهان . ثم كر راجعا إلى أرجان ، وقد جمع جموعـــا . وكان المهلب يقول : «كأنى بالزبير وقد جمع جموعا فلا ترهبوهم فتخبُث قـــلوبكم ، ولا تغفـــلوا الاحتراس فيطمعوا فيـــكم» فجاؤوه من أرجان فألفوه مستعدا آخذا بأفواه الطرق فحاربوه فظهر عليهم ظهورا بينا . وحمل يومئذ الحريش ابـــن هـــلال على قيس الإكاف وكان قيس من أنْجَد فرسان الخوارج فطعنه فدق صُلبه .

---

(1) الغمض : المطمئن المنخفض من الأرض .

وقد كان فَلُّ المهلب يوم سِلّى وسِلِيْرَى صاروا إلى البصرة ، فذكروا أن المهلب أصيب فَهمَّ أهل البصرة بالنُّقْلة إلى البادية حتى ورد كتابه بظفره فأقام الناس وتراجع من كان ذهب منهم . فعند ذلك يقول الأحنف بن قيس : « البصرة بصرة المهلب » .

وقدم رجل من كندة يقال له فلان ابن أرقم ، فنعى ابن عم له وقال : « رأيت رجلا من الخوارج وقد مكن رمحه من صلبه » فقدم المَنْعِيُّ فقيل له ذلك فقال : « صدق ابن أرقم لما أحسست برمحه بين كتفي صحت : البقية » فرفعه عني وتلا : « بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين » .

ووجَّه المهلب بعَقِب هذه الوقعة رجلا من الأزد برأس عبيد الله بن بشير بن الماحوز إلى الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القُبَاع . فلما صار بِكُرْبُج دينار لقيه حبيب وعبد الملك وعلي بنو بشير بن الماحوز فقالوا له : « ما الخبر ؟ » ولا يعرفهم فقال : « قتل الله المارق ابن الماحوز ، وهذا رأسه معي » فوثبوا عليه فقتلوه وصلبوه ودفنوا الرأس . فلما ولي الحجاج دخل عليه علي بن بشير ، وكان وسيما جسيما ، فقال : « من هذا ؟ » فخُبِّر فقتله ووهب ابنه الأزهر وابنته لأهل الأزدي المقتول. وكانت زينب بنت بشير لهم مواصلة فوهبوهما لها .

فلم يزل المهلب يقاتل الخوارج في ولاية الحارث القباع حتى عُزِل الحارث . وولي مصعب بن الزبير ، فكتب إليه : أن اقدم عليّ واستخلف ابنك المغيرة . ففعل . فجمع الناس فقال لهم : « إني قد استخلفت عليكم المغيرة ، وهو أبو صغيركم رقةً ورحمةً ، وابن كبيركم طاعة وبِرا وتبجيلا ، وأخو مثله مواساةً ومناصحة . فلتحسُن له طاعتكم ، ولْيلِنْ له جانبكم . فوالله ما أردت صوابا

قــط إلا ســبقنى إليه » . ثم مضى إلى مصعب وكتب مصعب إلى المغيرة بولايته . وكــتب إليه : « إنك لم تــكن كأبيك ، فإنك كافٍ لما وليتُك فشمر واتَّزِر وجد واجتهد » .

ثم شــخص المصعب إلى المَذار . فقتل أحمر بن شُميط ثم أتى الــكوفة فقتل المخــتار بن أبي عُبَيد . وقال للمهلب : « أشِــرْ علىّ برجــل أجعله بينى وبين عــبد المــلك » . فقال : « أذكر لك واحدا من ثلاثة : محمد بن عمير بن عُطارد الدارمى أو زياد بن عمرو بن الأشرف العَتَــكى أو داود بن قَحْذم » . فقــال : « أو تــكفينى » . قال : « أكفيك إن شاء الله » . فولاه الموصل فشخص المهلب إليها وصار مصعب إلى البصرة . فسأل من يستكفى أمر الخوارج وَيفِد إلى أخيه . فشــاور الناس ، فقال قوم : « ولِّ عبيد الله بن أبى بكرة » وقال قوم : « ولِّ عمر ابــن عــبيد الله بن مَعمَرَ » . وقال قوم : « ليس لهم إلا المهلب فاردده إليهم » . فولى عليهم عمر بن عبيد الله ، وولاه فارس ، والخوارج بأَرَّجان وعليهم الزبير بن عــلى السليطى . فشخص إليهم فقاتلهم وألح عليهم حتى أخرجهم عنها فألحقهم بأصبهان . فلما بلغ المهلب أن مصعبا ولى عمر بن عبيد الله قال : « رماهم بفارس العــرب وفتاها » . فجمعوا له وأعدوا واستعدوا . ثم أتوا سابور فسار إليهم حتى نزل منهم على أربعة فراسخ ، فقال له مالك بن حسان الأزدى : « إن المهلب كان يُذكــى العيون ، ويخاف البيات ، ويرتقب الغفلة ، وهو على أبعد من هذه المسافة منهم » . فقال له عمر : « اسكت ، خلع الله قلبك ! أرَاك تموت قبل أجلك ؟ » فأقــام هناك . فلما كان ذات ليلة بَيَّته الخوارج فخرج إليهم فحاربهم حتى أصبح فلم يُظفر منه بشيء. فأقبل على مالك بن حسان فقال : « كيف رأيت ؟ » . قال : « قــد ســلم الله عز وجل ولم يكونوا يطمعون من المهلب بمثلها » . فقال : « أمَا

إنكم لو ناصحتموني مناصحَتكم المهلب لَرَجَوْتُ أن أنفي هذا العدو ، ولكنكم تقولون : قُرشي حجازي بعيد الدار خَيْرُه لغيرنا ، فتقاتلون معي تعذيرا » .

ثم زحف إلى الخوارج من غد ذلك اليوم فقاتلهم قتالا شديدا حتى ألجأهم إلى قنطرة فتكاثف الناس عليها حتى سقطت . فأقام حتى أصلحها ثم عبروا . وتقدم ابنه عبيد الله بن عمر فقاتلهم حتى قُتل . فقال قَطَرى : « لا تقاتلوا عمر اليوم فإنه موتور ». ولم يعلم عمر بقتل ابنه حتى أفضى إلى القوم ، وكان مع ابنه النعمان بن عباد . فصاح به : « يا نعمان ، أين ابني ؟ » . فقال : « احتَسِبهُ [1]، فقد استشهد رحمه الله صابرا مُقبلا غير مدبر ». فقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون ». ثم حمل على الناس حملة لم يُر مثلها . وحمل أصحابه بحملته فقتلوا في وجههم ذلك تسعين رجلا من الخوارج ، وحمل على قَطرىّ فضربه على جبينه فَفَلَقه . وانهزت الخوارج وانتهبها. فلما استقروا قال لهم قطرى : « أمَا أشرت عليكم بالانصراف » . وعادوا إلى ناحية أرّجان .

فسار إليهم عمر ومعه عطية بن عمرو ، ومُجّاعة بن سعيد . فالتقوا فألح عليهم حتى أخرجهم . وانفرد من أصحابه فعمد له أربعة عشر رجلا منهم من مذكُوريهم وشجعائهم ، وفي يده عمود . فجعل لا يضرب رجلا منهم ضربة إلا صرعه . فركض إليه قطرى على فرسٍ طِمِر[2] ، وعمر على مُهْر . فاستعلاه قطرى بقوة فرسه حتى كاد يصرعه . فبَصُر به مجاعة فأسرع إليه . فصاحت

---

(1) احتسبه : اصبر على مصيبتك فيه ليكون لك الأجر من الله .

(2) الطمر : الفرس الجواد الطويل القوائم .

الخوارج بقطرى : «يا أبا نعامة ، إن عدو الله قدرَ هقك [١] » . فالحط قطرى عن قَرَبوسه [٢] فطعنه مجاعة ، وعلى قطرى درعان ، فهتكهما ، وأسرع السِّنان فى رأس قطرى فكشط عنه جلده ونجا . وارتحل القوم إلى أصفهان فأقاموا برهة ثم رجعوا إلى الأهواز ، وقد ارتحل عمر بن عبيد الله إلى إَصْطَخْر .

وعُزل مصعب بن الزبير ووُلّى حمزة بن عبد الله بن الزبير . فوجه المهلب إليهم . فحاربهم فأخرجهم عن الأهواز . ثم رُدَّ مصعب ، والمهلب بالبصرة ، والخوارج بأطراف أصبهان ، والوالى عليها عَتّاب بن وَرْقاء الرِّياحى . فأقام الخوارج هناك شيئا يجبون القرى . ثم أقبلوا إلى الأهواز من ناحية فارس فكتب مصعب إلى عمر بن عبيد الله : «ما أنصفتنا أقمت بفارس تجبى الخراج، ومثل هذا العدو يحاربك . واللهِ لو قاتلت ثم هربت لكان أعذر لك» . وخرج مصعب من البصرة يريدهم ، وأقبل عمر بن عبيد الله يريدهم . فتنحى الخوارج إلى السُّوس ثم أتوا المدائن فقتلوا أحمر طيىء وكان شجاعا ، وكان من فرسان عبيد الله بن الحر .

ثم خرجوا عامدين إلى الكوفة . فلما خالطوا سوادها ، وواليها الحارث بن عبد الله القباع ، فتثاقل عن الخروج ، وكان جبانا ، ذَمره [٣] إبراهيم بن الأشتر، ولامه الناس . فخرج متحاملا حتى أتى النخيلة . وجعل يَعِد الناس بالخروج ولا يخرج ، والخوارج يَعِيثون حتى أخذوا امرأة فقتلوا أباها بين يديها ، وكانت جميلة . ثم أرادوا قتلها ، فقالت : «أتقتلون من يُنَشَّأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ؟»

---

(١) رهقك : أدركك .

(٢) قربوس السرج : الجزء المقوس المرتفع من مقدم المقعد ومؤخره .

(٣) ذمره : حضه .

فقال قائل منهم : «دعُوها» . فقالوا : «قد فتنتْك» ثم قدموها فقتلوها . ثم قربوا أخرى ، وهم بحِذاء القُباع ، والجسر معقود بينهما. فقطعه القباع ، وهو فى ستة آلاف ، والمرأة تستغيث به ، وتقول : «عَلامَ تقتلوننى ، فوالله ما فسقت ولا كفرت ولا ارتددت» ، والناس يتفلتون إلى الخوارج ، والقباع يمنعهم . فلما خاف أن يعصوه أمر عند ذلك بقطع الجسر . فأقام بين دَباها ودَبِيرَى خمسة أيام والخوارج بقربه ، وهو يقول للناس فى كل يوم : «إذا لقيتم العدو غدا فاثبتوا أقدامكم واصبروا ، فإن أول الحرب الترامى ثم إشراع الرماح ثم السلة ، فثكلت رجلا أمه فر من الزحف» . فقال بعضهم لما أكثر عليهم : «أما الصفة فقد سمعناها فمتى يقع الفعل ؟» . فأخذ الخوارج حاجتهم . وكان شأن القباع التحصن منهم . ثم انصرفوا ورجع إلى الكوفة ، وصاروا من فورهم إلى أصبهان .

وأقام الخوارج يُغادوُن عَتّاب بن ورقاء القتال ويراوحونه حتى طال عليهم المقام ولم يظفروا منه بكبير . فلما كثر ذلك عليهم انصرفوا لا يمرون بقرية بين أصفهان والأهواز إلا استباحوها وقتلوا من فيها . وشاور المصعب الناس فأجمع رأيهم على المهلب . وعزم المصعب على توجيه المهلب ، وأن يشخص هو لحرب عبد الملك . فلما أحس به الزبير بن على ، خرج إلى الرى ، وبها يزيد بن الحارث ابن رُؤَيْم فحاربه ثم حصره . فلما طال عليه الحصار خرج إليه فكان الظفر للخوارج . فقُتل يزيد بن رؤيم ، ونادى يومئذ ابنه حَوْشَبا ، ففر عنه وعن أمه لطيفة .

ثم الحط الزبير بن على على أصفهان فحصر بها عتاب بن ورقاء الرياحى سبعة أشهر ، وعتاب يحاربه فى بعضهن . فلما طال به الحصار قال لأصحابه : «ما تنظرون والله ما تُؤْتَوْن من قلة وإنكم لفرسان عشائركم ، ولقد حاربتموهم

مــرارا فانتصــفتم منهم . وما بقى مع هذا الحصار إلا أن تفنى ذخائركم فيموت أحدكــم فيدفنه أخوه ثم يموت أخوه فلا يجد من يدفنه . فقاتلوا وبكم قوة من قبل أن يضعف أحدكم عن أن يمشى إلى قرنه» . فلما أصبح الغد صلى بهم الصبح ثم خــرج إلى الخــوارج وهم غارّون [1] ، وقد نصب لواء لجارية له يقال لها ياسمين ، فقال : «من أراد البقاء فليلحق بلواء ياسمين ، ومن أراد الجهاد فليخرج معى» . فخــرج فى ألفين وسبعمئة فارس فلم يشعر بهم الخوارج حتى غشوهم . فقاتلوهم بجد لم ير الخوارج منهم مثله فعقروا منهم خَلْقا ، وقتلوا الزبير بن على ، وانهزمت الخوارج فلم يتبعهم عتاب .

ثم إن الخوارج أداروا أمرهم بينهم فأرادوا تولية عُبَيدة بن هــلال . فقال : «أدلــكم على من هو خير لــكم منى . من يطاعن فى قُبُل[2]، ويحمى فى دُبُر[3] ، عــليــكم قَطَــرى بن الفُجاءة المازنى». فبايعوه . فوقف بهم . فقالوا : «يا أمير المؤمــنين امــض بنا إلى فارس» فقال : «إن بفارس عمر بن عبيد الله بن معمر، ولــكن نصير إلى الأهواز ، فإن خرج مصعب بن الزبير من البصرة دخلناها» . فــأتوا الأهواز ثم تَرفَّعوا عنها إلى إِيذَج ، وكان مصعب قد عزم على الخروج إلى باجَمَيْــرا . فقــال لأصحابه : « إن قطريا قد أطل علينا ، وإنْ خرجنا عن البصرة دخلها» . فبعث إلى المهلب فقال : «اكفنا هذا العدو» . فخرج إليهم المهلب . فــلما أحس به قطرى تَيمَّم نحو كِرْمان . فأقام المهلب بالأهواز ثم كرَّ قطرى عليه

---

(١) غارون : غافلون .

(٢) فى قبل : من أمام ، أى عند الهجوم .

(٣) فى دبر : من خلف ، أى عند التقهقر .

بكثرة السلاح وكثرة الدواب وحَصانة الجُنَن [1] . فحاربهم المهلب فنفاهم إلى رام هرُمْز . وخرج مصعب بن الزبير إلى باجميراء ثم أتى الخوارج خبر مقتله بمَسْكَن .

وولى خالد بن عبد الله بن أسيد . فدخل البصرة فأراد عزل المهلب فأُشير عليه بأن لا يفعل ، وقيل له : «إنما أمن أهل هذا المصر بأن المهلب بالأهواز وعمر ابن عبيد الله بفارس ، فقد تنحى عمر ، وإن نحيت المهلب لم تأمن على البصرة» . فأبى إلا عزله . فقدم المهلب البصرة وخرج خالد إلى الأهواز فأشْخَصه . فلما صار بكُرْبَج دينار لقيه قطرى فمنعه حط أثقاله وحاربه ثلاثين يوما ثم أقام قطرى بإزائه وخندق على نفسه . فقال المهلب : «إن قطريا ليس بأحق بالخندق منك» فعبر دجيلا إلى شِق نهر تِيرى . واتبعه قطرى فصار إلى مدينة نهر تيرى فبنى سورها وخندق عليها . فقال المهلب لخالد : «خندقْ على نفسك ، فإنى لا آمن عليك البيات» فقال: «يا أبا سعيد ، الأمر أعجل من ذلك» . فقال المهلب لبعض ولده : «إنى أرى أمرا ضائعا» . ثم قال لزياد بن عمرو : «خندق علينا» . فخندق المهلب وأمر بسفنه ففرّغت ، وأبى خالد أن يفرغ سفنه. فقال المهلب لفيروز حُصَين : «صِرْ معنا» فقال : «يا أبا سعيد الحزم ما تقول ، غير أنى أكره أن أفارق أصحابى» . قال : «فكن بقربنا» . قال : «أما هذا فنعم» . وقد كان عبد الملك كتب إلى بشر بن مروان يأمره أن يُمدَّ خالدا بجيش كثيف أميره عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ففعل . فقدم عليه عبد الرحمن . فأقام قطرى يُغاديهم القتال ويراوحهم أربعين يوما . فقال المهلب لمولى لأبى عُيينة : «اتّبِذ إلى الناووس [2] فبِتْ عليه فى كل ليلة . فمتى أحسست خبرا من الخوارج

---

[1] الجنن : جمع جنة ، وهى الدروع .

[2] الناووس : مقبرة النصارى .

أو حــركة أو صهيل خيل فاعجل إلينا» . فجاءه ليلة فقال : «قد تحرك القوم» . فجــلس المهــلب بــباب الخندق . وأعد قطرى سفنا فيها حطب فاشعلها نارا ، وأرســلها على سفن خالد . وخرج فى أدبارها حتى خالطهم ، فجعل لا يمر برجل إلا قــتله ، ولا بدابــة إلا عقرها ، ولا بفسطاط إلا هتــكه . فأمر المهلب يزيد ، فخرج فى مئة فارس فقاتل وأبلى يومئذ . وخرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فأبلى بلاء حسنا وخرج فيروز حصين فى مواليه ، فلم يزل يرميهم بالنُشّاب [1] هو ومــن معــه فاثر أثرا جميلا . فصُرع يزيد بن المهلب يومئذ ، وصرع عبد الرحمن ، فحــامى عنهما أصحابهما حتى ركبا . وسقط فيروز حصين فى الخندق ، فاخذ بيده رجل من الأزد فاستنقذه . فوهب لــه فيروز حصين عشرة آلاف درهم . وأصبح عســكر خــالد كأنــه حَرّة [2] سوداء . فجعل لا يرى إلا قتيلا أو صريعا ، فقال للمهــلب : «يا أبا سعيد ، كدنا نفتضح» . فقال : «خندق على نفسك ، فإن لا تفعل عادوا إليك» . فقال : «اكفنى أمر الخندق». فصــاح بهم الخوارج : «والله لولا هذا الساحر المَزُونى لــكان الله قد دمَّر عليــكم» . وكانت الخوارج تســمى المهــلب الســاحر لأنهم كانوا يدبرون الأمر فيجدونه قد سبق إلى نقض تدبيرهم .

ومضــى قطرى إلى كرمان فانصرف خالد إلى البصرة . فاقام قطرى بكرمان أشــهُرا ثم عمــد لفارس وخرج خالد إلى الأهواز . وندب للناس رجلا ، فجعلوا يطلــبون المهلب . فقال خالد : «ذهب المهلب بحظ هذا المِصْر إنى قد وليت أخى قــتال الأزارقة» . فولى أخاه عبد العزيز . واختلف المهلب على الأهواز فى ثلاث

(١) النشــاب : الســـهام .

(٢) الحرة : الأرض ذات الحجارة السوداء النخرة .

مـئة . ومضى عبد العزيز فى ثلاثين ألفا والخوارج بدَرابَ جَرْد . فجعل عبد العزيز يقـول فى طـريقـه : «يـزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لا يتم إلا بالمهلب ، فسيعلمون» .

قـال صَـعْب بن يزيد : فلما خرج عبد العزيز عن الأهواز جاءنى كُرْدوس حـاجب المهـلب ، فقال . «أجب الأمير» . فجئت إلى المهلب وهو فى سطح ، وعـليه ثياب هَرَوِية . فقـال : «يا صعب ، أنا ضائع ، كأنى أنظـر إلى هزيمة عـبد العزيـز ، وأخشى أن توافينى الأزارقة ولا جند معى فابعث رجلا من قبلك يأتينى بخبرهم سابقا به إلى» . فوجهت رجلا يقال له عمران ابن فـلان ، فقلت : «اصـحب عسـكر عبد العزيز واكتب إلىّ بخبر يومٍ يوم» . فجعلت أورده على المهـلب. فـلما قاربهم عبد العزيز وقف وقفة ، فقال له الناس : «هذا يوم صالح فينـبغى أن تُـترك أيها الأمير حتى نطمئن ثم نأخذ أهبتنا» فقال : «كلا إلا الأمر قـريب» فـنزل الناس على غير أمره . فلم يُستَتَمّ النزول حتى ورد عليهم سعد الطلائـع فى خمسمئة فارس كأنهم خيط ممدود . فناهضهم عبد العزيز فواقفوه ساعة ثم انهزموا عنه مكيدة . فاتّبعهم ، فقال له الناس : «لا تتبعهم فإنا على غير تعبئة» فـأبى فـلم يزل فى آثارهم حتى اقتحموا عقبة فاقتحمها وراءهم ، والناس ينهونه ويـأبى. وكان قد جعل على بنى تميم عَبْس بن طَلْق الصّريمى الملقب عبس الطعّان ، وعـلى بكر بن وائل مقاتل بن مِسْمع القيسى ، وعلى شرطته رجلا من بنى ضُبيعة بن ربيعة بن نزار . فنزلوا عن العقبة ونزل خلفهم ، وكان لهم فى بطن العقبة كمين فلما صاروا وراءها خرج عليهم الـكمين ، وعطف سعد الطلائع . فترجل عبس ابـن طلق فقُتل ، وقُتل مقاتل بن مسمع ، وقتل الضبيعى صاحب الشرطة ، وانحاز عـبد العزيز . واتبعهم الخوارج على فرسخين يقتلونهم كيف شاءوا . وكـان

عبد العزيز قد خرج معه بأم حفص ابنة المنذر بن الجارود امرأته ، فسَبْوا النساء يومئذ . وأخذوا أسرى لا تُحصَى ، فقذفوهم فى غارٍ بعد أن شدوهم وَثاقا ، ثم سدوا عليهم بابه حتى ماتوا فيه . وقال رجل حضر ذلك اليوم : «رأيت عبد العزيز وإن ثلاثين رجلا ليضربونه بأسيافهم وما تَحيك [1] فى جسده» .

ونودى على السبى يومئذ فغُولِىَ بأم حفص . فبلغ بها رجل سبعين ألفا ، وذلك الرجل من مجوس كانوا أسلموا ولحقوا بالخوارج ، فَفَرض لكل واحد منهم خمسمئة . فكاد يأخذها ، فشق ذلك على قطرى ، وقال : «ما ينبغى لرجل مسلم أن يكون عنده سبعون ألفا ، إن هذه فتنة» . فوثب إليها أبو الحديد العبدى فقتلها . فأُتى به قطرى فقال : «يا أبا الحديد مَهْيَمَ ؟» فقال : «يا أمير المؤمنين ، قد تَزايَدُوا فى هذه المشركة فخشيت عليهم الفتنة» . فقال قطرى : «قد أصبت وأحسنت» . قوله : مهيم : حرف استفهام معناه ما الخبر ، وما الأمر فهو دالّ على ذلك .

قال الصَّعْب بن يزيد : بعثنى المهلب لآتيه بالخبر . فصرت إلى قنطرة أربُك على فرس اشتريته بثلاثة آلاف درهم ، فلم أُحسس خبرا . فسرت مُهجِّرا [2] إلى أن أمسيت . فلما أظلمنا [3] سمعت كلام رجل عرفته من الجَهاضِم ، فقلت : «ما وراءك ؟» . فقال : «الشر». قلت : «فأين عبد العزيز ؟» قال : «أمامك» فلما كان من آخر الليل إذا أنا بزهاء خمسين فارسا معهم لواء ، فقلت :

---

(1) تحيك : تؤثر .

(2) المهجر : السائر فى الهاجرة ، وهى منتصف النهار .

(3) أظلمنا : حل علينا الظلام .

«من هذا ؟» . فقالـــوا : «لواء عبد العزيز». فتقدمت إليه فسلمت ، وقلت : «أصـــلح الله الأمير لا يَـــكْبُرَنَّ عليك ما كان فإنك كنت فى شر جند وأخبَثه» . قـــال لى : «أو كنت معنا ؟» قلت : «لا ولـــكن كأنى شاهد أمرك» . قـــال : «كـــأنك كنت معنا». قلت : «أرسلنى المهلب لآتيه بخبرك» . ثم تركته وأقبلت إلى المهلب . فقال لى : «ما وراءك ؟» . قلت : «ما يسرك قد هُزِم وَفُلَّ جيشه». فقـــال : «ويحك ! وما يسرنى من هزيمة رجل من قريش وفل جيش من المسلمين» قـــلت : «قـــد كان ذاك ، ساءك أو سرك» . فوجه رجلا إلى خالد يخبره . قال الـــرجل : فلما أخبرت خالدا قال : «كذبت ولؤمت» . ودخل رجل من قريش فـــكذبنى .وقال لى خالد : «والله لهممت أن أضرب عنقك» . قلت : «أصلح الله الأمـــير ، إن كـــنت كاذبا فاقتلنى ، وإن كنت صادقا فأعطنى مُطْرَف [1] هذا المتـــكلِّف» .فقال خالد : «لبئسما أخطرت به دمك» . فما برحت حتى دخل بعض الفلّ .

وقـــدم عـــبد العزيز سوق الأهواز فأكرمه المهلب وكساه . وقدم معه على خالد ، واستخلف ابنه حبيبا ، وقال له : «تحسّس عن الأخبار ، فإن أحسست بخبر الأزارقة قريبا منك فانصرف إلى البصرَة» . فلم يزل حبيب مقيما والأزارقة تدنو مـــنه حتى بلغوا قنطرة أربك . فانصرف إلى البصرة على نهر تِيرى . فلما دخلها ، أعـــلم خـــالد ، فغضب عليه . واستتر حبيب فى بنى هلال بن عامر بن صعصعة، فتزوج هناك فى استتاره الهلالية أم عباد بن حبيب .

وكـــتب خالد إلى عبد الملك بعذر عبد العزيز ، وقال للمهلب : «مـــا ترى عبد الملك صانعا بى ؟» قال : «يعزلك» . قال : «أتراه قاطعا رحمى» قـــال :

(1) المطرف : الرداء من حرير ذو أعـــــلام .

«نعـم ، أتـته هزيمة أمية أخيك من البحرين ، وتأتيه هزيمة أخيك عبد العزيز من فارس» فـكتب عبد الملك إلى خالد : «أما بعد ، فإنى كنتُ حددتُ لك حدا فى أمر المهلب . فلما ملـكتَ أمرك نبذت طاعتى واستبددت برأيك ، فوليت المهلب الجـباية ، ووليت أخاك حرب الأزارقة ، فقبح الله هذا رأيا ، أتبعث غلاما غِرا لم يجـرب الحـروب ، وتـترك سيدا شجاعا مدبرا حازما قد مارس الحروب تشغله بالجـباية ؟ أما لو كافأتك على قدر ذنبك لأتاك من نـكيرى ما لا بقية لك معه ، ولـكن تذكرت رحمك فلفتتنى عنك ، وقد جعلت عقوبتك عزلك » .

وولى بشر بن مروان وهو بالـكوفة وكتب إليه : «أما بعد فإنك أخو أمير المؤمـنين ، يجمعـك وإيـاه مروان بن الحـكم ، وإن خالدا لا مجتمع له مع أمير المؤمنين دون أمية فانظر المهلب فولّه حرب الأزارقة ، فإنه سيد بطل مجرَّب فامدده من أهل الـكوفة بثمانية آلاف رجل» . فشق عليه ما أمـره فى المهلب ، وقال : «والله لأقْتُلَنَّهُ». فقال له موسى بن نُصَير : «إن للمهلبِ حفاظا وبلاء ووفاء» . وخـرج بشر بن مروان يريد البصرة فـكتب موسى وعِكْرمة إلى المهلب أن يتلقاه لقـاء لا يعرفه به ، فتلقاه المهلب على بغل فسلم عليه فى حمار الناس . فلما جلس بشـر محلـه قال: «ما فعلِ أميركم المهلب ؟» قالوا : «قد تلقاك أيها الأمير وهو شـاكٍ» . فهمّ بشر أن يولى حرب الأزارقة عمر بن عبيد الله ، فقال له أسماء بن خارجـة : «إنما ولاك أمير المؤمنين لترى رأيك» .فقال له عـكرمة بن ربعى « اكتب إلى أمير المؤمنين وأعلمه علة المهلب» . فـكتب إليه يعلمه علة المهلب، وأن بالبصـرة مـن يغنى غَناءه . ووجه بالـكتاب مع وفد أوْفَدهم إليه ، رئيسهم عبد الله بن حكيم المجاشعى . فلما قرأ الـكتاب خلا بعبد الله بن حكيم ، فقـال: «إن لك دينا ورأيا وحزما . فمن لقتال هؤلاء الأزارقة ؟» . قال: «المهلب» قال :

« إنه عليل ». قال : « ليست علته بمانعتــه » قال عبد الملك : « أراد بشر أن يفعل ما فعــل خالد » .فـكتب يعزم عليه أن يولى المهلب . فوجه إليه . قال المهلب : « أنــا عليل ولا يمكننى الاختلاف » فأمر بشر بحمل الدواوين إليه. فجعل ينتخب فاعــترض بشر عليه فاقتطع أكثر نُخبته . ثم عزم عليه أن لا يقيم بعد ثالثة ، وقد أخذت الخوارج الأهواز وخلفوها وراء ظهورهم ، وصاروا بالفرات . فخرج إليهم المهلب حتى صار إلى شَهارْ طاقَ . فأتاه شيخ من بنى تميم فقـــال : « أصلح الله الأمــير ، إن سنى ما ترى فهبنى لعيالى » . قال : « على أن تقول للأمير إذا خطب فحــثّكم على الجهاد : كيف تحثنا على الجهاد وأنت تحبس أشرافنا وأهــل النجدة منــا ». ففعل الشيخ ذلك فقال له بشـــر: « ما أنت وذاك ؟ » . قـــال : « لاشيء » .

وأعطى المهلب رجلا ألف درهم على أن يأتى بشـــرا ، فيقول له : « أيها الأمير، أعِن المهلب بالشرطة والمقاتلة » . ففعل الرجل ذلك . فقال له بشـــر : « مــا أنت وذاك ؟ » . قال : « نصيحة للأمير والمسلمين ، ولا أعود إلى مثلها » . فأمده بالشرطة والمقاتلة .

وكــتب بشر إلى خليفته بالــكوفة أن يعقد لعبد الرحمن بن مخنف على ثمانية آلاف من كل ربع ألفين ، ويوجه به مددا إلى المهلب . فلما أتاه الــكتاب بعث إلى عبد الرحمن بن مخنف الأزدى فعقد له ، واختار له من كل ربع ألفين . فــكان على ربــع أهل المدينة بشر بن جرير البَجَلى ، وعلى ربع تميم وهَمْدان عبد الرحمن بن ســعيد بــن قيس الهمدانى ، وعلى ربع كندة وربيعة محمد بن إسحاق بن الأشعث الــكــندى ، وعــلى مَذْحِج وأسد زَحْر بن قيس المَذْحِجى . فقدموا على بشر . فخلا بعبد الرحمن بن مخنف فقال له : « قد عرفتَ رأيي وثقى بك فــكن عند ظنى.

انظر هذا المزونى فخالفه فى أمره ، وأفسد عليه رأيه » . فخرج عبد الرحمن بن مخنف ، وهو يقول : «ما أعجب ما طمع منى فيه هذا الغلام : يأمرنى أن أصغر شيخا من مشايخ أهلى وسيدا من ساداتهم ! » . فلحق بالمهلب .

فلما أحس الأزارقة بدنوه منهم انكشفوا عن الفرات فاتبعهم المهلب إلى سوق الأهواز فنفاهم عنها . ثم تبعهم إلى رامَ هُرْمُز فهزمهم منها ، فدخلوا فارس وأبلى يزيد ابنه فى وقائعه هذه بلاء حسنا تقدم فيه ، وهو ابن إحدى وعشرين سنة . فلما صار القوم بفارس وجه إليهم ابنه المغيرة ، فقال له عبد الرحمن بن صبح : «أيها الأمير ليس برأىٍ قتلُ هذه الأكْلب . ولَئِن والله قتلتَهم لتقعدُنَّ فى بيتك ولكن طاوِلْهم وكُلْ بهم » . فقال : «ليس هذا من الوفاء » .

فلم يلبث برام هرمز إلا شهرا حتى أتاه موت بشر . فاضطرب الجند على ابن مخنف . فوجه إلى محمد بن إسحاق بن الأشعث وابن زحر ، واستحلفهما ألا يبرحا ، فحلفا له ولم يفيا . فجعل الجند من أهل الكوفة يتسللون حتى اجتمعوا بسوق الأهواز . وأراد أهل البصرة الانسلال من المهلب فخطبهم فقال : « إنكم لستم كأهل الكوفة ، إنما تَذْبون [1] عن مِصْرِكم وأموالكم وحُرَمكم » . فأقام منهم قوم وتسلل منهم ناس كثير . وكان خالد بن عبد الله خليفة بشر بن مروان ، فوجه مولى له بكتاب منه إلى من بالأهواز يحلف فيه بالله مجتهدا لئن لم يرجعوا إلى مراكزهم ، وانصرفوا عصاة ، لا يظفر بأحد منهم إلا قتله . فجاء مولاه فجعل يقرأ الكتاب عليهم ولا يرى فى وجوهم قبوله ، فقال : «إنى لأرى وجوها ما القبول من شأنها» . فقال له ابن زحر : «أيها العبد ، اقرأ ما

---

[1] تذبون : تدافعون .

فى الـكـتاب والنصـرف إلى صاحبك ، فإنك لا تدرى ما فى أنفسنا » . وجعلوا يسـتعجلونه فى قراءته ثم قصدوا قصد الـكوفة ، فنزلوا النُّخَيلة وكتبوا إلى خليفة بشـر يسألونه أن يأذن لهـم فى الدخول فأبى فدحلوها بغير إذن . فلم يزل المهلب ومن معه من قواده وابن مخنف فى عدد قليل .

فلم ينشَبوا أن ولى الَحجّاج العراق . فدخل الـكوفة قبل البصرة وذلك فى سـنة خمس وسبعين . فخطبهم وهدّدهم . ثم نزل فقال لوجوه أهلها : «ما كانت الولاة تفعل بالعصاة ؟» . فقال : «كانت تضرب وتحبس» فقال الحجاج: «ولكن ليس لهم عندى إلا السيف إن المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون ولو سـاغت المعصية لأهلها ما قوتل عدو ، ولا جُبى فَىْء ، ولا عز دين » . ثم جلس لـتوجيه الـناس ، فقال : «قد أجَّلتـكم ثلاثا ، وأقسم بالله لا يتخلف أحد من أصـحاب ابن مخنف بعدها ولا من أهل الثغور إلا قتلته» . ثم قال لصاحب حرسه وصـاحب شـرطة : «إذا مضت ثلاثة أيام فاتخذوا سيوفـكما عصيا » ، فجاءه عُمَير بن ضابىء البُرْجُمى بابنه ، فقال : « أصلح الله الأمير ، إن هذا أنفع لـكم مـنى ، هـو أشدّ بنى تميم أيدا [1] ، وأجمعهم سلاحا ، وأربطهم جأشا، وأنا شيخ كـبير عـليل » .واستشـهد جلساءه فقال الحجاج : «إن عذرك لَواضح ، وإن ضـعفك لَبيِّن ، ولـكنى أكره أن يجترئ بك الناس علىّ . وبعد فأنت ابن ضابىء صـاحب عـثمان » . ثم أمـر به فقُتل . فاحتمل الناس وإن أحدهم لَيُتَّبع بزاده وسلاحه . وخرج الناس عن الـكوفة .

---

(1) الأيـد : القـوة .

وأتـى الحجـاج البصرة فـكان عليهم أشد إلحاحا . وقد كان أتاهم خبره بالـكوفة ، فتحمل الناس قبل قدومه . فأتاه رجل من بنى يشـكر ، وكان شيخا كبيرا أعور ، وكان يجعل على عينه العوراء صُوفة ، فـكان يلقَّب ذا الـكُرْسُفة . فقال : « أصلح الله الأمير ، إن بى فَتْقا ، وقد عذَرنى بشر ، وقد رددت العطاء » . فقال : « إنك عندى لصادق » . ثم أمر به فضُربت عنقه .

ويـروى عـن ابن مَيْرة قال : إنا لنتغدى معه يوما إذ جاء رجل من سليم برجل يقوده ، فقال : « أصلح الله الأمير ، إن هذا عاصٍ » . فقال له الرجـل: « أنشُدك الله أيها الأمير فى دمى . فوالله ما قبضت ديوانا قط ولا شهدت عسكرا وإنى لحائك أُخذت من تحت الحف [١] » فقال : « اضربوا عنقه » .فلما أحس بالسـيف سـجد، فلحقه السيف وهو ساجد . فأمسكنا عن الطعام . فأقبل علينا الحجاج ، فقال : « مالى أراكم صَفِرت أيدكم واصفرت وجوهكم وحَدّ نظركم[٢] من قتل رجل واحد . إن العاصى يجمع خلال : يخل بمركزه ، ويعصى أميره ، ويَغُرّ المسلمين ، وهو أجير لهـم ، وإنمـا يأخذ الأجرة لما يعمل . والوالى مُخَيّر فيه ، إن شاء قتل وإن شاء عفـا » .

ثم كـتب الحجاج إلى المهلب : « أما بعد ، فإن بشرا رحمه الله استكره نفسه عليك ، وأراك غَناءه عنك ، وأنا أريك حاجتى إليك ، فأرنى الجد فى قتال عدوك . ومَنْ خِفْتَه على المعصية ممن قِبَلك فاقتله ، فإنى قاتل من قِبَلى . ومن كان عندى من وَلِيّ مَنْ هرب عنك ، فأعلمنى مـكانه ، فإنى أرى أن آخذ الولى بالولى والسَّمِى

---

(١) الحف : المنسج .

(٢) صفرت : فرغت . وحد : قوى .

بالسَّــمِى» . فــكتب إليه المهلب : « ليس قِبَلى إلا مطيع وإن الناس إذا خافوا العقوبــة كبّروا الذنب ، وإذا أمنوا العقوبة صغّروا الذنب ، وإذا يئسوا من العفو أكْفَرهم ذلك . فهَبْ لى هؤلاء الذين سميتهم عصاة ، فإنما هم فرسان أبطال أرجو أن يقتل الله بهم العدو » .

فلما رأى المهلب كثرة الناس عليه ، قال : « اليوم قُوتل هذا العدو» . ولما رأى ذلك قطرى قال : « امضوا بنا نريد السَّرَدان فنتحصن فيها» . فقال عبيدة ابن هلال : « أو نأتى سابور» وخرج المهلب فى آثارهم فأتى أرَّجان . وخاف أن يكونــوا قــد تحصنّوا بالسّردان ، وليست بمدينة ولــكن جبال محدقة منيعة ، فلم يصب بها أحدا . فخرج نحوهم فعسكر بكازَرُون . واستعدوا لقتاله وخندق على نفسه . ثم وجه إلى عبد الرحمن بن مخنف : « خندق على نفسك» . فوجــه إليه: « خنادقــنا سيوفنا» . فوجه إليه المهلب : « إنى لا آمن عليك البيات» . فقال ابنه جعفر : « ذاك أهون علينا من ضرطة جمل » . فأقبل المهلب على ابنه المغيرة، فقال: « لم يصيبوا الرأى ولم يأخذوا بالوثيقة» . فلما أصبح القوم غادَوْه الحرب. فــبعث إلى ابــن مخنف يستمده فأمده بجماعة ، وجعل عليهم ابنه جعفرا . فجاءوا عــليهم أقــبية بيض جدد . فقاتلوا يومئذ حتى عرُف مــكانهم . وحاربهم المهلب وأبلى بنوه يومئذ كبلاء الــكوفيين أو أشد . ثم نظر إلى رئيس منهم يقال له صالح ابن مِخْراق ، وهو ينتخب قوما من جِلّة العســكر حتى بلغوا أربعمئة . فقال لابنه المغيرة : « ما يُعِدّ هؤلاء للبيات» . وانــكشف الخوارج والأمر للمهلب عليهم وقــد كــثر فيهــم القتل والجراح . وقد كان الحجاج فى كل يوم يتفقد العصاة ، ويوجه الرجال ، فــكان يحبسهم نهارا ويفتح الحبس ليلا ، فينسل الناس إلى ناحية المهــلب وكأنّ الحجاج لا يعلم . ثم كانت الوقعة . فلما انصرف الخوارج . قال

المهلب لابنه المغيرة : « إنى أخاف البيات على بنى تميم » . فامض إليهم فكن فيهم . فأتاهم المغيرة فقال له الحَريش بن هلال : « يا أبا حاتم ، أيخاف الأمير أن يؤتى من ناحيتنا ، قل له : فَلْيَبِتْ آمنا فإنا كافُوه ما قِبَلنا إنْ شاء الله » . فلما انتصف الليل وقد رجع المغيرة إلى أبيه ، سرى صالح بن مخراق فى القوم الذين أعدّهم إلى ناحية بنى تميم . فوجد بنى تميم أيقاظا متحارسين . فخرج إليهم الحريش ابن هلال . ثم حمل على القوم فرجعوا عنه . فاتبعهم وصاح بهم : « إلى أين يا كلاب النار ؟ » فقالوا : « إنما أُعِدّت النار لك ولأصحابك » . فقال الحريش: « كل مملوك لى حر إنْ لم تدخلوا النار إن دخلها مجوسى فيما بين سفوَان وخراسان » .

ثم قال بعضهم لبعض : « نأتى عسكر ابن مخنف فإنه لا خندق عليهم وقد تعب فرسانهم اليوم مع المهلب ، وقد زعموا أنا أهون عليهم من ضرطة جمل » . فأتوهم فلم يشعر ابن مخنف وأصحابه بهم إلا وقد خالطوهم فى عسكرهم ، وكان ابن مخنف شريفا . فترجل عبد الرحمن بن مخنف فجالدهم فقُتل . وقُتل معه سبعون من القراء ، فيهم نفر من أصحاب على بن أبى طالب صلوات الله عليه ، ونفر من أصحاب ابن مسعود . وبلغ الخبر المهلب وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف عند المهلب . فجاءهم مُغيثا فقاتلهم حتى ارْتُثّ [1] وصُرِع . ووجه المهلب إليهم ابنه حبيبا فكشفهم . ثم جاء المهلب حتى صلى على ابن مخنف وأصحابه رحمهم الله . وصار جنده فى جند المهلب ، فضمهم إلى ابنه حبيب ، فعيرهم البصريون فقال رجل لجعفر بن عبد الرحمن :

تركتَ أصحابنا تَدْمَى نحورهمُ ... وجئتَ تسعى إلينا خَضْفَة الجمَل

---

[1] ارتث : صرع وقد جرح .

قوله : خضفة الجمل : يريد ضرطة الجمل .

فلامهم المهلب وقال : « بئسما قلتم ، والله ما فروا ولا جبنوا ولكنهم خالفوا أميرهم . أفلا تذكرون فراركم يوم دُولاب ، وفراركم بدارسَ عن عثمان وفراركم عنى ؟ » .

ووجه الحجاج البَراء بن قَبيصة إلى المهلب يستحثه فى مناجزة القوم . وكتب إليه : « إنك لتحب بقاءهم لتأكل بهم » فقال المهلب لأصحابه : « حَرِّكوهم » . فخرج فرسان من أصحابه إليهم . فخرج إليهم من الخوارج جمع فاقتتلوا إلى الليل فقال لهم الخوارج : « ويلكم أمَا تَملّون ؟ » فقالوا : « لا حتى تملوا » . قالوا : « فمن أنتم ؟ » قالوا : « تميم » . قالت الخوارج : « ونحن بنو تميم » . فلما أمسوا افترقوا . فلما كان الغد خرج عشرة من أصحاب المهلب ، وخرج إليهم عشرة من الخوارج فاحتفر كل واحد منهم حَفيرة وأثبت قدمه فيها . فكلما قُتل رجل جاء رجل من أصحابه فاجتره ووقف مكانه حتى أعتَمُوا[1] . فقال لهم الخوارج : « ارجعوا » فقالوا : « بل ارجعوا أنتم » . فقالوا : « ويلكم من أنتم ؟ » فقالوا : « تميم » .قالوا : « ونحن تميم » . فرجع البراء بن قبيصة إلى الحجاج ، فقال له: « مَهْ ؟ » قال: « رأيت قوما لا يعين عليهم إلا الله » وكتب إليه المهلب : « إنى منتظر بهم إحدى ثلاث : موت ذَريع أو جوع مضر أو اختلاف من أهوائهم » .

(1) أعتموا : دخلوا فى العتمة ، أى الظلام .

وكان المهلب لا يتكل فى الحراسة على أحد ، كان يتولى ذلك بنفسه ، ويستعين بولده وبمن يحل محلهم فى الثقة عنده . ومطرت السماء ليلة مطرا شديدا وهم بسابور ، وبين المهلب وبين الشُّراة عقبة . فقال المهلب : « من يكفينا هذه العقبة الليلة ؟ » فلم يقم أحد . فلبس المهلب سلاحه ، وقام إلى العقبة واتبعه ابنه المغيرة . فقال رجل من أصحابه يقال له عبد الله : « دعانا الأمير إلى ضبط العقبة والحظ فى ذلك لنا فلم نطعه » . فلبس سلاحه واتبعه جماعة من أهل العسكر ، فصاروا إليه ، فإذا المهلب والمغيرة لا ثالث لهما . فقالوا : « انصرف أيها الأمير فنحن نكفيك إن شاء الله » . فلما أصبحوا إذا بالشراة على العقبة . فخرج إليهم غلام من أهل عمان على فرس . فجعل يحمل وفرسه يَزْلَق . وتلقاه مدرك بن المهلب فى جماعة معه حتى ردهم .

فلما كان يوم النَّحْر ، والمهلب على المنبر يخطب الناس ، إذا الشراة قد تألبوا. فقال المهلب : «سبحان الله ! أفى مثل هذا اليوم ؟ يا مغيرة أكفنيهم » . فخرج إليهم المغيرة بن المهلب وأمامه سعد بن نَجَد القُردوسى ، وكان سعد شجاعا متقدما فى شجاعته . وكان المهلب إذا ظن برجل أن نفسه قد أعجبته قال له : « لو كنت سعد بن نجد القردوسى ما عدا » . فخرج أمام المغيرة جماعة من فرسان المهلب فالتقوا وأمام الخوارج غلام جامع السلاح ، مديد القامة ، كريه الوجه ، شديد الحملة ، صحيح الفروسية . فأقبل يحمل على الناس . فخرج إليه سعد بن نجد القردوسى من الأزد . ثم تجاولا ساعة فطعنه سعد فقتله . والتقى الناس فصُرع يومئذ المغيرة . فحامى عليه سعد بن نجد ، وذبيان السِّخْتِيانى ، وجماعة من الفرسان حتى ركب . وانكشف الناس عند سقطة المغيرة حتى صاروا إلى أبيه المهلب ، فقالوا : « قُتل المغيرة » . ثم أتاه ذبيان السختيانى فأخبره

بسلامته . فأعتق كل مملوك كان بحضرته . ثم ناهضهم ثلاثة أيام يُغاديهم القتال ولا يزالون كذلك إلى العصر . وينصرف أصحابه وبهم قَرْح وبالخوارج قرح وقَتْل .

وكـــانت رُكُب [1] الناس قديما من الخشب . فـــكان الرجلُ يضرب ركابه فينقطع . فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يـــكن له معتمد . فأمر المهلب فضُربت الرُّكب من الحديد . وهو أول من أمر بطَبْعها .

وكتب الحجاج إلى عَتَّاب بن وَرْقاء الرِّياحى وهو والى أصبهان يأمره بالمسير إلى المهـــلب ، وأن يضم إليه جند عبد الرحمن بن مخنف ، فـــكل بلد تدخلانه من فـــتوح أهـــل البصرة فالمهلب أمير الجماعة فيه ، وأنت على أهل الـــكوفة . فإذا دخلتما بلدا فَتْحه لأهل الـــكوفة فأنت أمير الجماعة ، والمهلب على أهل البصرة . فقدم عتاب فى إحدى جُمادَيَيْن من سنة ست وسبعين على المهلب ، وهو بسابور ، وهـــى من فتوح أهل البصرة . فـــكان المهلب أمير الناس ، وعتاب على أصحاب ابـــن مخـــنف ، والخوارج فى أيديهم كِرْمان وهم بإزاء المهلب بفارس يحاربونه من جميـــع النواحى . فوجه الحجاج إلى المهلب رجلين يستحثانه مناجزة القوم ، أحدهما يقـــال له زياد بن عبد الرحمن من بنى عامر بن صعصعة ، والآخر من آل أبى عقيل جد الحجاج . فضم زيادا إلى ابنه حبيب ، وضم الثقفى إلى يزيد ابنه ، وقال لهما : «خـــذا يزيد وحبيبا بالمناجزة» . فغادوا الخوارج فاقتتلوا أشد قتال . فقُتل زياد بن عبد الرحمن ، وفقُد الثقفى . ثم باكروهم فى اليوم الثانى ، وقد وُجد الثقفى فدعا به المهـــلب ، ودعـــا بالغذاء ، فجعل النَّبْل يقع قريبا منهم ، والثقفى يعجب من أمر المهلب .

---

[1] الركب : جمع ركاب ، وهو ما يعلق فى السرج فيجعل فيه الراكب قدمه .

فلم يزل عتاب بن ورقاء مع المهلب ثمانية أشهر حتى ظهر شبيب . فكتب الحجاج إلى عتاب يأمره بالمصير إليه ليوجهه إلى شبيب . وكتب إلى المهلب بأن يرزق الجند . فرزق المهلب أهل البصرة ، وأبى أن يرزق أهل الكوفة . فقال له عتاب : «ما أنا ببارح حتى ترزق أهل الكوفة» . فأبى فجرت بينهما غلظة فقال عتاب : «قد كان يبلغنى أنك شجاع فرايتك جبانا، وكان يبلغنى أنك جواد فرايتك بخيلا» . فقال له المهلب : «يا ابن اللَّخْناء [1] » . فقال له عتاب : «لكنك مُعَمٌّ مُخْوَل [2] » . فغضبت بكر بن وائل للمهلب للحلف . ووثب ابن نعيم بن هُبيرة ابن أخى مصقلة على عتاب فشتمه . وقد كان المهلب كارها للحلف. فلما رأى نُصرة بكر بن وائل له سَرَّه الحلف واغتبط به ولم يزل يؤكده ، فغضبت تميم البصرة لعَتاب . وغضبت أزد الكوفة للمهلب . فلما رأى ذلك المغيرة بن المهلب مشى بين أبيه وبين عتاب ، فقال لعتاب : «يا أبا ورقاء ، إن الأمير يصير لك إلى كل ما تحب» . وسأل أباه أن يرزق أهل الكوفة فأجابه . فصلح الأمر . فكانت تميم قاطبة وعتاب بن ورقاء يحمدَون المغيرة بن المهلب ، وقال عتاب : «إنى لأعرف فضله على أبيه» . فشخص عتاب بن ورقاء إلى الحجاج فى سنة سبع وسبعين فوجهه إلى شبيب فقتله شبيب.

وأقام المهلب على حربهم . فلما انقضى من مقامه ثمانية عشر شهرا اختلفوا وكان سبب اختلافهم أن رجلا حدادا من الأزارقه كان يعمل نصالا مسمومة ، فيرمى بها أصحاب المهلب . فُرِفع ذلك على المهلب ، فقال : «أناَ أكْفِكموه إن شاء الله» . فوجه رجلا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطرى

---

(١) اللخناء : النتنة .

(٢) معم مخول : شريف الأعمام والأخوال . يهزأ به .

«ألق هذا الكتاب فى عسكر قطرى ، واحذر على نفسك». وكان الحداد يمانى نه أبزَى . فمضى الرسول . وكان فى الكتاب : «أما بعد ، فإن نصالك قد وصلت إلىّ ، وقد وجهت إليك بألف درهم فاقبضها ، وزِدْنا من هذه النصال» فوقع الكتاب والدراهم إلى قطرى . فدعا بأبزى فقال : «ما هذا الكتاب؟» قال : «لا أدرى» قال : «فهذه الدراهم» . قال : «ما أعلم علمها» . فأمر به فقُتل. فجاءه عبد ربه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة ، فقال له: «أقتلت رجلا على غير ثقة ولا تبين ؟» فقال له : «ما حال هذه الدراهم ؟ » فقال : «يجوز أن يكون أمرها كذبا ويجوز أن يكون حقا» . فقال له قطرى : «قتل رجل فى سلاح الناس غير منكر . وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحا ، وليس للرعية أن تعترض عليه». فتنكر له عبد ربه فى جماعة ولم يفارقوه .

فبلغ ذلك المهلب فدس إليه رجلا نصرانيا ، فقال له : «إذا رأيت قطريا فاسجد له . فإذا نهاك فقُل : إنما سجدت لك» . ففعل النصرانى فقال له قطرى: «إنما السجود لله» فقال : «ما سجدت إلا لك» . فقال له رجل من الخوارج : «قد عبدك من دون الله» . وتلا : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ فقال قطرى : «إن هؤلاء النصارى قد عبدوا عيسى بن مريم ، فما ضر ذلك عيسى شيئا» . فقام رجل من الخوارج إلى النصرانى فقتله . فأنكر ذلك عليه وقال : «أقتلتَ ذِمِّيا ؟» فاختلفت الكلمة .

فبلغ ذلك المهلب فوجه إليهم رجلا يسألهم عن شىء تقدم به إليه . فأتاهم الرجل فقال : «أرايتم رجلين خرجا مهاجرين إليكم . فمات أحدهما فى الطريق، وبلغكم الآخر فامتحنتموه فلم يَجُز المحنة ، ما تقولون فيهما ؟» فقال بعضهم:

«أمــا الميــت فمؤمــن من أهل الجنة ، وأما الآخر الذى لم يجز المحنة فــكافر حتى يجيزها» . وقال قوم آخرون : «بل هما كافران حتى يجيزا المحنة» .

فــكثر الاختلاف فخرج قطرى إلى حدود إصْطَخْر . فأقام شهرا والقوم فى اخــتلافهم . ثم أقــبل فقــال لهم صالح بن مخراق: «ياقوم إِنــكم قد أقررتم أعْيُن عدوكــم ، وأطمعتموهم فيكم ، لــما ظهر من اختلافــكم . فعُودوا إلى سلامة القــلوب واجتماع الــكلمة» . وخرج عمرو القَنا فنادى : «يا أيها المُحِلّون هل لــكم فى الطراد فقد طال العهد به ؟» ثم قــــال :

ألم تر أنا مــذ ثلاثــــون ليلةً … قريبٌ وأعداءُ الــكتاب على خَفْضِ

فتهايج القوم وأسرع بعضهم إلى بعض . فأبلى يومئذ المغيرة بن المهلب وصار فى وسط الأزارقة. فجعلت الرماح تحُطّه وترفعه ، واعتورت رأسه السيوف ، وعليه ســاعد حديــد . فوضــع يــده على رأسه فجعلت السيوف لا تعمل فيه شيئا . واســتنقذه فرسان من الأزد بعد أن صُرع فقال رجل للمغيرة : «كنا نعجب كيف تُصْــرع والآن نعجب كيف تنجو» وقال المهلب لبنيه : «إن سَرْحــكم لَغارّ [1]، ولســتُ آمنُهم عليه ، أفَوكّلتم به أحد ؟» قالوا : «لا» . فلم يستتم الــكلام حتى أتــاه آت فقــال : «إن صالح بن مخراق قد أغار على السرح» . فشق ذلك على المهــلب، وقال : «كل أمر لا أليه بنفسى ضائع» وتذمر عليهم . فقال له بشر ابن المغيرة : «أرِحْ نفسك فإن كنت إنمــا تريد مثلك فو الله لا يَعْدِل أحدنــا شِسْع[2] نعلك» فقال : «خذوا عليهم الطريق» . فثار بشر بن المغيرة ومدرك والمفضل ابنا

---

(١) السرح : الماشية . والغار : الغافل .

(٢) شسع النعل : زمامها التى بين الإصبع الوسطى والتى تليها .

المهلب. فسبق بشر إلى الطريق فإذا رجل أسود من الأزارقة يُشل السرح ، أى يطرده . ولحقه المفضل ومدرك فصاحا برجل من طيىء : «أكفنا الأسود» . فاعتوره الطائى وبشر بن المغيرة فقتلاه ، وأسرا رجلا من الأزارقة . فقال له المهلب: «ممن الرجل ؟» قال : «من هَمْدان» قال : «إنك لَشَيْن همدان» وخلى سبيله .

وكان عَيّاش الكندى شجاعا بئِيسا فأبلى يومئذ ثم مات على فراشه بعد ذلك . فقال المهلب : «لا وألت [1] نفس الجبان بعد عياش» وقال المهلب : «مارأيت كهؤلاء كلما ينقص منهم يزيد فيهم» .

ووجه الحجاج إلى المهلب رجلين أحدهما من كلب والآخر من سليم يستحثانه بالقتال . فقال ليزيد : « حركهم » . فحركهم فتهايجوا . وذلك فى قرية إصطخر فحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحاب المهلب فطعنه فشك فخذه بالسّرج . وحمل يزيد عليهم وقد جاء الرُّقاد ، وهو من فرسان المهلب، وهو أحد بنى مالك بن ربيعة على فرس له أدهم [2] ، وبه نَيِّف [3] وعشرون جِراحة ، وقد وضع عليها القطن . فلما حمل يزيد ولّى الجمع وحماهم فارسان . فقال يزيد لقيس الخُشَنى مولى العَتِيك : « مَنْ لهذين ؟ » قال : « أنا » . فحمل عليهما فعطف عليه أحدهما فطعنه قيس الخُشَنى فصرعه ، وحمل عليه الآخر فعانقه فسقطا جميعا إلى الأرض فصاح قيس الخُشَنى : « اقتلونا جميعا » . فحملت خيل هؤلاء وخيل

---

(١) وأل : نجا .

(٢) أدهم : أسود .

(٣) نيف : زيادة .

هؤلاء ، فحجزوا بينهما فإذا معانقه امرأة . فقام قيس مستحييا . فقال له يزيد : « أما أنت فبارزتها على أنها رجل » . فقال : « أرأيت لو قُتلت أمَا كان يُقال قتلته امرأة ؟ » وأبلى يومئذ ابن المُنْجِب السَّدوسى، فقال له غلام له يقال له خِلاج : « والله لوددنا أنا فضضنا عسكرهم حتى أصير إلى مستقرهم فأستلب مما هناك جاريتين » : فقال له مولاه : « وكيف تمنيت اثنتين » . قال : « لأعطيك إحداهما وآخذ الأخرى » .

فكتب المهلب إلى الحجاج يسأله أن يتجافى [1]له عن إصطَخر ودَرابَجَرْد لأرزاق الجند . ففعل . وكان قطرى هدم مدينة إصطخر لأن أهلها كانوا يكاتبون المهلب بأخباره. وأراد مثل ذلك بمدينة نَسَا فاشتراها منه آزاذَ مرْد بن الهِرْبِذ بمائة ألف درهم فلم يهدمها . فواقعه المهلب فهزمه ونفاه إلى كرمان . وأتبعه ابنه المغيرة ، وقد كان دفع إليه سيفا وجه به الحجاج إلى المهلب ، وأقسم عليه أن يتقلده . فدفعه إلى المغيرة بعد ما تقلد به فرجع به المغيرة إليه وقد دمّاه . فسُرَّ المهلب بذلك ، وقال : « ما يسرنى أن أكون كنت دفعته إلى غيرك من ولدى اكفنى جباية خراج هاتين الكورتين » . وضم إليه الرُّقاد فجعلا يجبيان وحاربهم المهلب بالسِّيرَجان حتى نفاهم عنها إلى جِيرُفْت واتبعهم فنزل قريبا منهم .

واختلفت كلمتهم . وكان سبب ذلك أن قطريا كان قد استعمل رجلا من الدهاقين [2] ، فظهرت له أموال كثيرة . فأتوا قطريا ، فقالوا : « إن عمر بن الخطاب لم يكن يُقارُّ عماله على مثل هذا » . فقال قطرى : « إنى استعملته وله

---

[1] يتجافى : يتجاوز .

[2] الدهاقين : جمع دهقان وهو رئيس الإقليم .

ضـياع وتجـارات » . فأوغـر ذلك صدورهم . وبلغ ذلك المهلب فقال : « إن اختلافهم أشد عليهم مني » .

وقـالوا لقطـري : « ألا تخرج إلى عدونا » . فقال : « لا » . ثم خرج . فقالوا: « قد كذب وارتد » . فاتبعوه يوما ، فأحس بالشر فدخل دارا . فمر جماعة من أصحابه فصـاحوا به : « يادابّة اخرج إلينـا » فخرج إليهم فقال : « رجعتم بعدي كفارا » فقالوا : « ألست دابة ، قال الله عز وجل : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّـةٍ فِـي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ لـكنك قد كفرت بقولك : إنا قد رجعنا كفـارا ، فـتب إلى الله عز وجل » . فشاور عبيد الله فقال : « إن تبت لم يقبلوا منك، ولـكن قل : إنمـا استفهمت فقلت : أرجعتم بعدي كفارا » . فقال ذلك لهـم فقبلوه منه . فرجع إلى منزله .

وعـزم أن يبايع المُقَعْطَر العَبْدي فـكرهه القوم وأبوه . فقال لـه صالح بن مخراق عنه وعن القوم : « ابغ لنا غير المقعطر » . فقال قطري : « أرى طول العهد قـد غيركـم ، وأنتم بصدد عدوكم فاتقوا الله ، وأقبلوا على شأنـكم واستعدوا لـلقاء القوم » . فقال له صالح بن مخراق : «إن الناس قبلنا ساموا عثمان بن عفان أن يعـزل عـنهم سـعيد بن العاص ففعل . ويجب على الإمام أن يعفي الرعية مما كـرهت » فـأبى قطـري أن يعزله . فقال القوم : « إنا خلعناك وولينا عبد ربه الصـغير » . فانفصل إلى عبد ربه أكثر من الشطر ، وجُلُّهم الموالي والعجم. وكان هناك منهم ثمانية آلاف وهم القراء . ثم ندم صالح بن مخراق فقال لقطري : « هذه نفحة من نفحات الشيطان فاعفنا من المقعطر ، وسر بنا إلى عدوك » . فأبى قطري إلا المقعطر . فحمل فتى من العرب على صالح بن مخراق فطعنه فأنفذه وأجرّه الرمح فقتله .

فنشبت الحرب بينهم فتهايجوا ثم انحاز كل قوم إلى صاحبهم . فلما كان الغد اجتمعوا فاقتتلوا قتالا شديدا فجَلت الحرب عن ألفي قتيل. فلما كان الغد باكروهم القتال . فلم ينتصف النهار حتى أخرجت العجم العرب من المدينة ، وأقام عبد ربه بها ، وصار قطرى خارجا من مدينة جِيرُفت بإزائهم . فقال له عبيدة: « يا أمير المؤمنين ، إنْ أقمتَ لم آمن هذه العبيد عليك إلا أن تخندق » . فخندق على باب المدينة وجعل يناوشهم .

وارتحل المهلب فكان منهم على ليلة ورسول الحجاج معه يستحثه . فقال له : « أصلح الله الأمير ، عاجلهم قبل أن يصطلحوا » . فقال المهلب : إنهم لن يصطلحوا ، ولكن دعهم فإنهم سيصيرون إلى حال لا يفلحون معها » ثم دس رجلا من أصحابه ، فقال : « ائت عسكر قطرى فقل : إنى لم أزل أرى قطريا يصيب الرأى حتى نزله منزله هذا فبان خطؤه . أتقيم بين المهلب وعبد ربه ، يغاديه هذا القتال ويراوحه هذا » فنمى الكلام إلى قطرى . فقال : « صدق ، تنحَّوا بنا عن هذا الموضع . فإن اتبعنا المهلب قاتلناه ، وإن أقام عبد ربه رأيتم فيه ما تحبون » . فقال له الصلت بن مرة : « يا أمير المؤمنين ، إن كنت تريد الله فأَقْدِم على القوم ، وإن كنت تريد الدنيا فأَعْلِم أصحابك حتى يستأمنوا » . ثم قال : « أصبح المهلب يرجومنا ما كنا نطمع فيه منه » . فارتحل قطرى .

وبلغ ذلك المهلب فقال لهُرَيم بن عدى بن أبي طَحْمة المُجَاشعي : « إنى لا آمن أن يكون قطرى كادنا بترك موضعه ، فاذهب فتعرَّف الخبر » . فمضى هريم فى اثنى عشر فارسا فلم ير فى العسكر إلا عبدا وعِلْجا[1] . فسألهما عن قطرى

(١) العلج : الضخم القوى من الكفار .

وأصحابه فقالا : « مضوا يرتادون غير هذا المنزل » . فرجع هريم إلى المهلب فأخبره . فارتحل المهلب حتى نزل خندق قطرى فجعل يقاتلهم أحيانا بالغداة وأحيانا بالعشى. ووجه المهلب يزيد إلى الحجاج يخبره أنه قد نزل منزل قطرى ، وأنه مقيم على عبد ربه ، ويسأله أن يوجه فى أثر قطرى رجلا جلدا فى جيش. فسرَّ ذلك الحجاج سرورا أظهره ثم كتب إلى المهلب يستحثه مع عُبَيد بن مَوْهَب . فكانوا يتغادَوْن ويتراوحون فتصيبهم الجراح . ثم يتحاجزون كأنما انصرفوا من مجلس كانوا يتحدثون فيه فيضحك بعضهم إلى بعض . فقال عبيد بن موهب للمهلب : « قد بان عذرك وأنا مخبر الأمير » .

ولما اشتد الحصار على عبد ربه قال لأصحابه : « لا تفتقروا إلى من ذهب عنكم من الرجال ، فإن المسلم لا يفتقر مع الإسلام إلى غيره ، والمسلم إذا صح توحيده عز بربه وقد أراحكم الله من غلظة قطرى وعَجَلة صالح بن مخراق ونَخْوته، واختلاط عبيدة بن هلال ، ووكَلَكم إلى بصائركم فالقوا عدوكم بصبر ونية .. وانتقلوا عن منزلكم هذا ، من قتل منكم قتل شهيدا ، ومن سلم من القتل فهو المحروم » .

وقدم فى هذا الوقت على المهلب عُبَيد بن أبى ربيعة بن أبى الصَّلْت الثَّقَفى يستحثه بالقتال ، ومعه أمينان فقال له : « خالفتَ وصية الأمير ، وآثرت المدافعة والمطاولة » . فقال لهم المهلب : « ما تركتُ جهدا » . فلما كان العشى خرج الأزارقة وقد حملوا حرَمهم وأموالهم وخفَّ متاعهم لينتقلوا . فقال المهلب لأصحابه : « الزموا مَصافَّكم وأشرعوا رماحكم ودعوهم والذهاب » . فقال له عبيد : «هذا لَعَمْرِى أيسر عليك » . فقال للناس : « ردُّوهم عن وجهتهم » . وقال لبنيه : « تفرقوا فى الناس » . وقال لعبيد بن أبى ربيعة : « كن مع يزيد

فخذْه بالمحاربة أشد الأخذ » . وقال لأحد الأمينين : «كن مع المغيرة ولا ترخص له في الفـتور » . فاقتتلوا قتالا شديدا حتى عُقرت الدواب وصُرِع الفرسان ، وقتلت الـرجال . فجعـلت الخـوارج تقاتل على القدح يؤخذ منها والسوط والعِلْق [١] الخسـيس أشد قتال . وسقط رمح لرجل من مراد من الخوارج فقاتلوا عليه حتى كـثر الجِـراح والقتل وذلك مع المغرب . فلما عظم الخطب فيه بعث المهلب إلى المغـيرة : « خَلِّ عن الرمح عليهم لعنهم الله » فخلوا لهم عنه . ثم مضت الخوارج حـتى نزلوا على أربعة فراسخ من جيرفت . ودخلها المهلب وأمر بجمع ما كان لهم فيها من المتاع ، وما خلفوه من رقيق وختم عليه هو والثقفى والأمينان .

ثم اتبعهم فإذا هم قد نزلوا على عين لا يشرب منها إلا قوى ، يأتى الرجل بـالدلو قـد شدها فى طرف رمحه فيستقى بها ، وهناك قرية فيها أهلها . فغاداهم القـتال وضم الثقفى إلى يزيد ، وأحد الأمينين إلى المغيرة . واقتتل القوم إلى نصف الـنهار فقـال المهـلب لأبى علقمة العبدى ، وكان شجاعا عاتيا : « أمدد بخيل اليَحْمَـد، وقل لهم : فليعيرونا جماجمهم ساعة » فقال لـه : « إن جماجمهم ليست بفَخَّار فتُعار ، وليست أعناقهم كَرادِى [٢] فتنبت » . وقال لمعن بن المغيرة بـن أبى صفرة : « احمل » فقال : « لا إلا أن تزوجنى أم مالك بنت المهلب » . ففعل فحمل على القوم فكشفهم .

ثم جـال الـناس جولة عند حملة حملها عليهم الخوارج . فالتفت عند ذلك المهـلب إلى المغـيرة فقال : « ما فعل الأمين الذى كان معك » قال : « قتل » .

---

(١) العلق : الجـراب .

(٢) الـكرادى : أعـذاق النخـل .

وكـــــان الثقفى قد هرب وقال ليزيد : « ما فعل عبيد بن أبى ربيعة ؟ » قــال : « لم أره منذ كانت الجولة » . فقال الأمين الآخر للمغيرة: « أنت قتلت صاحبى » فلما كان العشى رجع الثقفى . وقال المهلب للأمين الآخر : « ينبغى أن تتوجه مع ابنى حبيب فى ألف رجل حتى تُبَيِّتوا عسكرهم » . فقال : « ما تريد أيها الأمير إلا أن تقتــلنى كمــا قتلت صاحبى » . قال : « ذاك إليك » . وضحك المهلب ولم تـــكن لــلقوم خنادق . فــكان كلٌ حذرا من صاحبه غير أن الطعام والعدة مع المهلب ، وهم فى زهاء ثلاثين ألفا .

فمــكثوا أياما على غير خنــادق يتحارسون ودوابهم مُسْرَجة . فلم يزالوا على ذلك حتى ضعف الفريقان فلما كانت الليلة التى قُتل فى صبيحتها عبد ربه جمع أصــحابه وقــال : « يا معشر المهاجرين إن قطريا وعبيدة هربا طلب البقاء ولا سـبيل إليه فالقوا عدوكم . فإنْ غلبوكم على الحياة فلا يَغْلُبُنَّكم على الموت فتلقوا الــرماح بنحوركم والسيوف بوجوهكم . وهبوا أنفسكم لله فى الدنيا يَهَبها لــكم فى الآخــرة » . فــلما أصبحوا غادوا المهلب فقاتلوه قتالا شديدا نسى به ما كان قبله. فقال رجل من الأزد وغيرهم ، فصُرع بعضهم ، وقُتل بعض ، وجُرح بعض . وقال عبد الله بن رِزام الحارثى لأصحاب المهلب : « احملوا » . فقـــال المهلب : « أعــرابى مجنون » وكان من أهل نجران . فحمل وحده فاخترق القوم حتى نَجَم[1] مــن ناحيــة أخرى ثم رجع ثم كر ثانية ففعل فعلته الأولى وتمايج الناس فترجلت الخوارج وعقروا دوابهم . فناداهم عمرو القنا ، ولم يترحل هو وأصحابه من العرب وكــانوا زها ء أربعمئة : « موتوا على ظهور دوابكم ولا تعقروها » . فقالوا إذا كنــــا على الدواب ذكرنا الفرار . فاقتتلوا . ونادى المهلب بأصحابـــــه :

---

(1) نجــــم : طلع .

« الأرض ! الأرض ! » وقال لبنيه : « تفرقوا فى الناس ليرو وجوهكم » . ونادى الخوارج : « ألا إن العيال لمن غلب » فصبر بنو المهلب . وصبر يزيد بين يدى أبيه وقاتل قتالا شديدا أبلى فيه . فقال له أبوه : « يابنى ، إنى أرى موطنا لا ينجو فيه إلا مـــن صـــبر وما مر بى يوم مثل هذا منذ مارست الحرب » . وكسرت الخوارج أجفان سيوفها . وتجاولوا فأجلت جولتهم عن عبد ربه مقتولا . فهرب عمرو القنا وأصحابه ، واستأمن قوم وأجلت الحروب عن أربعة آلاف قتيل وجرحى كثير من الخوارج . فامر المهلب بأن يدُفع كل جريح إلى عشيرته . وظفر بعسكرهم فَحَوى ما فيه ثم انصرف إلى جيرفت فقال : « الحمد لله الذى ردنا على الخَفْض والدَّعة ، فما كان عيشنا بعيش » .

وقدم المهلب على الحجاج فأجلسه إلى جانبه وأظهر إكرامه وبره ، وقال : « يا أهل العراق أنتم عبيد المهلب » .

المختار

من التعازى والمراثى

قيل إنه لم يقل في شيء قط كما قيل فى التعازى والمراثى لأن الناس لا ينفأكون من المصائب ، ومن لم يثكل [1] أخاه ثكله أخوه ، ومن لم يعدم نفيسا كان عو المعدوم دون النفيس. وحق الإنسان الصبر على النوائب ، إذ كانت الدنيا دار فراق ودار بوار لا دار استواء. وعلى فراق المألوف حرقة لا تُدفَع ولوهة لا ترد . وإنما يتفاضل الناس بصحة الفكر ، وحسن العزاء ، والرغبة فى الآخرة ، وجميل الذكر . فقد قال أبو خِراش الهذُلَى ، وهو أحد حُكماء العرب يذكر أخاه عروة بن مُرة :

تقول أراه بعد عروة لاهيا ... وذلك رزْءٌ لو علمتِ جليل

فى تحسَبى أنى تناسيتُ عهده ... ولكن صبرى يا أُمَيْمَ جميل

وكان يقال : من حدث نفسه بالبقاء ولم يوطنها[2] على المصائب ، فعاجز الرأى .

وعزى رجل رجلا من ابنه فقال : « أكان يغيب عنك ؟ » قال : «كانت غيبته أكثر من حضوره » . قال : «فأنْزِلْه غائبا عنك فإنه إن لم يَقْدَم عليك قدمتَ عليه » .

---

(1) يثكل : يفقد .

(2) يوطنها : يذللها .

وقال إبراهيم بن المهدى يذكر ابنـــــه :

وإنى وإنْ قُدِّمتَ قبلى لعَــالـمٌ ... بأنى وإنْ أبطأتُ منـــك قريب

وإن صباحا نلتقى فى مســـائه ... صباح إلى قلبى الغــداةَ حَبيب

وحُدِّثــت أن عمــر بن عبد العزيز لمــا مات ابنه عبد الملك ، خطب الناس فقال :

« الحمــد لله الــذى جعــل الموت حتما واجبا على عباده . فَسوَّى فيه بين ضعيفهم وقويهم ،ورفيعهم ودنيهم ، فقال تبارك وتعالى:﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ فليعـلم ذوو النهى منهم أنهم صائرون إلى قبورهم مُفَردون بأعمالهم ، واعلموا أن لله مسألة فاحصة ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وحُدِّثت أن عمر بن الخطاب لمَا ولَّى كعب بن سُور الأزدى قضاء البصرة ، أقام عاملا له عليها إلى أن استُشهد، على أنه كان قد عزله ثم رده . فلما قام عثمان ابـن عفان أقره . فلما كان يوم الجمل خرج مع إخوة لــه قالوا : ثلاثة ، وقالوا : أربعة، وفى عنقه مصحف فقُتلوا جميعا . فجاءت أمهم حتى وقفت عليهم فقالت :

يا عينُ جُودى بدمـــع سَــرِبْ ... على فتيةٍ من خِيـــار العَربْ

وماهـــمُ غيرَ حَينِ النفـــو ... سِ أىُّ أميرَىْ قريـــشٍ غَلب

وذكر بعض الرواة أن عبيد الله بن العباس ، وكان عاملا لعلى بن أبى طالب عــلى اليمن فشخص إلى على واستخلف على اليمن عمر بن أراكة الثَّقفى . فوجه معاويــة إلى اليمن ونواحيها بُسْر بن أرْطاة أحد بنى عامر بن لؤى فقتــل عمرو بن

obeikandl.com

أراكــة . وأرشد بُسْر عن ابنين لعبيد الله بن العباس وهما طفلان ، وأمهما من بنى الحارث بن كعب فوارتهما ، فيقال : إنه أخذهما من تحت ذيلها فقتلهما . ففى ذلك تقول الحارثية :

يا مَنْ أحَسَّ بنيَّ اللذين همــــا ... كالدُّرّتيْنِ تشَظّى عنهما الصدف
يا من أحس بنيى اللذين همــــا ... سَمْعِي وطَرْفى فطرفى اليوم مُخْتطَف
يا من أحس بنيى اللذين همــــا ... مخ العظام فمخى اليوم مُزْدَهف
نُبِّئْتُ بُسْرا وما صَدَّقتُ ما زعموا ... من قولهم ومن الإفك الذى اقترفوا
أَنْحَى على وَدَجَيْ طفليَّ مُرْهفَــة ... مشحوذة وعظيمُ الإفك يقتَرَف
من دَلَّ والهــةً حرَّى مفجّعــة ... على صبيين غابا إذ مضى السلف[1]

وقال رجل من المحْدَثين فى ابنين لعبد الله بن طاهر أصيبا فى يوم واحد ، وهما طفــلان ، شــبيها بهذا . ولــكنه اعتذر فحسن قوله وصح معناه باعتذاره، وهو الطائى :

لَهْفِى على تلك الشــــواهد فيهما ... لو أمهلتْ حتى تــــكون شمائلا
إن الهــلال إذا رأيتَ نمــــوّه ... أيقنت أن سيكون بدرا كــاملا

وقال جرير :

لولا الحيـــــاءُ لهـاجنى استعبارُ ... ولَزرت قبرك والحبيب يــــزارُ
نِعْمَ الخليل وكنتِ عِلقَ مضنَّـــةٍ ... ولدىَّ منك سكينةٌ ووقــار[2]

---

(١) تشظى : انشق . ومزدهف : قد ذُهب به . والإفك : الــكذب . والودج : عرق فى العنق.

لن يُلبثَ القرناء أن يتفرقوا   ليل يَكر عليهم ونهار
صلى الملائكة الذين تخيروا   والصالحون عليك والأبرار

وقال عقيل بن علفة المرى من غطفان :

لعمرى لقد جاءت قوافلُ خَبَّرت   بأمر من الدنيا علىّ ثقيل
وقالوا ألا تبكى لمصرع هالك   أصاب سبيلَ الله خيرَ سبيل
كأن المنايا تبتغى فى خيارنا   لها تِرةً أو تهتدى بدليل (١)
لتأت المنايا حيث شاءت فإنها   مُحلَّلة بعد الفَتَى ابن عقيل
فتى كان مولاه يَحُلُّ بنَجْوَة   فحل الموالى بعده بمسيل

والمصائب ما عظم منها وماصغر تقع على ضربين ، فالحزم التسلى عمالا يُغنى الغم فيه ، والاحتيال لدفع ما يُدفَع بالحيلة . ومن أحسن القول فى هذا المعنى فى الإسلام قول على بن الحسين بن أبي طالب عليهم السلام ، حيث مات ابنه فلم يُر منه جزع فسُئل عن ذلك ، فقال : « أمر كنا نتوقعه ، فلما وقع لم ننكره » وفى هذا زيادة تنتظر وفضل تسليم لقضاء الله عز وجل .

ومن أقدم ما قيل فى هذا المعنى قول أوس بن حَجَر الأسيدى يرثى فَضالة بن كلدة أحد بنى أسد بن خُزيمة :

أيتها النفس أجمِلى جزعا   إن الذى تحذرين قد وقعا
إن الذى جَمَع السماحة والنجدة والحزم والقُوَى جُمَعَا

---

(٢) علق مضنة : الشيء النفيس الذى يحرص عليه .

(١) الترة : الثأر .

opelkandi.com

الألْمَعِيُّ الذى يظن لك الـــــظن كـــــأنْ قد رأى وقد سمعـــا

المُخلِفُ المتْلِف المُرَزّأ لـــــم يُمتّع بضعف ولم يمت طبعـــــا

والحافظ النـــــاسَ فى تَحوط إذا لم يُرْسِلوا خَــلْفَ عائذ رُبَعــا

وعَزّت الشمألَ الرياحَ وقـــــد أمسى كَميـــعُ الفتاة مُلتفعــا

وشُبِّه الهَيْدَبُ العَبامُ من الــــــأقــوام سَقْبــا مُلبَّســا فَرَعــا

وكانت الــكاعبُ الممنَّعة الـــــحسناء فى زاد أهلها سَبُعـــــا

لِيَبْــكِكَ الشرب والمُدامــة والـــــفتيانُ طُرّا وطامـــعٌ طَمِعــــا

وذاتُ هِدْمٍ عارٍ نَواشِرُهـــــا تُصْمِتُ بالمـــاء تَوْلَبــا جَدِعا

الألمعى : الحديد اللسان والقلب ، وقد أبانه بقوله الذى يظن لك الظن كأن قـــد رأى وقـــد سمعـــا . والمخلف المتلف : أراد أنه يتلف ماله كَرَما ويخلفه نجدة . والطـــبع : أسوأ الطمع ، وأصله أن القلب يعتاد الخَلّة الدنيئة فتركبه كالحائل بينه وبـــين الفهم لقبح ما يظهر منه . وتحوط وقحوط : اسمان للسّنة الجدبة . والعائذ: الحديـــثة النتاج. والربع : الذى ينتج فى الربيع ، ومن شأنهم فى سنة الجـــدب أن ينحروا الفِصال لئلا ترضع فتضر بالأمهات . وعزت الشمأل الرياح : يقول غلبتها وتلك علامة الجدب وذهاب الأمطار . والــكميع : الضجيع . والــكاعب : التى كعب ثديها ، يقول تصير كالسّبع فى زاد أهلها بعد أن كانت تعاف طيب الطعام . وذات دم : يعـــنى امـــرأة ضعيفة . والهـــدم : الكساء الخَلَق الرّث . والنواشر : عروق الساعد . والتولب : الصغير . والجدع : السيىء الغذاء .

وقالت ليلى الأخيلية :

نظرتُ ورُكْنٌ من بُوانةَ دونَنـــــا وأركانُ حِسْمَى أىَّ نظرةِ ناظـــر

إلى الخيل أجْلى شأوُها عــن عقَيرة		لعاقرِها فيهـــا عَقيرةُ عاقـــر
كأن فتى الفتيان توبةَ لم يِنُـــخ		قلائص يَفحَصْنُ الحصَى بالكَراكر
ولم يَبْنِ أبرادا رِقاقا لفتيـــة		كرام ويَرْحَلْ قبــل فَيْءِ الهوَاجر
فتى لا تخَطّاهُ الرِّفاق ولا يـــرى		لقدْرٍ عيالا دون جارٍ مجـــاور
وكنتَ إذا مولاك خاف ظُلامـــةً		دعاك ولم يقنع ســواك بناصـر

شـــأوها : طَـــلْقها . وقولهـــا : لعاقرها فيها عقيرة عاقر : أى أصابوا عقيرة نفيسة. وقولها : ويرحل قبل فىء الهواجر : تريد أنه متيقظ ظعّان . والمولى فى قولها: إذا مـــولاك خاف ظلامة ، يحتمل ضُروبا ، والمولى هنا : ابن العم . وقولها : ولم يبن أبرادا : تريد الخيـــام .

وكـــانت الخنْساء وليلى بائنتين فى أشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول . فممن نـــدر مـــن النساء فى باب من الأبواب أم أيوب الأنصارية ، وأم الدَّرداء ، ورابعة القَيْســـية ، ومُعاذة العَدوَية ، فإن هؤلاء النسوة تقدمن فى الفضل والصلاح ، على تقدم بعضهن بعضا . فأما النساء الأشراف فإن القول فيهن كثير متسع . فمما ندر من شعر الخنساء قولها ترثى صَخْرا :

يا صخر وَرّادَ ماءٍ قـــد تناذَره		أهلُ المياة وما فى وِرْدِهِ عـــارُ
مشى السبنْتَى إلى هيجاءَ مُعضلة		له سلاحان أنيابٌ وأظفـــار
ومـــا عَجولٌ على بَوٍّ تَحنُّ لـــه		لهـــا حنينان إعلانٌ وإســـرار [1]
ترتع ما غفلتْ حتى إذا ادَّكَرَتْ		فإنمـــا هى إقبـــال وإدبـــار

---

(١) البو : جلد ولد الناقة يحشى تبنا ويقدم لها لتحن عليـــه .

يوما بأوْجَعَ منى يوم فـــــارقنى ... صخرٌ وللعيش إِحْلاء وإِمــــرار
وإن صخرا لوالينـــا وسيدُنـــا ... ولإن صخرا إذا نَشْتُو لنحّـــار
وإن صخرا لتأتمُّ الهُـــــداة به ... كأنه عَلَمٌ فى رأســـه نـــار
لم تره جارة يمشى بساحتهـــا ... لريبةٍ حين يخلى بيتَه الجـــار

قولهـــا :

يا صـــخر وراد ماء قد تنـاذره ... أهـــل الميـــاه وما فى ورده عار

تعـنى الموت ، أى لإقدامه على الحرب . والسبنق والسبندى : واحد ، وهو الجــرىء الصدر ، وأصله فى النمر . والعجول : التى فارقها ولدها . وقولها : إلى هيجاء معضلة تعنى الحرب . وقولها : كأنه علم فى رأسه نار ، فالعلم : الجبل .

ومن حسن شعرها قولهـــا :

أعينىَّ جُـــودا ولا تَجْمُـــــدا ... ألا تبكيـــان لصخر النَّــــدَى
ألا تبكيان الجرىءَ الجمَيـــــل ... ألا تبـــكيان الفتى الســـيدا
طويلَ النِّجــاد رفيـــع العمِـــا ... د ســـاد عشــيرتَه أمْـــردا
إذا القـــوم مَـــدُّوا بأيديهــــم ... من المجـــــد ثم مضى مُصْعِدا
يُـــكلِّفـــه القـــومُ ما عالَهم ... إنْ كـــان صغرهـــم مَوْلِـــدا
ترى الحمدَ يَهوِى إلى بيتـــــه ... يرى أفضـــلَ الكَسب أن يُحْمَدا

الــنجاد : حامل السيف ، تريد بطول نجاده طول قامته ، وهذا مما يمدح به الشريف . ورفيع العماد : إنما تريد ذاك ، يقال : رجل مُعَمَّد أى طويل . وما عالهم أى نالهم ونزل بهم .

ومن جيد قولهـــــا :

أَبَعْدَ ابنِ عمرو من آل الشريـــــ ـــدِ حَلَّتْ به الأرضُ أثقالهـــا
لَعَمْرُو أبيـــه لَنِعْمَ الفـــتى إذا النفسُ اعجبها مالهـــا
فإن تَـك مُـرةُ أَوْدَتْ بـــه فقـد كان يُـكثر تَقْتـالهـا
فخَرَّ الشوّامخُ مـــن فَقْـدِهِ وزُلزلت الأرضُ زِلزالهـــا
همتُ بنفسيَ كلَّ الهمـــوم فـأَوْلَى لنفسي أولى لهـــا
لأحْمِـلَ نفسي عـلى آلـةٍ فإمّـا عليهـا وإمـا لهـا

حـلت : من الحَلْى : تقول : زينت به الأرض الموتى . وقولهـا : لنعم الفتى إذا الـنفس أعجبها مالها : تقول : يجود بما هو له في الوقت الذى يؤْثره أهله على الحمـد والشوامخ : الجبال . والشامخ : العالى . وعلى آلة : أى على حالة وعلى خطـة هـى الفيصل ، فإما ظفرت وإما هـلكت . وقولهـا : فأولى لنفسى أولى لهـا : يقول الرجل إذا حاول شيئا فأفلته من بعدها ما كاد يصيبه : أولى له ، وإذا أفلت من عظيمة قال : أولى لى .

وقـالت الخنسـاء ترثى أخاها معاوية بن عمرو ، وكان معاوية أخاها لأبيها وأمها ، وكان صخر أخاها لأبيها ، وكان أحبهما إليها . وكان صخر يستحق ذلك مـنها بأمور منها أنه كان موصوفا بالحلم ، ومشهورا بالجود ، ومعروفا بالتقدم فى الشجاعة ، ومحظوظا فى العشيرة :

أرِبقى من دموعـــك واسْتَفيقى وصبرا إن أطقْتِ ولن تُطيـــقى
وقـــولى إن خير بنى سُلَيم وفارسَهـا بصحـــراء العَقيق
ألا هـل تَرْجِعَنَّ لنـا الليـالى وأيامٌ لنـا بِلَوى الشقيـق
وإذ نحن الفوارسُ كلَّ يـوم إذا حضروا وفتيـان الحقوق
وإذا فينا معاويـة بن عمرو إلى أدْمـاءَ كالجملِ الفَنيـق

فبكّيه فقد أوْدَى حَميدا — أمينَ الرأيِ محمودَ الصديق
فلا والله لا تَسْلاك نفسي — لفاحشة أتيتَ ولا عُقوق
ولكني رأيت الصبر خيرا — من النَّعلين والرأس الحَليق

تأويل النعلين أن المرأة كانت إذا أصيبت بحميم جعلت فى يدها نعلين تصفق بهما وجهها . وإنما قالت الخنساء هذا الشعر فى معاوية أخيها قبل أن يُصاب صخر أخوها . فلما أصيب صخر نسيت به من كان قبله . وكان معاوية فارسا شجاعا ، فأغار فى جمع من بنى سليم على غطفان ، وكان صميم خيلهم . فَنَذر به[1] القوم فاحتربوا فلم يزل يطعن فيهم ويضرب . فلما رأوا ذلك هَيأ له ابنا حرملة دريد وهاشم . فاستطرد [2] له أحدهما ، فحمل عليه معاوية فطعنه . وخرج عليه الآخر ، وهو لا يشعر ، فقتله فنادَى القوم : « قُتل معاوية » . فقال خُفاف بن نَدْبة : « قتلنى الله إن رِمْت [3] حتى أثأر به » . فحمل على مالك بن حمار، وهو سيد من بنى شَمْخ بن فزارة ، فقتله .

فلما دخلت الأشهر الحرم ورد عليهم صخر،فقال : « أيكم قاتل أخى ؟ » فقال أحد بنى حرملة للآخر : « خَبِّره » . فقال : « استطردتُ له فطعننى هذه الطعنة ، وحمل عليه أخى فقتله ، فأينا قتلت فهو ثأرك . أمَا إنّا لم نَسْلُب أخاك » . قال : « فما فعلتْ فرسه الشُّمَّى » . قال : « ها هى تلك فخذها » فانصرف بها . فقيل لصخر : « ألا تهجوهم ؟ » فقال : «ما بينى وبينهم أقذع من الهجاء ولو لم أمسك عن سبهم إلا صيانة للسانى عن الخنا لفعلت » . ثم خَاف أن يُظن به عيٌّ فقال :

---

(1) نذر به : علمه فحذره واستعد له .
(2) استطرد له : أظهر له الانهزام مكيدة .
(3) رمت : انتقلت .

وعاذلة هَبَّت بليـــــل تلومنى ... ألاَ لا تلوميني كفى اللومَ مابيـــا
تقول ألا تهجو فوارس هاشـــــم ... ومالىَ إذ أهجـــوهمُ ثم ماليـــا
أبى الشتمَ أنى قد اصابـــوا كريمتى ... وأنْ ليس إهداء الخنامن شِماليا
إذا ما امرُؤٌ أهدى لَمَيْت تحيـــــة ... فحَيَّاك ربُّ العرشِ عنى معاويـــا
وَهوَّنَ وَجْدى أننى لم أقُــــلْ لــه ... كذبتَ ولم أبخل عليه بماليـــــا

فـــلما انقضت الأشهر الحرم جمع لهم ليُغير عليهم . فنظرت غطفانُ إلى خيله بموضـــعها فقال بعضهم لبعض : « هذا صخر بن الشريد على فرسه السمى » . فقيل : «كلا السمى غَرَاء [١] » وكان قد حَمَّم [٢] غُرتها فأصاب فيهم وقتل دريد ابـــن حَرْمَــلة . وأما هاشم فإن قيس بن الأسور الجُشَمى لقيه وقد انفرد لحاجته ، فقال : « لا أطلب بمعاوية بعد اليوم » فأرسل عليه سهما ففلق قُحْقُحه [٣] .

وكـــان سبب قتل صخر بن عمرو بن الشريد ، أنه جمع جمعا وأغار على بنى أسد بن خزيمة فنذروا به فالتقوا فاقتتلوا قتالا شديدا . فارفَض أصحاب صخر عنه. وطعـــنه أبـــو ثور طعنة فى جنبه استقلّ بها . فلما صار إلى أهله تعالجَ فتنأمن الجرح كمـــثل اليد . فأضنــــــاه ذلك حولا . فسمع سائلا يسأل امرأته ، وهو يقول : « كيـــف صخر اليوم ؟» .فقالت : « لا ميت فينعَى ولا صحيح فيرجَى ». فعلم أنها قد برمت به . ثم عزم على قطع ذلك الموضع ، فلما قطعه مات .

---

(١) الفرس الغراء : التى لها بياض فى جبهتها .
(٢) حمم : ســـود .
(٣) القحقح : ملتقى الوركين من الباطن .

وكانت العرب تقدم مراثى وتفضلها وترى قائلها بها فوق كل مُؤَبن ، وكانهم يرون ما بعدها من المرثى منها أُخذت ، وفى كَنَفها تصلح . فمنها قصيدة أعشى باهلة . ويكنى أبا قحافة ، التى يرثى بها المُنتشر بن وهب الباهلى . وكان أحد رِجْلَى العرب ، وهم السعاة السابقون فى شَغْبهم . وكان من خبره أنه أسر صلاءة ابن العنبر الحارثى ، فقال : « افدِ نفسك » . فأبى . فقال : « لأقطعَنَّك أنملة أنملة وعضوا عضوا مالم تفد نفسك » فجعل يفعل ذلك به حتى قتله ثم حج من بعد ذلك المنتشر ذا الخُلصة ، وهو بيت كانت خثعم تحجه ، زعم أبو عبيدة أنه بالعَبَلات ، وأنه مسجدُ جامعها فدلت عليه بنو نُفَيل بن عمرو بن كلاب الحارثيين. فقبضوا عليه فقالوا : « لنفعلنّ بك كما فعلت بصلاءة » ففعلوا ذلك به . فلقى راكبٌ أعشى باهلة ، فقال له الأعشى : « هل من جائبة خَبر ؟ » قال : « نعم أسرت بنو الحارث المنتشر » وكانت بنو الحارث تسمى المنتشر مُجدِّعا . فلما صار فى أيديهم قالوا : « لَنُقَطِّعنك كما فعلت بصلاءة » فقال أعشى باهلة يرثى المنتشر :

إنى أتتنى لسانٌ لا أُسَرُّ بها ... من علُ عَجَبٌ لا منها ولا سَخَرُ
فَبِتُّ مُرْتفقا للنجم أرْقُبه ... حيرانَ ذا حذرٍ لو ينفع الحذر
فجاشت النفس لما جاء جمعُهمُ ... وراكب جاء من تَثْليثَ مُعتمر
يأتى على الناس لا يَلْوى على أحد ... حتى التقَينا وكانت دوننا مُضر
يَنْعىَ امرأ لا تُغِبّ الحيَّ جفنتهُ ... إذاالكواكب أخطأ نوْءَها المطَر[1]
من ليس فى خيره شَرٌّ يكدِّره ... على الصديق ولا فى صَفْوِه كَدَر
طاوى المصَيرِ على العَزاءِ منْصَلت ... بالقوم ليلةَ لا ماءٌ ولا شجر[2]

---

(١) تغب الحى : تأتيهم يوما وتغيب آخر .

(٢) المصير : الأمعاء .

obeikandi.com

لا تنكر البازلُ الكوْماء ضَرْبتهَ ... بالمشْرفى إذا ما أجْلود السفر[1]
وَتَفْزَعُ الشوْلُ منه حين تبصره ... حتى تَقطَّع فى أعناقها الجِرَر[2]
لا يُصعِبُ الأمرَ إلا رَيْث يركبه ... وكلّ أمر سوى الفحشاء يَأْتَمر
تكفيه فلْذَةُ كِبْدٍ إنْ ألَمَّ بها ... من الشواء ويكفى شُرْبَه الغُمَر[3]
لا يَتأرَّى لما فى القِدْر يرقُبه ... ولا تراه أمام القوم يَقْتَفر
لا يغمِز الساق من أيْنٍ ولاَ صبٍ ... ولا يَعضُّ على شُرْسوفه الصَّفَر[4]
مُهفهَفٌ أهضمُ الكَشحَين منْخرِق ... عنه القميصُ لسير الليل مُحتقر
عشنا بذلك دهرا ثم فارقنا ... كذلك الرمح ذوالنَّصلين ينكسر
لا يأمن الناسُ مُمساه ومصُبْحَه ... من كل أوْبٍ وإن لم يأت يُنتظَر
إما يُصبْك عدو فى مُباوَأة ... يوماً فقد كنتَ تَستعلِى وتنتصر[5]
لو لم تَخُنْه نُفيل وهى خائنة ... ألَمَّ بالقوم وِرْدٌ منه أو صَدرُ
زَراد حربٍ شهابٌ يُستضاء به ... كما يضىء سوادَ الطَّخيةِ القمر
إما سلكتَ سبيلا كنت سالكها ... فأذهب فلا يُبعد نْك الله منتشر
من ليس فيه إذا قاولتَه رَهَقٌ ... وليس فيه إذا عاسرتَه عَسَر

أراد باللسان هاهنا الرسالة . وقوله : فبت مرتفقا ، وهو المتكىء على مرفقه، وإنما أراد السهر . وقوله : إذا الكواكب أخطا نوءها المطر . فالنوء عندهم طلوع نجم وسقوط آخر ، وليس كل الكواكب لها نوء وإنما كانوا

---

(١) البازل : الناقة التى ظهر نابها . والكوماء : الضخمة السنام .
(٢) الشول : النوق التى مر على حملها أو وضعها سبعة أشهر .
(٣) الغمر : القدح الصغير .
(٤) الأين والوصب : التعب .
(٥) المباوأة : المبارزة .

يتقولون هذا فى أشياء بعينها . وقوله منصلت : يقال : سيف منصلت وصلت : إذا جرد من غمده . وقوله : ليلة لا ماء ولا شجر : يريد الفقر ووقت الصعوبة . وقوله : لا تنكر البازل الكوماء ضربته . يقول : قد عوّد الإبل أن ينحرها ، ومن شأنهم أنْ يعَرْقبوها قبل النَحر . والمشرفى : السيف ، وهو منسوب إلى المشارف. وقوله : اجلوذ : امتد . وقوله : حتى تقطع فى أعناقها الجرر ، يقول : اعتادت أن ينحرها فهى تفزع منه حتى تقطع جِرَّها . وقوله : لا يتأرى لما فى القدر يرقبه . يقول : لا يتحبس له . وقوله : ولا تراه أمام القوم يقتفر ، يقول : لا يسبقهم إلى شىء من الزاد . وقوله : يعض على شرسوفه الصفر ، الشراسيف : أطراف الضلوع . والصفر : هناحية البطن . وقوله : مهفهف : يعنى ضامرا ، وأهضم الكشحين توكيد له . وقوله : إما يصبك عدو فى مباوأة ، يقول : فى وِتْر. والطخبة شدة الظلمة . وقوله : ليس فيه إذا عاسرته عسر : مدح شريف مثل قولهم : إذا عز أخوك فهن . ،غنما هذا فيمن لا يخاف استذلاله بأن يخرج صاحبه عند مساهلته إلى باب الذل . فأما من كان كذلك فمعاسرته أحمد ومدافعته أمدح .

ومن أشعار العرب المشهورة المتخيرة فى المراثى قصيدة متمم بن نُويرة فى أخيه مالك . وسنذكر منها أبياتا نختارها . ومن ذلك قوله :

أقول وقد طار السَّنا فى رَبابه ... وغَيث يَسُحُّ الماء حتى تَرَيّعا
سقى اللهُ أرضا حَلها قبرُ مالك ... ذهابَ الغَوادى المدجنات فأمْرَعا[1]
وآثرَ سيلَ الوادِ بَيْن بديمة ... تُرشّحُ وَسْمِيًا من النبت خِرْوَعا
تَحِيَّتهُ منى وإن كان نائيا ... وأضحى ترابا فوقه الأرض بَلْقَعا[2]

---

[1] أمرع : أخصب .

[2] البلقع : المقفرة .

فما وَجْدُ أظآرٍ ثلاثٍ روائـــم ... رأيْنَ مَجَرًا من حُوار ومَصْرعـا

يُذكّرن ذا البَثّ الحزيــن ببثّه ... إذا حنّت الأولى سَجَعْن لها معا [1]

بأوجعَ منى يوم فارقتُ مالكـا ... ونادى به الناعى الرفيعُ فأسْمَعا

وفيهـا :

وكنا كنَدْمانَىْ جَذيمةَ حِقْبـةً ... من الدهر حتى قيلَ لن يتصدعـا

فلمـا تفرقْنا كأنى ومالكـا ... لطول اجتماع لم نَبِتْ ليلة معـا

وعِشْنا بخير فى الحياة وَقَبْلنـا ... أصاب المنايا رهطَ كِسْرى وتُبَّعـا

فإن تـكن الأيام فرّقْنَ بيننـا ... فقد بان محمودا أخى يوم وَدَّعـا

تقول ابنة العَمْرىّ مالك بعد ما ... أراك حديثا ناعم البال أفْرعَـا

فقلتُ لها طول الأسى إذ سألتِنى ... ولوعةُ حُزنٍ تترك الوجه أسْفعـا [2]

وفَقْدُ بنى أُمٍّ تفانَوْا فلم أكـن ... خلافهمُ أن أستكين وأضْرَعـا

ولستُ إذا مالدهرُ أحدث نكبـة ... ورُزْأ بزَوارِ القَرائب أخْضعـا

ولا فَرِحٍ إن كنت يوما بغِبْطـةٍ ... ولا جَزِعٍ إن نابَ دهرٌ فأوْجَعـا

ولـكننى أمضى على ذاك مُقْدِمـا ... إذا بعضُ من لاقى الخطوب تَكَعْكعا [3]

فعَمْرَك ألاّ تُسْمِعينى ملامـة ... ولا تَنْـكَئى قَرح الفؤاد فِييجعَـا

وقَصْرَكِ إنى قد شهدتُ فلم أجد ... بكفىّ عنه للمنيـة مَدْفعـا

فلو أن ما ألقى أصـاب مُتالعـا ... أو الركنَ من سَلْمى إذا لتَضعضعا

---

(١) البث : الحزن الشديد . وسجعن : رددن الصوت .

(٢) الأسفع : الأسـود إلى حمرة .

(٣) تكعكع : جبن .

obeikandi.com

وفى هذه القصيـــــدة :

لقد كَفَّنَ المِنْهالُ تحتَ ردائـــــه فتى غيرَ مبْطانِ العَشيّاتِ أرْوعــا
ولا بَرَمٍ تُهدى النساءُ لِعُرســـــه إذا القَشْعُ من برد الشتاء تَقَعْقعا[1]
لبيبا أعام اللُّبُّ منه سماحـــــةً خَصيبا إذا مارائدُ الَجدْب أوْضعا[2]
تراه كنَصْلِ السيف يهتزُّ للنـــدّى إذا لم تجدعن امرىءالسوء مَطْمعما
إذا ابتدر القومُ القداحَ وأُوقدت لهم نار أ ْيسار كفى من تَضَجَّعا[3]
بمَثْنى الأيادى ثم لمْ تُلْفِ مالـــكا على الفُرثِ يحمي اللحم أن يُتمزَّعا[4]

الرباب : سحاب دون السحاب كالمتعلق بما فوقه . وتريع : أى كثر حتى جاء وذهـــب . والذهـــاب : الأمطار اللينة . والمدجنات من السحاب : السود . وآثر ســـيل الواديـــين بديمة : زعم الأصمعى وغيره من أهل العلم أن الديمة المطر الدائم أيامـــا برفق . والوسمى : أول مطر يسم الأرض . والوالى : كل مطرة بعد مطرة ، فالـــثانية ولى للأخرى لأنها تليها . والخروع : كل عود ضعيف . أظآر : جمع ظئر، وهـــى الـــنوق تعطـــف على الحوار فتألفه . وروائم : واحدها رؤوم ومعنى ترأمه تشمه. والحوار : ولد الناقة . وندمانى جذيمة : يعنى جذيمة الأبرش الأزدى ، وكان مـــلـــكا . والأفرع : التام شعر الرأس وغير مبطان العشيات : يقول كان لا يأكل فى آخـــر نهاره انتظارا للضيف . والأروع : ذو الروعة والهيئة . والبرم : الذى لا يترل مع الناس ولا يأخذ فى الميسر ولا يترع إلا نـــكدا. القشع : الجلد اليابس .

---

(1) تقعقع : أحدث صوتـــا .
(2) أوضـــع : أسرع فى سيره .
(3) القداح : سهام الميسر . والأيسار : القوم المجتمون على الميسر .
(4) الفرث : فضلات الحيوان فى كرشـــة .

ولما احتضر إبراهيم النَّخَعى رحمه الله جزع جزعا شديدا فقيل له فى ذلك ، فقال : « وأى خطر أعظم من هذا ؟ إنما أتوقع رسولاً يرِد على من ربى إما بالجنة وإما بالنار » .

ولما احتضر ابن سيرين جعل يقول : « نفسى والله أعَزُّ الأنْفُس علىّ » .

ولما احتضر حجر بن عدى ليُقتل ، سأل أن يمهل حتى يصلى ركعتين . وظهر منه جزع شديد، فقال له قائل : « أتجزع ؟ » فقال : « وكيف لا أجزع : سيف مشهور، وكفن منشور ، وقبر محفور. ولست أدرى أيؤَدِّينى إلى جنة أم إلى نار » .

وممن ظهرت منه عند الموت قسوة هُدْبة بن خَشْرم العُذْرى ، وكان قتل زِيادة ابن زيد العُذْرِىّ . فلما حُمل إلى معاوية تقدم معه عبد الرحمن أخو زيادة بن زيد فأدعى عليه . فقال له معاوية : « ما تقول ؟» قال : « أتحب أن يكون الجواب شعرا أم نثرا ؟ » قال : « بل شعرا فإنه أمتع ». فقال هدبة :

فلما رأيتُ أنما هى ضربةٌ ... من السيف أو إغضاءُ عين على وِتْرِ[1]
عَمَدْتُ لأمر لا يُعَيِّر والدى ... خَزايتُه ولا يُسَبُّ به قبرى
رُمِينا فرامَيْنا فصادَفَ سهمُنا ... منيةَ نفس فى كتاب وفى قَدْر
وأنت أميرُ المؤمنين فمالنا ... وراءك من مَعْدًى ولا عنك من قَصْر
فإن تك فى أموالنا لا نَضِقْ بها ... ذَرْعا وإنْ صَبْرٌ فنصبرُ للصبر

---

(1) الوتر : الثأر .

فقال له معاوية : « أراك قد أقررت يا هدبة » .قال : « هو ذاك » فقال له عبد الرحمن : « أقدْنى [1] ». فكرة ذاك معاوية وضن بهدبة عن القتل ، وكان ابن زيادة صغيرا . فقال له معاوية : « أو ما عليك أن تشفى صدرك وتحرم غيرك » ثم وجّه به إلى المدينة فقال : « يُحبَس على أن يبلغ ابن زيادة » فبلغ . وكان والى المدينة سعيد بن العاص . ويقال : إنه عرض على ابن زيادة عشر ديات فأبى إلا القَوَد . وكان ممن عرض الديات عليه ممن ذُكِر لنا الحسين بن على ، وعبد الله بن جعفر عليهما السلام ، وسعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، وسائر القوم من قريش والأنصار . فلما خُرج به ليُقاد بالحرَة جعل ينشد الأشعار . فقالت له حُبَّى المدينية : « ما رأيت أقسى قلبا منك ! أتنشد الأشعار وأنت يُمضَى بك لتقتل ، وهذه خلفك كأنها ظبى عطشان تولول ؟ » تعنى امرأته . فوقف ووقف الناس معه ، فأقبل على حبى ، فقال :

ما وجدتْ وَجْدِى بها أُمُّ واحدٍ ... ولا وجدَ حُبَّى يابن أمَّ كلابِ
رأته طويل السَّاعدين شَمَرْدَلا ... كما انعتت من قوةٍ وشبابِ [2]

فأغلقت حبى الباب فى وجهه وسبته وعرض له عبد الرحمن بن حسان ، فقال: « أنشدنى » . فقال له : « أعلى هذه الحال ؟ » قال : « نعم » فأنشده :

ولستُ بِمفراحٍ إذا الدهر سَرَّنى ... ولا جازعٍ من صَرْفِه المتقلِّبِ
ولا أتبغَّى الشر والشرُّ تارِكى ... ولكنْ متى أُحمل على الشر أركب
وحَرَّبنى مولاى حتى غَشِيتهُ ... متى ما يُحَر بْك ابن عمك تَحرَب [3]

---

(1) أقدنى : اقتص لى ، أى عاقبه .

(2) الشمردل : الفتى القوى الصبور .

(3) حربه : أغضبه . وغشيته : أتيته .

فلما قُدِّم نظر إلى امرأته فدخلته غيرة ، وقد كان جُدِع فى حربهم فقال :

فإنْ يكُ أنفى بـــان منــــــه جمالُه ... فما حَسَبى فى الصالحين بأجْدَعا
فلا تَنْكِحِى إن فَرّق الدهـــر بيننا ... أغَمَّ القفا والوجه ليس بأنْزَعا [1]

فقـــالت : « قفوا عنه ساعة » . ثم مضت ورجعت وقد اصْطَلمت [2] أنفها فقالت : « أهذا فعل من له فى الرجال حاجة ؟ » فقال : « الآن طاب الموت » ثم أقبل على أبويه فقال :

أبْلياني اليومَ صــبرا منــــكما ... إنّ حُزنا منــــكما اليــوم لَشَرْ
ما أظن الموت إلا هيّنـــــــــا ... إنّ بعد المــــوت دارَ المستقر

ثم قال :

أذا العرشِ إنى عائذٌ بـــك مؤمنٌ ... مُقِرٌّ بزَلاتى إليــــــك فقيرُ
وإنى وإن قالـــــوا أميرٌ مسلَّط ... وحُجّابُ أبواب لهـــن صَرير
لأَعْلَم أنَّ الأمر أمــــرك إنْ تَدِنْ ... فرَبٌّ وإنْ تغفر فأنت غفور [3]

ثم قـــال لابــن زيسادة : « أثبِت قدميك وأجِد الضربة، فإنى أيتمتك صغيرا وأرملت أمك شابة » .

---

(١) أغم القفا : سال شعره عليه . والأنزع : المنحسر الشعر عن جانبى الجبهة. وكان العرب يستحبون النزع ويكرهون الغمم .

(٢) اصطلمت : قطعت .

(٣) دانه : حكم عليــــه .

وذكر الحرمازى أن الأحنف بن قيس لما مات ، وكان موته بالكوفة ، مشى المصعب بن الزبير فى جنازته بغير رداء ، وقال : « اليوم مات سيد العرب » . فلما دُفن قامت امرأته على قبره ، أحسبها من بنى مِنْقَر ، فقالت : « لله دَرُّك من مُجَنٍّ فى جنَنَ ، ومُدْرَج فى كَفَن [1] ! فنسأل الذى فجعنا بموتك، وابتلانا بفقدك، أن يجعل سبيل الخير سبيلك ، ودليل الخير دليلك ، وأن يوسع لك فى قبرك ، ويغفر لك يوم حشرك . فوالله لقد كنت فى المحافل شريفا، وعلى الأرامل عطوفا ، ولقد كنت فى الحى مسوّدا ، وإلى الخليفة مُوفَدا . ولقد كانوا لقولك مستمعين ولرأيك مُتَّبِعين » . فقال الناس : « ما سمعنا كلام امرأة أبلغ ولا أصدق معنى منها » .

ومما استطرفنا من شعر المحدثين قول يعقوب بن الربيع فى جارية طالبها سبع سنين يبذل فيها جاهه وماله وإخوانه حتى ملكها . فأقامت عنده ستة أشهر ثم ماتت . فقال فيها أشعارا كثيرة اخترنا منها بعضها . من ذلك قوله :

لله آنسةٌ فُجعْتُ بهـا ... ما كان أَبْعَدَها من الدنَس
أتتِ البِشارةُ والنَّعيُّ معـا ... يا قُرْبَ مأتِمِها من العُرُسِ
يا مُلْكُ نال الدهرُ فرصتَه ... فرمى فؤادا غير محترِس
كم من دموع لا تجف ومن ... نفس عليك طويلة النفس
أبكيك ما ناحتْ مُطوَّقةٌ ... تحت الظلام تنوح فى الغَلس [2]
يا مُلْكُ فىّ وفيك معْتَبر ... ومواعظٌ يوحِشْنَ ذا الأُنُس
ما بعد فُرْقَةِ بَيْنِنا أبدا ... فى لذةٍ دَرَكٌ لُملتَمِس

(1) المجن : المغيب . والجنن : القبر .

(2) المطوقة : الحمامة ذات اللون المخالف عند رقبتها . والغلس : الظلام .

وقريب من هذا قول امرأة شريفة ترثى زوجها ، ولم يــكن دخل عليها :

أبــكيك لا للنعيـــــم والأنس ... بل للمعـــــالى والرمحِ والفرسِ
أبــكى على فارسٍ فجعتُ بـــه ... أرمَلنى قبـــل ليـــلةِ العرس
يا فارســا بالعَراء مُطَّرَحـــا ... خانتْه قوّاده مـــــع الحرس
مَنْ لليتامى إذا هـــــمُ سَغِبوا ... وكلّ عانٍ وكـــــل محتَبس [1]
أم مَنْ لبرٍّ أم من لفـــــائدةٍ ... أم من لذكــر الإله فى الغلس

ومما أستطرفه من شعر يعقوب قوله :

ليت شعْرى بـــــأىِّ ذنب لُمْلْك ... كان هجرى لقبرهـــا واجتنابى
الذنب حَقَدتْه كان منهـــــاً ... أم لعلمى بشُغْلها عن عتـــابى
أم لأمْنِى لسُخطها ورضاهــــا ... حين واريتُ وجهَها فى التــراب
ما وَنَى فى العبـــــاد حَىٌّ لميْت ... بعد يأس منه له فى الإيـــــاب

وفى هذا الشعر :

إنما حسرتى إذا ما تذكَّـــــــر ... تُ عَنائى بها وطولَ طِـــــلابى
لم أزل فى الطِّــلاب سبع سنين ... أتأتّى لذاك من كـــــل باب
فاجتمعنا على اتفاق وقَـــدْر ... وغَنينا عن فُرقة باصطحـــاب
أشهُرا ستة صحبتُك فيهـــــا ... كنّ كالحلم أو كَلمْع الســراب
وأتانى النَّعِىُّ منك مع البشــــــ ... ــرى فياقُرْبَ أوْبة من ذهــاب

---

(1) سغبوا : جاعوا . والعانى : الأسير .

obeikandi.com

ومن مليح شعره أيضـــا قوله :

فُجِعتُ بمُلْك وقـــــــد أينعت ... وتمت فأعْظِمْ بها من مصيبَـــــةْ
فأصبحتُ مغترِبـــا بعدهـــــا ... وأمست بحُلوانَ مُلْكٌ غَريبـــــه
أراني غريبـــــا وإنْ أصبحتْ ... منازلُ أهليَ منى قريبـــــــه
خَلَفْتُ على أختها بعدهـــــــا ... فصادفتُها ذاتَ عقل أديبـــــه
فأقبلتُ أبـــكى وتبـــكى معى ... بـــكاء كئيب بحُزْنٍ كئيبـــــه
وقلتُ لهـــا مرحبـــا مرحبـــا ... بوجهِ الحبيبة أخت الحبيبـــــــه
سأصفيك ودى حِفاظا لهـــــا ... فذاك الوفاءُ بظهر المَغيبـــــه [1]
أراك كَمُلْكٍ وإنْ لم تـــــكن ... لمُلْك من الناس عندى ضَريبه [2]

خطب ومواعظ

قال الأصمعى فيما بلغنى : خطبنا أعرابى بالبادية فحمد الله واستغفره ووحّده وصلى على نبيه، فبلغ فى إيجاز ثم قال : « أيها الناس إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قـــرار، فخُذوا من مفرّكم لمَقَرْكم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم ، فى الدنيا كنتم ، ولغيرها خُلقتم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم والمُصلّى عليه رسول الله ، والمدعو له الخليفة ، والأمير جعفر بن سليمان » .

---

(١) أصفيك الود : أخلصـــه لك .

(٢) ضريبـــة : مثيلة .

وحدثت فى بعض الأسانيد أن عمر بن عبد العزيز قال فى خطبة له : « أيها الناس إنما الدنيا أمل مُخْتَرَم [١] ، وأجل مُنتقَص ، وبلاغ إلى دارٍ غيرها ، وسير على الموت ليس فيه تَعريج [٢] . فرحم الله امرأ فكر فى أمره ، ونصح لنفسه ، وراقب ربه ، واستقال ذنبه [٣] ، ونوّر قلبه . أيها الناس قد علمتم أن أباكم قد أخرج من الجنة بذنب واحد ، وأن ربكم وعد على التوبة . فليكن أحدكم من ذنبه على وَجَل [٤] ، ومن ربه على أمل » .

وذكر العتبى قال : خطب الناس بالموسم عُتبة فى سنة إحدى وأربعين ، وعهد الناس حديث بالفتنة . فاستفتح ثم قال : « أيها الناس ، إنا قد وَلِينا هذا الموضع الذى يضاعف الله فيه للمحسن الأجر وعلى المسىء الوِزْر . فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا فإنها تنقطع دوننا . ورُبَّ مُتَمَنٍّ حَتْفهُ فى أمنيته . اقبلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم . وإياكم « وَلَوْ» ، فقد أتعبت من كان قبلكم ، ولن تريح من بعدكم . فاسألوا الله أن يعين كُلاًّ عن كلّ » . فَنَعق به أعرابى من مؤخر المسجد ، فقال : « أيها الخليفة» . فقال : « لستُ به ولم تُبعِد» قال : « فيا أخاه» قال : « قد أسمعتَ فقل» فقال : « واللهِ لأنْ تُحسنوا وقد أسأنا خَيْرٌ لكم من أن تسيئوا وقد أحسنا . فإن كان الإحسان لكم فما أحقَّكم باستتمامه ، وإن كان لنا فما أحقَّكم بمكافأتنا . رجلٌ من بنى عامر يَمُتّ إليكم [٥] بالعمومة ،

---

(١) مخترم : مستأصل .

(٢) تعريج : وقوف وإقامة .

(٣) استقال ذنبه : استغفر منه .

(٤) الوجل : الخوف .

(٥) يمت إليكم : يتوسل .

ويختص إليكم بالخئولة ، وقد وطئه زمانٌ وكثرة عيال ، وفيه أجر، وعنده شكر » .
فقـــال عتـــبة : « أستعيذ بالله منك وأستعينه عليك . قد أمرت لك بغِناك ، فليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنـــك » .

هذا آخر الـــكتاب ، وقد وفَّيناه جميع حقوقه ، ووفَّينا بجميع شروطه ، إلا ما أذهل عنه النسيان ، فإنه قلما يُخلَى من ذلك .

فهرس

الموضـــــــــــوع	صفحة
مقدمـــــــة	٣
مقدمة المؤلف	١٢
من خطب الرسول والصحابة	١٣
أشعار مستحسنة	٢٠
من أقوال الحكماء فى المروءة	٢٥
نفــــاق	٢٦
هجاء وفخـــر	٢٦
أقوال ســـائرة	٢٩
رثـــاء	٣١
حسن الأدب	٣٤
حماية الجـــار	٣٦
الرجل القبيح الشجاع	٣٩
القول والفعل	٤٠
كلمات واعظـــة	٤٠
توبة وخلق	٤١
أقوال ســـيارة	٤٤
خمريـــــات	٤٨
أقوال	٥١

obeikandl.com

الموضـــــوع	الصفحة

الســـيد	٥٢
قلة النوم من الذكـــاء	٥٤
المعروف	٥٦
من أقوال العرب فى الطيرة	٥٧
الفقر والغنى	٥٨
غـــزل	٥٨
مواعـــظ	٥٨
فرســان العرب	٥٩
دينيـــات	٥٩
الأبناء ومآثر الآباء	٦١
هجاء ومـــدح	٦٣
خير المجالـــس	٦٤
الإحسان والمنـــة	٦٦
نقـد الأشـــعار	٦٧
إصابة الهدف فى المديح	٧١
الدنيـــا	٧٣
عـــلل	٧٤
أمثـــال	٧٥
التقـــوى	٧٧
الصديق عند الحاجة	٧٩

obeikandl.com

الموضوع	الصفحة
على وطلحة	٨٠
كفى بالسلامة داء	٨٠
بكاء الأبناء	٨٢
اللذة الباقية	٨٣
تواضع وبر وشجاعة	٨٤
عظات	٨٥
رثاء الأبناء والإخوة	٨٦
قومه	٨٧
جرير وقيس	٨٨
أبناء الشعراء	٨٩
نصائح	٩١
زياد بن أبيه والسلطان	٩٢
الحجاج	٩٣
غزل	٩٥
الأرحام	٩٨
أقوال لزياد	٩٩
توقيعات	٩٩
الجود	١٠٣
عجوزان	١٠٤
الرزق والمقدور	١٠٥

obeikandl.com

الموضـــــوع	الصفحه
على ومعاويـــة	١٠٥
خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان	١٠٩
العصبيـــة	١١٠
بعد العسر يسر	١١١
مواعـــظ	١١٣
الأعـــراب	١١٥
الســـواقط	١١٦
أفضل الأخبار	١١٨
مديـــح	١١٨
الفرزدق والذئب	١١٩
الغـــد	١٢٠
خطبة الحجاج حين ولى الكوفة	١٢١
من أشعار المولدين	١٢٦
الصـــبر	١٣٠
عقل ولســان	١٣١
أقضيـــة	١٣١
العرب والموالى والأنساب	١٣٦
صيغة فعـــال	١٣٨
الـــزواج	١٤٠
الخـــداع	١٤٧

الموضـــوع	الصفحة
ســـفارات	١٤٧
أولاد الإمـــاء	١٥٠
مصعب وابنه	١٥٥
الكـــــرام	١٥٦
مجلس عبد الملك بن مروان	١٥٨
كثير عـــزة	١٥٨
نصـــيب	١٦١
أقوال ســـيارة	١٦٣
الإخـــوان	١٦٤
الجـــود	١٦٥
الجـــود والبخـــل	١٦٧
الصـــدق	١٦٧
البـــغض	١٦٨
جـــواب	١٦٨
كذب الأعـــراب	١٦٩
اللســـان	١٧٤
غزل ولهو وغنـــاء	١٧٥
الجد والهـــزل	١٨٦
ضروب الكلام والكناية	١٨٦
حب وغـــزل	١٨٨

obeikandl.com

الموضـــــوع	الصفحة

صيانة الســـر ١٩٠
باب مختلـــط ١٩٢
سعيد بن سلم ١٩٢
البدل والالتفات ١٩٣
تشبيهات المختارة ١٩٧
الريـــــاح ٢٠٥
أقبح العيـــوب ٢١١
التشبيهات المستحسنة ٢١٣
خفة بعد ثقـــل ٢٣٣
البخل والجـــود ٢٣٣
أخبار الخـــوارج ٢٣٤
المختار من التعازى والمرائى ٣٢٦
خطب ومواعـــظ ٣٤٦
الفهرس ٣٤٩

obeikandi.com